

## فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنْ عَطَفَ الدُّعَاءَ عَلَى الاستِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ العامِّ عَلَى الخاصِّ.

الأولون. ولقد أخبرني بعض من يتولى قبض ما ينذر القبوريون لبعض أهل القبور أنه جاء إنسان بدراهم وحلية نساء، وقال هذه لسيدة فلايريد صاحب القبر نصف مهر ابنتي. لأنى زوجته وكنت ملكت نصفها فلانا - يريد صاحب القبر..

وهذه التزور بالأموال، وجعل قسط للقبير، كما يجعلون شيئا من الزرع يسمونه «تلما» فى بعض الجهات اليمنية. وهذا شئ ما بلغ إليه عباد الأصنام وهو داخل تحت قول الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ بلا شك ولاريب.

نعم استغاثة العباد يوم القيامة وطلبهم من الأنبياء إنما يدعون الله تعالى ليفصل بين العباد بالحساب. حتى يريحهم من هول الموقف وهذا لاشك فى جوازه. أعنى طلب الدعاء الله تعالى من بعض عباده لبعض. بل قال ﷺ لعمر رضى الله عنه لما خرج معتمر «لاتنسنا يا أخى من دعائك»<sup>(١)</sup> وأمرنا سبحانه أن ندعو للمؤمنين ونستغفر لهم فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ وقد قالت أم سليم رضى الله عنها «يا رسول الله خادمك أنس، أَدع الله له»<sup>(٢)</sup> وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يطلبون الدعاء عنه ﷺ وهو حى وهذا أمر متفق على جوازه والكلام فى طلب القبوريين من الأموات أو من الأحياء الذين لايملكون لأنفسهم نفعا ولاضرا ولا موتا ولا حياة ولانشورا أن يشفوا مرضاهم ويردوا غائبهم، وينفسوا عن جلاهم، وأن سقوا زرعهم، ويدروا ضروع مواشيهم ويحفظوها من العين، ونحو ذلك مِنَ المَطالِبِ التى لايقدر عليها إلا الله - هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ ﴾ فكيف يطلب الإنسان من الجماد أو من حى - الجماد خير منه - لأنه لا تكليف عليه<sup>(٣)</sup>.

قال ابن عثيمين<sup>(٤)</sup>: فيه مسائل:

● الأولى: أَنْ عَطَفَ الدُّعَاءَ عَلَى الاستِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ العامِّ عَلَى الخاصِّ

يعنى: حيث قال فى الترجمة باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، ووجه ذلك أن الاستغاثة طلب إزالة الشدة والدعاء طلب ذلك وغيره، إذا الاستغاثة نوع

(١) تقدم تخريجه وأنه ضعيف

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تطهير الاعتقاد (ص ٢٧، ٢٩).

(٤) القول المفيد ١/ ٣٥٧ - ٣٦٣.

الثانية: تفسير قوله ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الثالثة: أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

الرابعة: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ فَعَلَهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ، صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

الخامسة: تفسير الآية - التي بعدها.

من الدعاء، والدعاء أعم، فهو من باب عطف العام على الخاص، وهذا سائغ في اللغة العربية، فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ .

● الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ .

الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ خاصة ، بدليل الآيات التي قبلها ، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

فإن قيل: كيف ينهاه الله عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعاً؟

أجيب: إن الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك ، كأنه يقول: لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهل الضلال، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعاً.

● الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، مضافاً إلى قوله تعالى

: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

[قلت]: وهذا يؤيد قول من قال: إن الفاظ الكفر والشرك والظلم في القرآن غائية

أى تحمل على الأكبر.

● الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاءً لغيره ، صار من الظالمين.

تؤخذ من كون الخطاب للرسول ﷺ ، وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاءً لغيره، صار من الظالمين، حتى ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك، فدعا صاحب قبر إرضاءً لذلك المشرك، فإنه يكون مشركاً، إذ لا تجوز المحابة في دين الله. قلت: وفيه رد على من منع إطلاق الشرك أو الكفر على من دعا غير الله ممن يزعم الصلاح أو يزعمون فيه ذلك بدعوى صلاح أو ولايته بزعمهم!!

● الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَصْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الآية ، فإذا كان

لا يكشف الضر إلا الله ، وجب أن تكون العبادة له وحده والاستغاثة به وحده.

السادسة: كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا.

السابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ.

الثامنة: أَنْ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطَلَّبُ إِلَّا مِنْهُ.

التاسعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ .

العاشرة: أَنَّهُ لَا أَضْلَ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ.

● السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا.

تؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ فلم يتفجع من دعائه هذا ، فحسر الدنيا بذلك ، والآخرة بكفره .

[قلت]: وهذا الذي يعبد الله على حرف إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة بسبب أنه يدعو مالا يضره ولا ينفعه بل ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبيس العشير .

● السابعة: تفسير الآية الثالثة.

وهي قوله تعالى : ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ .

وقوله : ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ حال من الرزق ، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند الله وحده .

● الثامنة: أَنْ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اللَّهِ ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطَلَّبُ إِلَّا مِنْهُ .

تؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، لأن العبادة سبب لدخول الجنة ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله : ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

● التاسعة: تفسير الآية الرابعة:

وهي قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأِيسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ ﴾ .

● العاشرة: أَنَّهُ لَا أَضْلَ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ .

تؤخذ من قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأِيسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ ﴾ لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي .

- الحادية عشرة: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنِ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنَّهُ.
- الثانية عشرة: : أَن تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ المَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.
- الثالثة عشرة: تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.
- الرابعة عشرة: كُفْرُ المَدْعُوِّ بِتِلْكَ العِبَادَةِ.
- الخامسة عشرة: هِيَ سَبَبٌ كَوْنُهُ أَضَلَّ النَّاسَ.

● الحادية عشرة: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنِ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنَّهُ.

لقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ .

﴿ وَهُمْ ﴾ أي: المدعوون ، ﴿ عَنِ دُعَائِهِمْ ﴾ ، أي : دعاء الداعين ، أو عن دعاء الداعين إياهم ، فالاحتمال في الضمير الثاني، وهو قوله : ﴿ عَنِ دُعَائِهِمْ ﴾ أما الضمير الأول، فإنه يعود إلى المدعوين لا ريب، وقد سبق بيانه بالتفصيل.

● الثانية عشرة: أَن تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ المَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَشَرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾

● الثالثة عشرة: تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾

● الرابعة عشرة: كُفْرُ المَدْعُوِّ بِتِلْكَ العِبَادَةِ.

معنى كفر المدعو: رده وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره.

تؤخذ من قوله: ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾

● الخامسة عشرة: هِيَ سَبَبٌ كَوْنُهُ أَضَلَّ النَّاسَ.

وذلك لأمر، هي:

١- أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له .

٢- أن المدعوين غافلون عن دعائهم .

٣- أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء .

٤- أنه كافر بعبادتهم .

السادسة عشرة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ.

السابعة عشرة: الْأَمْرُ الْعَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا جُلَّ هَذَا يَدْعُوهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

الثامنة عشرة: حِمَايَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَالتَّأَدُّبِ مَعَ اللَّهِ.

● السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة.

وهي قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ وقد سبق ذلك .

● السابعة عشرة : الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله.. الخ.

وهو كما قال رحمه الله : وهذا موجود الآن؛ فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيماً، فإذا وقعوا في الشدة دعوا الله مخلصين له الدين، وكان عليهم أن يلجؤوا للأصنام لو كانت عبادتها حقاً إلا أن من المشركين اليوم من هو أشدّ شركاً من المشركين السابقين، فإذا وقعوا في الشدة دعوا أولياءهم؛ كعلی والحسين، وإذا كان الأمر سهلاً دعوا الله، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه صادقون حلفوا بعلی أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه كاذبون حلفوا بالله ولم يبالوا.

[قلت]: قال الصنعاني<sup>(١)</sup>: بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبلوا منه فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه وهكذا كان عباد الأصنام. ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

قال حامد الفقى: وهم يحكون في ذلك حكايات اختلقوها أن حالفاً حلف بالولى كاذباً أنه ما سرق سمكة، فما كاد ينتهى من حلفه حتى تصرف الولى فيه وأخرجها من بطنه وأمثال هذا كثير عند سدنة هذه الأوثان، يختلقونها، ويذيعونها في العامة ترويحاً لتجارتهن الخاسرة قبحهم الله أه.

● الثامنة عشرة : حماية المصطفى حِمَى التوحيد، والتأدب مع الله.

اختار المؤلف أن قوله : «لايستغاث بى» من باب التأدب بالألفاظ والبعد عن التعلق بغير الله، وأن يكون تعلق الإنسان دائماً بالله وحده؛ فهو يعلم الأمة أن تلجأ إلى الله وحده إذا وقعت في الشدائد، ولا تستغيث إلا به وحده. اهـ



(١) تطهير الاعتقاد (٤٠، ٤١).

## ١٤) بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ وَلَا يَسْتَبِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ (١)

- الثناء على الترجمة:

تأسى المصنف فى هذا التبويب بطريقة العلماء الراسخين من السلف الصالحين كالبخارى وغيره، إذ يؤثر عنهم الاكتفاء فى التبويب بالآية أو الحديث أو ببعضهما.

- المراد من الباب ومناسبته لما قبله:

قال سليمان آل الشيخ (٢): المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعوين من دون الله أنهم لا يتفعون ولا يضررون وسواء فى ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأصنام، فكل من دعى من دون الله فهذا حاله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (٣). أهـ

قال حامد بن محمد (٤): باب بيان ما يدل من الدلائل والبراهين الساطعة على معنى قوله ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ الآية أهـ.

وقال ناصر السعدى (٥): هذا شروع فى براهين التوحيد وأدلته؛ فالتوحيد له من البراهين الثقيلة والعقلية ما ليس لغيره.

قال ابن عثيمين (٦): لما ذكر رحمه الله الاستعاذة والاستغاثة بغير الله عزوجل ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل.

قال الفقير: ولمناسبة أخرى وهى بيان مدى عجبه الشديد من صنيع هؤلاء المشركين حيث تعلقوا بخيط العنكبوت، فكأن الترجمة الماضية كانت لبيان حال الداعى والعجب من ضلاله فالأعجب والأبين للضلال أن يبين حال المدعوين من دون الله، فوضع هذه الترجمة بعد هذه. والله أعلم.

● الخلاصة:

فالمناسبة باختصار لأمرين

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٨٢، ١٨٣.

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٨).

(٦) القول المفيد ١/ ٣٦٤.

(١) الأعراف: ١٩١/١٩٢.

(٣) الحج: ٧٣/٧٤.

(٥) القول السديد ٥٣.

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ (١)

الأول: أنه لما بين حال الداعي لغير الله وأنه ليس هناك أضل منه فناسب أن يذكر حال المدعو، وأنه ما يملك لنفسه من قطمير.

الثاني: لبيان العجب والدهشة من هذا حاله.

وهذا أوان الشروع في الموضوع.

قوله تعالى ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ...﴾ الآية

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٢): حيث دلَّت الآية على أن التوجه إلى غير الله لجلب النفع أو

دفع الضر شرك. أ.هـ.

قوله: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾.

- الإعراب (٣):

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكارى،

(ويشركون) فعل مضارع، والواو فاعل، و(ما) مفعول به، وجملة (لا يخلق) صلة الموصول، و(الواو) حالية، و(هم) مبتدأ، وجملة (يخلقون) بالبناء للمجهول خبر «هم»، و(الواو) نائب فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتوبيخهم على ما اقترفوه. وهذا الضمير يعود على الأصنام المعبر بـ «ما»، وعبر عنها بـ «ما» لاعتقاد الكفار فيها ما يعتقدونه في العقلاء، ويجوز أن يعود على الكفار، أى: وهم مخلوقون لله، فلوا تفكروا في ذلك لآمنوا.

● تفسير الآية بما جاء عن التابعين

عن الحسن في الآية قال: هذا في الكفار، يدعون الله فإذا آتاهما صالحاً هردا ونصرا

قال ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ يقول: يطيعون ما لا يخلق شيئاً وهي

الشياطين لا تخلق شيئاً وهي تخلق ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ يقول: لمن يدعوهم.

- قوله: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾.

● أقوال أهل التفسير

- قال ابن جرير (٥): يقول تعالى ذكره: أشركون في عبادة الله، ويعبدون معهم

﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ والله يخلقها وينشئها، وإنما العبادة الخالصة للخالق، لا للمخلوق.

(٢) الجديد (١٣٦).

(١) الأعراف/ ١٩١، ١٩٢.

(٣) إعراب القرآن (٥٠٩/٣).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٦٢٧/٣) ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٥) تفسير الطبري (١٠٢/٩/٦).

ثم ذكر بسنده عن ابن زيد قال: وُلِدَ لآدم وحواء ولد فسمياه عبدالله، فأتاهما إبليس فقال ماسميتما يا آدم ويا حواء ابنكما؟ قال: وكان ولدهما قبل ذلك ولد فسمياه عبدالله فمات: فقالا: سمينا عبدالله. فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما لا والله ليذهبن به كما ذهب بالآخر!! لكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمياه عبدشمس (١).

قال فذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ الشمس تخلق شيئاً حتى يكون لها عبد!! إنما هي مخلوقة وقد قال رسول الله ﷺ خدعهما مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض.

وقيل ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ فأخرج مكينهم مخرج مكنى بنى آدم وقد قال ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا﴾ فأخرج ذكروهم ب (ما) لا ب (من) مخرج الخبر عن غير بنى آدم؛ لأن الذى كانوا يعبدونه إنما كان حجراً أو خشباً أو نحاساً أو بعض الأشياء التى يخبر عنها ب (ما) لا ب (من) فقيل لذلك (ما) ثم قيل و(هم) فأخرجت كنياتهم مخرج كناية بنى آدم لأن الخبر عنها بتعظيم المشركين إياها نظير الخبر عن تعظيم الناس بعضهم بعضاً أهـ.

- قال البغوى (٢): قوله تعالى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعنى: إبليس والأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى هم مخلوقون أهـ.

- قال الزمخشري (٣): أجريت الأصنام مجرى أولى العلم فى قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ بناء على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إياها آلهة.

والمعنى: أشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ لأن الله عز وجل خالقهم، أولاً يقدر على اختلاق شيء؛ لأنه جماد وهم يخلقون؛ لأن عبدتهم يخلقونهم فهم أعجز من عبدتهم أهـ.

- وقال ابن الجوزى (٤) بعد أن ذكر أثر ابن زيد المتقدم وقال غيره: هذا راجع إلى الكفار حيث أشركوا بالله الأصنام وهى لا تخلق شيئاً. ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى وهى مخلوقة، أهـ.

وقال الفخر الرازى (٥) رداً على قول ابن زيد، ومن وافقه، ومنتصراً للقول الثانى - أى المقصود بها الأصنام -:

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وابن أبى حاتم فى تفسيره (١٦٣٥/٥).  
(٢) الكشاف (١١٠ - ١٠٩/٢).  
(٣) معالم التنزيل (٥٨٣/٢).  
(٤) زاد المسير (٢٣٢/٣).  
(٥) التفسير الكبير (٩٤/١٥/٨).



اعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه ليس المراد بقوله: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ما ذكره من قصة إبليس إذ لو كان المراد ذلك لكانت هذه الآية أجنبية عنها بالكلية. وكان ذلك غاية الفساد في النظم والترتيب، بل المراد ما ذكرناه في سائر الأجوبة من أن المقصود من الآية السابقة الرد على عبدة الأوثان. اهـ.

ثم قال: المقصود هذه من الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للالهية تقوله ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ معناه أيصدون مالا يقدر على أن يخلق شيئاً وهم يخلقون أى وهم مخلوقون يعنى الأصنام. اهـ.

وقال القرطبي (١): قوله: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أى أيعبدون مالا يقدر على خلق شيء. اهـ ثم ذكر بنحو من كلام الزمخشري وابن الجوزي والرازي من أن الأصنام أجريت مجرى الناس.

قال ابن كثير (٢): هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهى مخلوقة لله مربية مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى أشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجتمعوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ \* مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ﴾ الآية.

قال الشوكاني (٣): الاستفهام فى ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ للتفريع والتوبيخ أى كيف يجعلون لله شريكاً، لا يخلق شيئاً، ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع عنهم. اهـ.

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٧٧٧). (٢) تفسير ابن كثير (٢/٢٦٦).

(٣) فتح القدير (٢/٢٩٠).

وقال صاحب الظلال<sup>(١)</sup>: لما كان هذا هو اتجاه السياق القرآني، فإنه يستقل من القصة ومن أسلوب الحكاية في الفقرة السابقة إلى مواجهة مشركي العرب وإلى أسلوب الخطاب انتقالاً مباشراً، كأنه امتداد للحديث السابق عليه عن تلك الآلهة.

إن صيغة التعبير القرآنية توحي بأنه كان يعني كذلك تقريرهم على اتخاذ آلهة من البشر، فهذه الواو والنون «أَيْشُرْكُونَ» تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشراً من العقلاء الذين يعبر عنهم بضمير العاقل.

وما علمنا أن العرب في وثنيهم كانوا يشركون بآلهة من البشر بمعنى أنهم يعتقدون بآلهتهم أو يقدم الشعائر التعبدية لهم، إنما هم كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية، والأحكام والنزاعات. وأن القرآن يعبر عن هذا الشرك، ويسوى بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء.

وهذا هو الاعتبار الإسلامي لهذا اللون من الشرك فهو شرك كشرك الاعتقاد والشعائر لافرق بينه وبينه أهـ.

قلت: بل قد يكون أتزلهم القرآن منزلة العقلاء باعتبار معتقد أهل الجاهلية فيهم وباعتبار معاملتهم لهم وهذا كما تقدم أقوى حجة لا أنه خاطبهم لأنهم بشراً أو من بيتهم بل كانوا أصناماً كذلك قال تعالى: «مَا لَا يَخْلُقُ» وهي غير العاقل ولم يعبر بمن كما تقدم وهذا كما قال شيخ الإسلام في مقدمة التفسير خطأ في الدليل لا في المدلول فالذي ذهب إليه صاحب الظلال صحيح وهو المدلول لكن الآية لا تدل عليه لكنه - رحمه الله وكانت هذه القضية في ذهنه وهو يريد أن يوجه كل آية إليها ولو اكتفى بالأدلة المصرحة عليها لأغنت وكفت ووقت والله أعلم.

\* كلام سُراح كتاب التوحيد في الآية:

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: فحاصل كلام المفسرين على الآية المترجم لها أن قوله تعالى «أَيْشُرْكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ» توبيخ وتعنيف للمشركين بأنهم يعبدون مع الله تعالى عباداً لا تخلق شيئاً وليس فيها ما تستحق به العبادة من الخلق والرزق والنصر لأنفسهم أو لمن عبدتهم وهم مع ذلك مخلوقون مُحدَثون ولهم خالق خلقهم وإن خرج الكلام مخرج الاستفهام، فالمراد به ما ذكرناه.

قال حامد بن محمد<sup>(٣)</sup>: يخبر تعالى عن فساد عقول المشركين وضلالهم وعمى

(١) الظلال (٣/١٤١٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٨٣)

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٨ - ٢٤٩)

بصائرهم منبهاً على ذلك بالاستفهام الإنكارى أيشركون بالله الذى تفرد بالملك، والحمد، والخلق، والأمر، والعز، والبقاء، والربوبية، والقيومية، والقهر، والتدبير، والإحياء، والإماتة، والعطاء، والمنع، والنفع، والضرب، بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، يفعل ما يشاء ويختار، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، لو أن الخلق أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا فى صعيد واحد وسألوه فأعطى كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، سبحانه وتعالى بائن عن خلقه غنى عما سواه لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، قادر على كل شيء عليم بكل شيء ما فوق العرش وتحت العرش فى العلم عنده سواء، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون سبحانه وتعالى عما يشركون أيشركون خلقاً ما أو يشركون به مخلوقاً من ماء مهين مدبراً فى الرحم من حال إلى حال نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يكسو العظام لحماً ثم ينفخ فيه ويرزق من دم الحيض غذاء وشراباً إلى حد معلوم عنده ثم أخرجه متولثاً بما تكرهه النفوس فيعطف الله عليه الأبوين ويشفقهما عليه فيريانه بأمر الله وهو يتقلب فى القاذورات ويرضع ثدى أمه إلى حولين لمن أراد أن يتم الرضاعة ثم يخلق له أسناناً نوعين نوع للقطع ونوع للمضغ والطحن وخلق له كل شيء من النعم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (١). ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (٢) فالإنسان مدبر مقهور لولا فضل الله ورحمته لكان من الهالكين لا يعلم مصالح نفسه ولا مفاسدها، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣). يقلبه يميناً وشمالاً وهو لا يشعر لو يأتيه أذى مصيبة من المصائب عجز عن دفعها ورفعها، ضعيف نحيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا يملك فى الكون مثقال ذرة ملكاً حقيقياً ولا نقيراً ولا قطميراً ولا فتياً، فمن كان هذا حاله فكيف يتصور أنه ينفع أو يضر أو يعطى أو يمنع أو يخذل أو يعز أو يذل أو يقدر على أمر من الأمور الكونية، وقد قال الله لأفضل الخلق أجمعين وسيد الأنبياء والمرسلين وحبيبه وصفوته من خلقه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٤).

(١) إبراهيم (٣٤).

(٢) النحل (٥٣)

(٣) البقرة (٢١٦).

(٤) آل عمران (١٢٨).

وبنحوه قال عبدالله بن جار الله<sup>(١)</sup>، وابن باز وزاد<sup>(٢)</sup>:

وفى هذه الآية صفات هؤلاء المعبودين من دون الله وهى أربعة:

الأول: أنهم لا يخلقون شيئاً.

الثانى: أنهم مخلوقون مربوبون.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: هنا عبر بـ ﴿مَا﴾ دون «من»، وفى قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ عبر بـ ﴿مِنْ﴾. أه تقدم قول المفسرين فيها،

وتابعهم هنا ابن عثيمين حيث قال:

والمناسبة ظاهرة؛ لأنَّ الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أما هنا؛ فالمدعو جماد؛

لأنَّ الذى لا يخلق شيئاً ولا يصنعه جماد لا يفيد.

قوله: ﴿شَيْئاً﴾.

نكرة فى سياق النفى؛ فتفيد العموم.

وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

والربّ المعبود لا يمكن أن يكون مخلوقاً، بل هو الخالق؛ فلا يجوز عليه الحدوث ولا

الفناء.

والمخلوق: حادث، والحادث يجوز عليه العدم؛ لأنَّ ما جاز انعدامه أولاً؛ جاز عقلاً

انعدامه آخرأ.

فكيف يُعبد هؤلاء من دون الله؛ إذ المخلوق هو بنفسه مفتقر إلى خالقه وهو حادث

بعد أن لم يكن؛ فهو ناقص فى إيجاده وبقائه؟!!

- إشكال وجوابه:

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ الضمير بالإفراد، وقوله ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

الضمير بالجمع؛ فما الجواب؟. أه.

(١) الجامع الفريد (٦٤).

(٢) التعليق المفيد (٩٥).

(٣) القول المفيد (٢/٢٦٥).

- قال ابن الجوزى<sup>(١)</sup>: وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى: وهى مخلوقة. قال ابن

الأبنارى: وإنما قال: «ما» ثم قال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن «ما» تقع على الواحد والاثنين والجميع؛ وإنما قال: «وهم» وهو يعنى الأصنام، لأن عابديها ادّعوا أنها تعقل وتميز، فأجريت مجرى الناس، فهو كقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لى سَاجِدِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿وَكُلُّ فى فَلَکِ يَسْبَحُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

قال الرزاي<sup>(٥)</sup>: فإن قيل: كيف وحد «يُخْلَقُ» ثم جمع فقال «وَهُمْ يُخْلَقُونَ» وأيضا فكيف ذكر الواو والنون فى جمع غير الناس؟

والجواب عن الأول: أن لفظه «ما» تقع على الواحد والاثنين والجمع، فهذه من صيغ الوجدان بحسب ظاهر لفظها. ومحمتملة للجمع فالله تعالى اعتبر الجهتين فوحد قوله «يُخْلَقُ» رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله «وَهُمْ يُخْلَقُونَ» رعاية لجانب المعنى.

والجواب عن الثانى: وهو أن الجمع بالواو والنون فى غير من يعقل كيف يجوز؟ فنقول: لما اعتقد عابدها أنها تعقل وتميز فوردوا هذا اللفظ بناء على ما يعتقدونه ويتصورنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ فى فَلَکِ يَسْبَحُونَ﴾ وقوله ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لى سَاجِدِينَ﴾ وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

قال القرطبي<sup>(٦)</sup>: وقال «يُخْلَقُونَ» بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس؛ كقوله: ﴿فى فَلَکِ يَسْبَحُونَ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

(١) زاد المسير ٢٣٢/٣.

(٢) يوسف: ٤.

(٣) النحل: ١٨.

(٤) يس: ٤٠.

(٥) التفسير الكبير ٩٥/١٥/٨.

(٦) تفسير القرطبي ٢٧٧٧/٤.

الإعراب<sup>(١)</sup>: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الجملة معطوفة على سابقتها، وأنفسهم مفعول به مقدم لينصرون.

● أقوال المفسرين.

قال الطبري<sup>(٢)</sup>: يقول تعالى ذكره أيشرك هؤلاء المشرك في عبادة الله مالا يخلق شيئاً من خلق الله ولا يستطيع أن ينصرهم أن أراد الله بهم سوءاً أو أحل بهم عقوبة ولا هو قادر إن أراد به سوءاً نصر نفسه ولا دفع ضرر عنها وإنما العابد يعبد ما يعبده لا اجتلاب نفع منه أو لدفع ضرر منه عن نفسه وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله لا تنفعهم ولا تنصرهم بل لا تجتلب إلى نفسها نفعاً ولا تدفع عنها ضرراً فهي من نفع غير أنفسها أو دفع الضرر عنها أبعد يعجب تبارك وتعالى خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون في عبادتهم الله غيره.

قال البغوي<sup>(٣)</sup> قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الأصنام، أي لا تنصر من أطاعها.

قوله: ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ قال الحسن: لا يدفعون عن أنفسهم مكروه من أراد بهم بكسر أو نحوه.

قال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعترئها من الحوادث بل عبديتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم أهد.

وقال ابن الجوزي<sup>(٥)</sup> بنحو من ذلك.

وقال الفخر الرازي<sup>(٦)</sup>: والنصر: المعونة على العدو والمعنى أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضرر وهذه الأصنام ليست كذلك. فكيف يليق بالعاقل عبادتها؟

(١) إعراب القرآن (٣/٦٠٦).

(٢) تفسير الطبري (٦/١٩/١٠٢).

(٣) معالم التنزيل (٢/٥٨٤).

(٤) الكشاف (٢/١١٠).

(٥) زاد المسير (٣/٢٣٢).

(٦) التفسير الكبير (٨/١٥/٩٥).

ثم قال: ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أى ولا يدفعون عن أنفسهم مكروهاً فإن من أراد كسرهم لم يقدروا على دفعه أهـ.

قال القرطبي (١): بنحو ما تقدم أن الأصنام لا تنصر ولا تنتصر.

قال ابن كثير (٢): قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعنى ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهنيها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه فى قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتوا لأنفسهم فكان لعمر بن الجموح وكان سيداً فى قومه صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة فيجىء عمرو بن الجموح فىرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر، ثم يعدوان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعة أيضاً حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه فى حبل فى بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستدان لم تك والكلب جميعاً فى قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه (٣). أهـ

وقال الشوكانى (٤): من عجز عن نصر نفسه، فهو عن نصر غيره أعجز أهـ.

ما جاء فى الآية من كلام شرَّاح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ (٥): وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أى ويشركون به، ويعبدون من هذه حاله لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه بأن يدفع عن نفسه من أراد به الضر، ومن هذه حاله فهو فى غاية العجز، فكيف

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٧٧٧). (٢) ابن كثير (٢/٢٦٦). (٣) فتح القدير (٢/٢٩٠).

(٤) انظر القصة فى «أسد الغاية» (٤/٢٠٧) عن ابن إسحاق. (٥) تيسير العزيز الحميد ١٨٣.

يكون إلهاً معبوداً، وجميع الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم داخلون في هذه الأوصاف، فلا يقدر أحد منهم أن يخلق شيئاً ولا يستطيعون لمن عبدهم نصراً ولا ينصرون أنفسهم، وإذا كان كذلك بطلت دعوتهم من دون الله. أ هـ  
قال الفقير: ويستدل له بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

- وبنحو ذلك قال عبدالرحمن آل الشيخ، وعبدالله بن جار الله، وابن باز<sup>(١)</sup> وقد زاد: أن من صفات هؤلاء المعبودين من دون الله أنهم لا يستطيعون لهم نصراً. إنهم لا ينصرون أنفسهم أ هـ.

وقال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى: لا يقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو؛ لأن هؤلاء المعبودين قاصرون. والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه. قوله: ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

بنصب أنفسهم على أنه مفعول مقدم، وليس من باب الاشتغال؛ لأن العامل لم يشغل بضمير السابق.

أى: زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم؛ فكيف ينصرون غيرهم؟!  
فبين الله عجز هذه الأصنام، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، هى:  
١- أنها لا تخلق، ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد.

٢- أنهم مخلوقون من العدم؛ فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودواماً.

٣- أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أبلغ من قوله: ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾؛ لأنه لو قال: ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾؛ فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤- أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم. أ هـ.

وقال القرعاوى<sup>(٣)</sup>: فوائد من الآية:-

(١) بيان جهل المشركين.

(٢) إثبات عجز المعبودين غير الله، وعدم صلاحيتهم للعبادة بالدليل العقلى. أ هـ.



(٢) القول المفيد ١/٣٦٦.

(١) التعليق المفيد (٩٥).

(٣) الجديد (١٣٥).



وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ (١)

### مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله (٢): مناسبة الآية للباب أنها دلت على أن دعاء غير الله شرك ينافي التوحيد أهـ.

قال ابن عثيمين (٣): إن الله صرح بأن المدعويين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعوهم، فلا يمكن أن نقول إنهم يسمعون دعاء من يدعوهم، لأن هذا كفر بالقرآن أهـ.

قال القرعاوي (٤): حيث دلت الآية على نفى النفع والقدرة عن المعبودين دون الله أهـ.

### مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوي: حيث دلت الآية على أن دعاء غير الله شرك أهـ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

● الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (الواو) حالية أو استثنائية (والذين) مبتدأ وجملة (تدعون) صلة و(من دونه) حال و(ما) نافية و(يملكون) فعل مضارع وفاعل وجملة ما يملكون خبر الذين و(من) حرف جر زائد أهـ.

قال ابن عثيمين: وقيل لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن. بل يقال: من حرف صلة. وهذا فيه نظر لأن الحروف الزائدة لها معنى، وهو التوكيد. وإنما يقال: زائد من حيث الإعراب أهـ.

وقطمير مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به (٥).

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار الموقوفة والمقطوعة.

عن ابن عباس في قوله ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ قال: القطمير القشر، وفي لفظ الجلد الذي يكون على ظهر النواة (٦).

(٢) الجامع الفريد (١٣٢).

(٤) الجديد (١٣٨).

(١) فاطر (١٣).

(٣) القول المفيد (١/٣٧٠).

(٥) إعراب القرآن (١٣٦/٨ - ١٣٧).

(٦) (ضعيف) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤/٣ - ١٥) ونسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن

حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

فانظر الأخير بتخریجنا

وانظر «فتح القدير» (١٠٥٣٦ - بتخریجنا) «فتح المجيد» (ح ٢٩٥) بتخریجنا.

عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﴿مِنْ قَطْمِيرٍ﴾ قال: الجلدة البيضاء التي على النواة قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت أمية بن أبي الصلت وهو يقول:

لم أنل منهم بسطا ولا زبدا ولا نوفة ولا قطميرا<sup>(١)</sup>

عن عطاء قال: القطمير الذي بين النواة والتمرة، القشر الأبيض<sup>(٢)</sup>.

عن مجاهد في قوله ﴿قَطْمِيرٍ﴾ قال: لفاقة النواة كسحاة البصلة<sup>(٣)</sup>.

عن الضحاک في قوله ﴿مِنْ قَطْمِيرٍ﴾ قال: رأس التمرة يعنى القمع<sup>(٤)</sup>.

### ● أقوال المفسرين

قال الطبري<sup>(٥)</sup>: يقول تعالى ذكره والذين تعبدون أيها الناس من دون ربكم الذي هذه الصفة التي ذكرها في هذه الآيات الذي له الملك الكامل الذي لا يشبهه ملك صفته ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَطْمِيرٍ﴾ يقول ما يملكون قشر نواة فما فوقها أهـ.

وقال البغوي<sup>(٦)</sup>: وهي لفاقة النواة، وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة أهـ.

وكذا قال الزمخشري<sup>(٧)</sup> وابن الجوزي<sup>(٨)</sup>.

قال الرازي<sup>(٩)</sup>: قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَطْمِيرٍ﴾ أى ذلك الذى فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل وكونه ملكاً والمملك مخدوم بقدر ملكه، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها، ثم بين ما يتنافى صفة الإلهية، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَطْمِيرٍ﴾.

لطيفة: ههنا لطيفة وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف. (أحدهما) أن الخلق بالقدرة والإرادة.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/١٤ - ١٥) ونسبه للطستى وتقدم

(٢) [صحيح] ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد وانظر تمام تخريجه فى «فتح

المجيد» (ح ٢٩٨) بتخريجنا

(٣) [صحيح] ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

وابن أبى حاتم.

وانظر الأخير بتخريجنا. وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٩٦) بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن المنذر.

(٥) تفسير الطبرى (١٠/٢٢/٨٢). (٦) معالم التنزيل (٤/٥٢٢)

(٧) الكشاف (٣/٢٧٢). (٨) زاد المسير (٦/٢٦٠).

(٩) التفسير الكبير (١٣/٢٦/١٣).

(والثاني) الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أى معبوداً، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين. (أحدهما) أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالها فقال لاملك لهم ولاملكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً. (وثانيهما) أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فإذا لم يملك قطميراً ما خلق قليلاً ولا كثيراً.

● خلاصة القول في تفسير ﴿قِطْمِيرٍ﴾ على أربعة أقوال:

(١) قال القرطبي (١): ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعنى الأصنام. والقطمير: القشرة الرقيقة البيضاء التي بين الثمرة والنواة. قاله أكثر المفسرين.

(٢) وقال ابن عباس: هو شق النواة، وهو إختيار المبرد، وقاله قتادة وسيأتى أنها تسمى بالقتيل.

(٣) وعن قتادة أيضاً القطمير: القمع الذي على رأس النواة.

(٤) الجوهري: ويقال: هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة سيأتى من كلام ابن عثيمين أن هذه لنكتة تسمى النقيير وليس قطمير أه.

وقال ابن كثير (٢): ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى من الأصنام والأنداد، التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين أه.

وقال الشوكاني (٣): ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أى لا يقدرّون عليه، ولا على خلقه أه.

وقال السعدى: ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصص النفي وعمومه، فيكف يدعون وهم غير مالكين لشيء من ملك السموات والأرض؟! أه.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ (٤): حاصل كلام المفسرين كابن كثير وغيره أنه تعالى يخبر

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥١٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤/١٨٤).

(١) تفسير القرطبي (٨/٥٤١٨).

(٣) فتح القدير (٤/٣٣٢).

عن حال المدعويين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لا بد أن تكون في المدعو وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى عدم شرط بطل أن يكون مدعواً، فكيف إذا عدت كلها، فنفى عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

ثم قال: فمن كان هذا حاله فكيف يدعى من دون الله. أهـ.

- قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: يخبر تعالى عن حال المدعويين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزها وضعفهم وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوتهم، فكيف إذا عدت بالكلية؟!

فنفى عنهم بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾. ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أهـ مختصراً وتابعه على هذا عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

وقوله: ﴿مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

القطمير: سلب نواة التمرة.

وفى النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن لبيان حقارة الشيء:

القطمير: وهو اللقافة الرقيقة التي على النواة.

الفيتل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة.

فهؤلاء لا يملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟

أجيب: إنّه يملكه، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقياً؛ فلا يتصرف فيه إلا على حسب ما جاء به الشرع، فلا يملك مثلاً إحراقه للنهي عن إضاعة المال أهـ.

قوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

- الإعراب<sup>(٤)</sup>: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ كلام مسأف مسوق لتقرير المضمون المتقدم و(إن) حرف شرط جازم و(تدعوهم) فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون وهو فعل مضارع وفاعل ومفعول به و(لا) نافية و(يسمعوا) جواب الشرط و(دعواؤكم) مفعول به و(الواو) حالية أو عاطفة و(لو) حرف شرط

(٢) فتح المجيد (١/ ٢٣٠).

(٤) إعراب القرآن ٨/ ١٣٧.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٨٤).

(٣) القول المفيد (١/ ٣٦٧، ٣٦٨).

و(سمعوا) فعل ماضٍ و(الواو) فاعل و(ما) نافية و(استجابوا) فعل وفاعل والجملة لامحل لها لأنها جواب شرط غير جازم.

#### ● ما جاء في تفسير الآية من الآثار المقطوعة

عن قتادة في قوله ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى ما قبلوا ذلك منكم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ﴾ قال: لا يرضون، ولا يقرون به ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ والله هو الخبير أنه سيكون هذا من أمرهم يوم القيامة<sup>(١)</sup>.

عن السدى في قوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ قال: هي الآلهة. لا تسمع دعاء من دعاها وعبدها من دون الله تعالى ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ قال: ولو سمعت الآلهة دعاءكم ما استجابوا لكم بشيء من الخير ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ﴾ قال: بعبادتكم إياها<sup>(٢)</sup>.

#### ● أقوال المفسرين

قال الطبري<sup>(٣)</sup>: يقول تعالى ذكره إن تدعو أيها الناس هؤلاء الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا يسمعوا دعاءكم لأنها جماد لا تفهم عنكم ما تقولون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ يقول ولو سمعوا دعاءكم إياهم وفهموا عنكم أنها قولكم بأن جعل لهم سمع يسمعون به ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة وليس كل سامع قولاً متيسر له الجواب عنه يقول تعالى ذكره للمشركين به الآلهة والأوثان فكيف تعبدون من دون الله من هذه صفته وهو لا نفع لكم عنده ولا قدرة له على ضرركم وتدعون عبادة الذى بيده نفعكم وضرركم وهو الذى خلقكم وأنعم عليكم.

قال البغوى<sup>(٤)</sup>: يعنى إن تدعوا الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ما أجابوكم أهـ.

قال الزمخشري<sup>(٥)</sup>: إن تدعوا الأوثان ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتمثيل ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية ويتبرؤن منهم، وقيل: ما نفعوكم أهـ.

وبنحو من ذلك قال ابن الجوزى في تفسيره<sup>(٦)</sup>.

قال الرازى<sup>(٧)</sup>: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إبطالا لما كانوا.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٥/٧) بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم. وأنظر الأخير بتخریجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم. فانظره بتخریجنا.

(٣) تفسير الطبري (١٠/٢٢/٨٣). (٤) «معالم التنزيل» (٥٢٢/٤). (٥) الكشاف (٣/٢٧٢).

(٦) زاد المسير (٦/٢٦٠). (٧) التفسير الكبير (١٣/٢٦/١٣).

يقولون إن في عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها، والله لا يرى ولا يصل إليه أحد فقال هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب، فيسمع ويقبل.

ثم نزل عن تلك الدرجة، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للمحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع في المعقول فلا يمكن وقوعه في المحس به.

قال القرطبي<sup>(١)</sup>: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أى إن تسغيثوا بهم فى النواذب لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جمادات لاتبصر ولا تسمع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس كل سامع ناطقا.  
وقال قتادة: المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم.

وقيل: أى لوجعلنا لهم عقولا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولما استجابوا لكم على الكفر أه.

وقال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى لا يقدرون على شىء مما تطلبون منها أه.  
وقال الشوكانى<sup>(٣)</sup>: ثم بين سبحانه هل هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضررون ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعجزهم عن ذلك أه.  
● خلاصة القول فى قوله: ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

القول الأول: ما نفعوكم.

القول الثانى: أجاوبكم.

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٤)</sup>: ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ يعنى أن الآلهة التى تدعونها لا يسمعون دعاءكم لأنهم أموات أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له أو جماد، فلعل المشرك يقول: هذا فى الأصنام، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون فنفى سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى: لا يقدرون على ما تطلبون منهم، وما خص تعالى الأصنام، بل عم جميع من يدعى من دونه.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥١٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد ١٨٤.

(١) تفسير القرطبي ٨/٥٤١٨.

(٣) فتح القدير (٤/٣٣٢).

ومن المعلوم أنهم كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين، كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه، فلم يرخص في دعاء أحد منهم لا استقلالاً ولا وساطة بالشفاعة أ.هـ.  
قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: قوله ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى: إن هذه الأصنام لو دعوتها ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت؛ لأنها لا تقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾<sup>(٢)</sup>.

فإذا كانت كذلك؛ فأى شيء يدعو إلى أن تدعى من دون الله؟! بل هذا سفه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾<sup>(٣)</sup>.

قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾.

الإعراب<sup>(٤)</sup>: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ الظرف متعلق بيكفرون وبشركم متعلقان بيكفرون والكاف مضافة إلى المصدر من إضافة المصدر إلى فاعله أى يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم أ.هـ.

#### ● التفسير بالمقطع

وروى ابن جرير بسنده عن قتادة ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ إياهم ولا يرضون ولا يقرون<sup>(٥)</sup> أ.هـ.

#### ● أقوال المفسرين

قال ابن جرير<sup>(٦)</sup>: يقول تعالى ذكره للمشركين من عبدة الأوثان: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تبرأ آلهتكم التى تعبدونها من دون الله من أن تكون كانت لله شركاً فى الدنيا. وينحوه قال البغوى، والزمخشرى.

قال الرازى<sup>(٧)</sup>: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ لما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ أى يباشركم بالله شيئاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أى الإشراك.

(١) القول المفيد ١/٣٦٨.

(٢) مريم: ٤٢.

(٣) البقرة: ١٣٠.

(٤) إعراب القرآن ٨/١٣٧.

(٥) تفسير الطبرى ١٠/٨٣.

(٦) أخرجه ابن جرير فى "تفسيره" فى الموضع السابق.

(٧) التفسير الكبير ١٣/٢٣ / ١٣ و١٤.

قال القرطبي (١): «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» أن يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرءون منكم.

ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين؛ أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وأنهم أمروكم بعبادتهم؛ كما أخبر عن عيسى بقوله: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ» (٢) ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً؛ أي يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلاً للعبادة.

قال ابن كثير (٣): «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» أي يتبرءون منكم كما قال تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» (٤) وقال تعالى: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» (٥).

وبنحوه قال الشوكاني والسعدى.

#### ● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ (٦): «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» كقوله: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» وهذا نص صريح على أن من دعا غير الله فقد أشرك بشرطه، وأن المدعويين يكفرون به يوم القيامة، ويتبرأون منهم كقوله تعالى «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» (٧) فهل على كلام رب العزة استدراك؟! ولهذا قال «وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ» أهـ.

وبنحوه قال عبدالرحمن آل الشيخ، نقلاً عن ابن كثير.

قال ابن عثيمين (٨): قوله: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» هو كقوله تعالى: «وَأِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ».

فهؤلاء المعبودون إن كانوا يعثون ويحشرون؛ فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيزاً والمسيح.

(٢) المائة ١١٦

(١) تفسير القرطبي ٥٤١٨/٨

(٤) الأحقاف ٦

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥١٦/٣

(٦) بسير العرير الحميد ١٨٥، ١٨٤

(٥) مريم ٨٢

(٨) القو - المفرد ١/٣٦٨، ٣٦٩

(٧) البقرة ١٦٦



وإن كانوا أحجاراً وأشجاراً ونحوها؛ فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية، وهو أن الله يأتي بهذه الأحجار ونحوها؛ فتكفر بشرك من يُشرك بها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وما ثبت في «الصحاحين» عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ عِنْدَ بَعْثِ النَّاسِ يُقَالُ لِكُلِّ أُمَّةٍ: لَتَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>؛ فالحجر يكون أمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم، فإذا كانت المعبودات تحضر وتُحصب في النار إهانةً لعبادها وتحضر لتُتبع إلى النار؛ فلا غرو أن تكفر بعبادها إذا أحضرت.

قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

الإعراب<sup>(٢)</sup>: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ الأحسن أن يكون الخطاب عاماً أى أيها السامع كائناً من كنت، ولا نافيةً ومثلاً فعل مضارع والكاف مفعوله ومثل خبير فاعله أى عالم بواطن الأمور أ.هـ.

● التفسير بما أثار

وروى الطبرى: عن قتادة قوله ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ والله هو الخبير أنه سيكون هذا منهم يوم القيامة<sup>(٣)</sup>.

● أقوال المفسرين

قال الطبرى<sup>(٤)</sup>: وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يقول تعالى ذكره ولا يخبرك يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكون من أمرها وأمر عبادتها يوم القيامة من تبرئها منهم وكفرها بهم مثل ذى خيرة بأمرها وأمرهم وذلك الخبير هو الله الذى لا يخفى عليه شئء كان أو يكون سبحانه أ.هـ.

قال البغوى<sup>(٥)</sup>: يعنى نفسه أى لا ينبئك أحد مثلى خبير عالم بالأشياء أ.هـ.

قال الزمخشرى<sup>(٦)</sup>: ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير، عالم به ويريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به، والمعنى أن هذا الذى أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأنى خبير بما أخبرت به أ.هـ.

قال الرازى<sup>(٧)</sup>: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يحتمل وجهين.

(أحدهما) أن يكون ذلك خطاباً مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٥٨١)، ومسلم فى الإيمان (٢/٢١/٢٩٩).

(٢) إعراب القرآن ٨/١٣٧. (٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨٣/٢).

(٤) المصدر السابق. (٥) معالم التنزيل (٤/٥٢٢).

(٦) الكشاف (٣/٢٧٢). (٧) التفسير الكبير (١٣/٢١٦/١٤).

الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة وهذا القول مع كون الخبر أمراً عجبياً هو كما قال، لأن المخبر عنه خبير.

(وثانيتها) هو أن ذلك خطاباً غير مختص بأحد، أى هذا الذى ذكر هو كما قال (ولايبيئك) أيها السامع كائناً من كنت (مثل خبير) أ.هـ.

قال القرطبي<sup>(١)</sup>: «وَلَا يُبَيِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» هو الله عز وجل، أى لا أحد أخبر خلق الله من الله، فلا يبيئك مثله فى عمله.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: وقوله تعالى: «وَلَا يُبَيِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها.

قال قتادة: يعنى نفسه تبارك وتعالى أخبر بالواقع لامحالة.

\* ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٣)</sup>: «وَلَا يُبَيِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» أى لا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها.

قال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٤)</sup>: (قلت) والمشركون لم يسلموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادى عابده يوم القيامة ويتبرأ منه، كما قال تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَأْ كَانُوا يَفْتَرُونَ».

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال مجاهد: «إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ» قال: يقول ذلك كل شىء كان يعبد من دون الله. فالكيس يستقبل هذه الآيات التى هى الحجة والنور والبرهان بالإيمان والقبول والعمل فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً فضلاً عن غيره أهد.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥١٩).  
(٤) فتح المجيد (١/٢٣١، ٢٣٢).

(١) تفسير القرطبي (٨/٥٤١٨).  
(٣) تيسير العزيز الحميد (١٨٥).

قال ابن عثيمين: (١) قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

هذا مثال يُضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكاً عند من خاطبه به؛ فيقول: ولا ينبتك مثل خبير.

ومعناه: إنَّه لا يُخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله؛ لأنَّه لا يعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلا الله، وخبره خير صدق؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (٢).

والخبير: العالم ببواطن الأمور أهـ.

قال القرعاوي (٣): ولا يخبرك عن هذا بعلم وأمانة مثل خبير به وبعواقبه وهو الله تعالى أهـ.

مسألة:

هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلّم عليهم؟

قال ابن عثيمين: اختلف في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الأموات لا يسمعون السلام، وأن قول النبي ﷺ حين زيارة القبور: «السلام عليكم» (٤) دعاء لا يقصد به المخاطبة، ثم على فرض أنهم يسمعون كما جاء في الحديث الذي صححه ابن عبد البر وأقره ابن القيم: «بأن الإنسان إذا سلّم على شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فرد السلام»، وعلى تقدير صحة هذا الحديث إذا كانوا يسمعون السلام ويردونه؛ فلا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنهم يسمعون غير السلام؛ فإن الله صرح بأن المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعوهم؛ فلا يمكن أن نقول: إنهم يسمعون دعاء من يدعوهم؛ لأنَّ هذا كفر بالقرآن، فثبت بهذا أنه لا تعارض بين قوله ﷺ: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» (٥) وبين هذه الآية.

وأما قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾؛ فمعناه: لو سمعوا فرضاً ما استجابوا لكم؛ لأنهم لا يستطيعون.

القول الثاني: أن الأموات يسمعون.

واستدلوا على ذلك بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت في «الصحيح» من أن المشيعين إذا انصرفوا سمع المشيع قرع نعالهم (٦).

(١) القول المفيد (١/ ٣٧٠ - ٣٧١). (٢) الأعراف: ٨٧. (٣) الجديد (١٣٨).

(٤) [صحيح] مسلم في الجنائز (٧/ ٤٠ - النووي) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٣ - بتخریجنا).

(٥) تقدم قبله

(٦) [صحيح] البخاري (١٣٣٨) عن أنس به.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ،

والجواب عن هذين الدليلين: أمّا الأول؛ فإنه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلّمون على النبي ﷺ في حياته في التشهد، وهو لا يسمعهم قطعاً. أمّا الثاني؛ فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدفن. وعلى كل؛ فالقولان متكافئان، والله أعلم بالحال أهـ.

قلت: ويرجح عدم السماع قول عمر للنبي ﷺ حينما كلم قتلى المشركين في بدر وقد جيفوا «يا أبا جهل بن هشام يا عتبة.. إلخ» قال عمر: يارسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها وهل يسمعون(١)؟!

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، قال رسول الله ﷺ: «إنهم الآن يسمعون غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئاً قال قتادة: أحياهم الله له حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً وحسدة وندماً»(٢) أ.هـ.

والشاهد أن الرسول أمر عمر على ما فهم من الآية أنه لا يسمع الموتى ولقوله تعالى أيضاً ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمَعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ما أنه قال هذه الحالة خاصة بى وبهذه الحالة إنهم الآن يسمعون أما قيل الآن وبعده فلا وهذه إلا قتادة رحمه الله.

قوله وفي الصحيح عن أنس، قال: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ...

مناسبة الحديث للباب:

قال ابن باز(٣): إذا كان أفضل الخلق وأقرب الناس منزلة وأفضل الأنبياء لم يستطع أن يدفع عن نفسه، ولا عن أصحابه وهم أفضل القرون، وإذا كان كذلك لم يستحق أن يعبد من دون الله ويشرك به معه. أهـ.

قال القرعاوى(٤): حيث دل الحديث على أن الأنبياء لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضراً فكيف بمن دونهم أهـ.

(١) تقدم تخريجه وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٦٤).

(٢) ما قبله

(٣) التعليق (٩٦).

(٤) الجديد (١٤٠).

فَقَالَ: كَيْفَ يَفْلِحُ قَوْمٌ شَجُوا نَبِيَّهُمْ؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١)

قال الفقير: أن النبي ﷺ برغم ما حصل له من المشركين وهو يدعوهم إلى ربهم وقد شيخ وجهه وكسرت رباعيته ومع ذلك ما عذره الله في كلمة واحدة، وقال له ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فمن باب أولى من سواه ليس له من الأمر شيء كالأنبياء والأولياء والأوثان والأصنام، فالأمر كما تقدم لله وحده من قبل ومن بعد ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فكما تفرد بالخلق تفرد بالأمر (٢).

#### ● فائدة:

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان إذا ما رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي، فلانستبعد رحمة الله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه.

فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي ﷺ فلاحهم؛ قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفى صحيح مسلم عن جندب؛ أن رسول الله ﷺ حدث «أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان وأن الله تعالى قال: «من ذا الذي يتألى على أن لا أعفر لفلان. فإني قد غفرت لفلان. وأحبطت عملك» أو كما قال (٣) ﷺ.

فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قوماً كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك، فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة (٤).

(١) [صحيح] علقه البخاري في المغازي/ باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٤٢٢/٧ - الفتح).

قال: قال حميد وثابت عن أنس الحديث.

ووصله مسلم في الجهاد/ باب غزوة أحد (١٠٤/٣٨٩/٦) عن عبدالله بن مسلمة حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس به.

ووصله أحمد في «مسنده» (٩٩/٣)، والترمذي في التفسير/ باب ومن سورة آل عمران (٢٢٦/٥) (٣٠٠٢)، وابن جرير في «تفسيره» (٥٧/٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٧٢٦/٣٥/٤) عن هشيم.

وأحمد أيضاً (١٧٨/٣) عن سهل.

وأخرجه أيضاً (٢٠٦/٣) عن ابن أبي عدي.

وأخرجه النسائي في «الكبرى» في «التفسير» (١١٠٧٧/٣١٤/٦) عن إسماعيل بن إبراهيم.

وأخرجه أيضاً عن خالد.

وأخرجه ابن ماجه في الفتن/ باب الصبر على البلاء (٤٠٢٧/١٣٣٦/٢) عن عبد الوهاب.

جميعاً عن حميد، عن أنس به.

قال الترمذي: حسن صحيح.

وقال البوصيري في «الزوائد» إسناده صحيح ورجال ثقات. وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٢) بتخریجنا.

(٢) من القول المفيد بتصرف

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧/٤٢٢/٨) عن جندب به.

(٤) القول المفيد (٣٧٤/١).

## مناسبة الحديث لكتاب التوحيد:

قال القرعاوى<sup>(١)</sup>: حيث دل الحديث على أن جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.

قوله: [وفى الصحيح] ذكره البخارى تعليقاً من رواية حميد وثابت عن أنس به .

قال ابن حجر<sup>(٢)</sup>: حديث حميد عن أنس وصله أحمد والترمذى والنسائى من طرق عن حميد به: أهـ.

وقال ابن إسحاق فى «المغازى»: حدثنى حميد الطويل عن أنس قال: كسرت رباعية النبى ﷺ يوم أحد وشج وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟!» فأنزل الله الآية<sup>(٣)</sup>.

وأما حديث ثابت عن أنس فوصله مسلم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ قال يوم أحد وهو يسلى الدم عن وجهه: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وأدموا وجهه» فأنزل الله عزوجل: «ليس لك من الأمر شيء» الآية.

وذكر ابن هشام: من حديث أبى سعيد الخدرى أن عتبة بن أبى وقاص هو الذى كسّر رباعية النبى ﷺ السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذى شجّه فى جبهته، وأن عبد الله بن قمئة جرحه فى وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته، وأن مالك بن سنان مصّ الدم من وجه رسول الله ﷺ ثم أزدردّه، فقال له: «لن تمسك النار»<sup>(٤)</sup>.

وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبى وقاص قال: فما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة بن أبى وقاص لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد.

وروى الطبرانى من حديث أبى أمامة. قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد، فشجّه فى وجهه، وكسّر رباعيته. فقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ

(١) الجديد ١٤٠ .

(٢) فتح البارى (٤٢٣/٧).

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة (٢٧/٣) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٦) بتخریجنا.

(٤) ابن هشام فى «السيرة» (٢٧/٣) (٢٨).

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٧) بتخریجنا.

وهو يمسح الدم عن وجهه: «مَا لَكَ أَفْمَاكَ اللَّهُ» فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَيْسَ جَبَلٍ، فَلَمْ يَزُلْ يَنْطَحُهُ حَتَّى قَطَعَهُ قِطْعَةً قِطْعَةً<sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن عائد في المغازي عن الوليد بن مسلم: حدثني عبدالرحمن بن زيد، عن جابر، فذكر نحوه منقطعاً.

وذكر البخاري في أواخر المغازي شواهد لحديث أنس من حديث أبي هريرة وغيره.  
قوله: [شجّ النبي ﷺ].

قال ابن عثيمين: الجرح في الرأس والوجه خاصة وهذا مخالف لما قال ابن الأثير: الشج في الرأس خاصة في الأصل وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء أيضاً لما ذكره ابن منظور في اللسان عن الليث<sup>(١)</sup>. هـ..  
قال الفقير: ويؤيده حديث جابر «كنا في سفر فشجّ أحد منا في رأسه فسأل أصحابه هل تجدون له رخصة في التيمم، قالوا لا تجد لك رخصة في التيمم وأنت تقدر على الماء... إلى آخره»<sup>(٢)</sup>.

وفي حديث أم زرع في الصحيح «شجّك أو فلّك أو جمع كلاً لك»<sup>(٣)</sup>.  
وفي رواية [وكسرت رباعيته].

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٤)</sup>: قال القرطبي: والرابعة - بفتح الراء وتخفيف الياء، وهي كل سن بعد ثنية.

قال النووي: وللإنسان أربع رباعيات.

ابن حجر<sup>(٥)</sup>: والمراد أنها كسرت فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها.

قلت - سليمان آل الشيخ: فظهر بهذا أن قول بعضهم: إنه شج في رأسه فيه نظر قلت: بل لعله أراد وأصل الشج أو نظر إلى أصله وأنه في الرأس ثم استعمل في غيره كما تقدم.

قال النووي:

وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا جزيل الأجر والثواب، ولتعرف أممهم وغيرهم ما أصابهم، ويتأسوا بهم.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٥٩٦/١٥٤/٨) عن أبي أمامة به.

قال الهيثمي في «المجمع» (١١٧/٦): وفيه حفص بن عمر العدني وهو ضعيف.  
وانظر «شرحنا لزياد المعاد».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٦) عن جابر به

وانظر الكلام عليه في «السلسيل» (١٢٧ بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم في الفصائل (٩٢/٢٢٨/٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٨٥).

(٥) فتح الباري (٤٢٣/٧).

قال القرطبي: وليعلم أنهم من البشر تصيبيهم محن الدنيا، ويطراً على أجسامهم ما يطراً على أجسام البشر ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم أهـ.  
قوله: [يوم أحد].

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: (أحد) بضم الهمزة والمهمله: جبل معروف بينه وبين المدينة أقل من فرسخ، وهو الذى قال فيه ﷺ «جبل يحبنا ونحبه»،<sup>(٢)</sup> ونقل السهيلي عن الزبير بن بكار فى «فضل المدينة» أن قبر هارون عليه السلام بأحد، وأنه قدم مع موسى فى جماعة من بنى إسرائيل حجاج فمات هناك [قلت - أى الحافظ -] وسند الزبير بن بكار فى ذلك ضعيف جداً من جهة شيخه محمد بن الحسن بن زباله منقطع أيضاً وليس بمرفوع.  
وكانت عنده الواقعة المشهورة فى شوال سنة ثلاث بإتفاق الجمهور، وشذ من قال سنة أربع أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٣)</sup>: (أحد) شرقى المدينة أهـ.

[قلت] وفى الصحيح أيضاً أن النبى ﷺ كان عليه هو وأبو بكر وعمر وعثمان فتزلزل، فقال ﷺ «أثبت أحد، فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان»<sup>(٤)</sup>.  
- لماذا سمي بهذا الاسم.

قال السهيلي: سمي أحداً لتوحده وانقطاعه عن جبالٍ أخرى هناك، أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد. أ.هـ.

- ما جاء فى فضل هذا الجبل غير ما تقدم من أن النبى يحبه وهو يحب النبى ﷺ

فى المسند عن أبى عيسى بن جبر مرفوعاً «جبل أحد يحبنا ونحبه وهو من جبال الجنة»<sup>(٥)</sup>.

وقال ابن عثيمين<sup>(٦)</sup>: «جبل معروف شمالى المدينة» ولأيقال: المنورة؛ لأن كل بلد

(١) فتح البارى (٧/٤٢١).

(٢) فتح المجيد (١/٢٣٤).

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٨٦) عن أنس به

(٤) ذكره الحافظ فى «الفتح» (٧/٤٣٧) ونسبه لأحمد.

(٥) القول المفيد (١/٣٧٣).



دخله الإسلام فهو منورٌ بالإسلام، ولأن ذلك لم يكن معروفاً عند السلف، وكذلك جاء اسمها في القرآن بالمدينة فقط، لكن لو قيل: المدينة النبوية لحاجة تمييزها؛ فلا بأس، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة في السنة الثالثة من الهجرة في شوال هُزِمَ فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النبي ﷺ؛ كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾، وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكرهون.

وقد حصلت هزيمة المسلمين لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصي كثيرة عندنا، ولهذا لا يمكن أن نفرح بنصرٍ ما دمنا على هذه الحال؛ إلا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعاً. أ.هـ.

قوله: [كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟].

- قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: زاد مسلم من طريق ثابت عن أنس «وكسروا رباعيته وأدموا وجهه» أ.هـ.

وتقدم معنى الرباعية، وأنها بفتح الراء وتخفيف الياء، كما تقدم من قول القرطبي، وكذا قال ابن حجر.

وقوله: [وأدموا وجهه]

قال ابن حجر<sup>(٢)</sup>: أى جرحوه حتى خرج منه الدم أ.هـ.

- قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: قوله: «فقال: كيف يفلح وقوم شجوا نبيهم؟».

الاستفهام يراد به الاستبعاد؛ أى: بعيد أن يفلح قوم شجوا نبيهم ﷺ.

قوله: «يفلح» من الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب أ.هـ.

قوله: [فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾].

بواب البخارى على هذا: باب «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» وذكر فيه حديثين الأول حديث أنس معلقاً وهو الذى هنا والثانى حديث ابن عمر الآتى بعد هذا<sup>(٤)</sup>.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٨٦). (٢) فتح البارى (٤٣١/٧).

(٣) القول المفيد (٣٧٣/١).

(٤) سيأتى تخريجه.

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: فى مقصود البخارى بالترجمة: أى بيان سبب نزول هذه الآية، وقد ذكر فى الباب سببين، ويحتمل أن تكون نزلت فى الأمرين جميعاً؛ فإنهما كانا فى قصة واحدة.

ثم قال ابن حجر سبباً ثالثاً وهو أنها نزلت فى قصة رعل وذكوان.

ثم قال ابن حجر<sup>(٢)</sup>: والصواب أنها نزلت فى شأن الذين دعا عليهم بسبب قصة أحد، والله أعلم. ويؤيد ذلك ظاهر قوله فى صدر الآية ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى يقتلهم ﴿أَوْ يَكْتَبُهُمْ﴾ أى يخزيهم، ثم قال ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى فيسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أى إن ماتوا كفاراً أهـ.

قوله: [فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾].

قال ابن كثير: أى بل الأمر كله إلى، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقال ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وقال ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحَبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وقال محمد بن إسحاق فى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم.

قال ابن جرير<sup>(٣)</sup>: يعنى بذلك تعالى ذكره ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمْ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فقوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ منصوب عطفاً على قوله ﴿أَوْ يَكْتَبُهُمْ﴾ وقد يحتمل أن يكون تأويله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ حتى يتوب عليهم، فيكون نصب يتوب بمعنى، أو التى هى فى معنى حتى، والقول الأول الأولى بالصواب؛ لأنه لاشىء من أمر الخلق إلى أحد سوى خالقهم قبل توبة الكفار وعقابهم بعد ذلك.

وتأويل قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إليك يا محمد من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى وتنتهى فيهم إلى طاعتى، وإنما أمرهم إلى، والقضاء فيهم بيدى دون غيرى أفضى فيهم وأحكم بالذى أشاء من التوبة على من كفرنى وعصانى وخالف أمرى أو

(١) فتح البارى (٧/٤٢٣).

(٢) فتح البارى (٧/٤٢٤).

(٣) تفسير الطبرى (٣/٤).

العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة وإما في أجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بى أهـ.

وقال ابن كثير<sup>(١)</sup>: قال تعالى: ﴿لَيَقَطَّعَ طَرْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أمركم بالجهاد والجلء لما له فى ذلك من الحكمة فى كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة فى الكفار المجاهدين فقال ﴿لَيَقَطَّعَ طَرْفًا﴾ أى ليهلك أمة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُم فَيَنْقَلِبُوا﴾ أى يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أى لم يحصلوا على ما أملوا. ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم فى الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى بل الأمر كله إلى ثم ذكر بقية الأقسام فقال ﴿أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى يستحقون ذلك.

قال الرازى<sup>(٢)</sup>: فى الآية مسائل:

المسألة الأولى: فى سبب نزول هذه الآية قولان.

[قلت: بل ثلاث أقوال كما تقدم من كلام ابن حجر].

(الأول) وهو المشهور: أنها نزلت فى قصة أحد، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا على ثلاثة أوجه.

(أحدها) أنه أراد أن يدعو على الكفار فنزلت هذه الآية والقائلون بهذا ذكروا احتمالات.

(أحدها) روى أن عتبة بن أبى وقاص شجه وكسر رباعيته فجعل يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم» ثم أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية<sup>(٣)</sup>.

(وثانيها) ما روى سالم بن عبدالله عن أبيه عبدالله بن عمر أن النبى ﷺ لعن أقواما فقال «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أمية» فنزلت هذه الآية ﴿أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم<sup>(٤)</sup>.

(وثالثها) أنها نزلت فى حمزة بن عبدالمطلب وذلك لأنه ﷺ لما رآه ورأى ما فعلوا به من المثلة قال «لأمثلن منهم بثلاثين»، فنزلت هذه الآية قال الفصالح رحمه الله: وكل هذه

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٠).

(٢) التفسير الكبير (٤/ ٢٣٨ - ٢٤٠).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٢٦) ونسبه لابن جرير عن قتادة.

(٤) سياتى تخريجه.

الأشياء حصلت يوم أحد فتزلت هذه الآية عند الكل فلا يمتنع حملها على كل الاحتمالات.

(الثاني) فى سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بسبب أنه ﷺ أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره والذين انهزموا فمنعه الله من ذلك وهذا القول مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الوجه الثالث: أنه ﷺ أراد أن يستغفر للمسلمين الذين انهزموا وخالفوا أمره ويدعوا عليهم فنزلت الآية، فهذه الاحتمالات والوجوه كلها مفرعة على قولنا إن هذه الآية نزلت فى قصة أحد.

القول الثانى: أنها نزلت فى واقعة أخرى وهى أن النبى ﷺ بعث جمعاً من خيار أصحابه إلى أهل بئر معونة ليعلموهم القرآن فذهب إليهم عامر بن الطفيل مع عسكره وأخذهم وقتلهم فجزع من ذلك الرسول ﷺ جزعاً شديداً ودعا على الكفار أربعين يوماً، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل وهو بعيد لأن أكثر العلماء اتفقوا على أن هذه الآية فى قصة أحد، وسياق الكلام يدل عليه وإلقاء قصة أجنبية عن أول الكلام وآخره غير لائق.

المسألة الثانية: ظاهر هذه الآية يدل على أنها وردت فى أمر كان النبى ﷺ يفعل فيه فعلاً، وكانت هذه الآية كالمنع منه، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن ذلك الفعل إن كان بأمر الله تعالى، فكيف منعه الله منه؟

وإن قلنا إنه ما كان بأمر الله تعالى ويأذنه، فكيف يصح هذا مع قوله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾.

وأيضاً دلت الآية على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالأمر الممنوع عنه فى هذه الآية إن كان حسناً فلم منعه الله؟ وإن كان قبيحاً، فكيف يكون فاعله معصوماً؟.

(والجواب من وجوه)

(الأول) أن المنع من الفعل لا يدل على أن الممنوع منه كان مشتغلاً به فإنه تعالى قال للنبى ﷺ ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ وأنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك قط وقال ﴿يا أيها النبى اتق الله﴾ فهذا لا يدل على أنه ما كان يتقى الله، ثم قال ﴿ولا تطع الكافرين﴾ وهذا لا يدل على أنه أطاعهم.

والفائدة فى هذا المنع أنه لما حصل ما يوجب الغم الشديد، والغضب العظيم، وهو مثله عمه حمزة، وقتل المسلمين، والظاهر أن الغضب يحمل الإنسان على ما لا ينبغى من القول والفعل،، فلأجل أن لا تؤدى مشاهدة تلك المكاره إلى ما لا يليق من القول والفعل نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته وتأكيداً لطهارته.

(والثاني) لعله عليه الصلاة والسلام إن فعل لكنه كان ذلك من باب ترك الأفضل والأولى، فلا جرم أرشده الله إلى اختيار الأفضل والأولى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَاقْبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ كأنه تعالى قال: إن كنت تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل، ثم قال ثانياً: وإن تركته كان ذلك أولى، ثم أمره أمراً جازماً بتركه، فقال ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

الوجه الثالث: في الجواب: لعله ﷺ لما مال قلبه إلى اللعن عليهم استأذن ربه فيه، فنص الله تعالى على المنع منه، وعلى هذا التقدير لا يدل هذا النهي على القدح في العصمة.

المسألة الثالثة: قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فيه قولان: (الأول) أن معناه ليس لك من قصة هذه الواقعة ومن شأن هذه الحادثة شيء وعلى هذا فنقل عن المفسرين عبارات (أحدها) ليس لك من مصالح عبادى شيء إلا ما أوحى إليك. (وثانيها) ليس لك من مسألة إهلاكهم شيء، لأنه تعالى أعلم بالمصالح فربما تاب عليهم.

(وثالثها) ليس لك في أن يتوب الله عليهم. ولا في أن يعذبهم شيء.

والقول الثاني: أن المراد هو الأمر الذى يصاد النهي، والمعنى: ليس لك من أمر خلقى شيء إلا إذا كان على وفق أمرى، وهو كقوله ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وقوله ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وعلى القولين فالمقصود من الآية منعه ﷺ من كل فعل وقول إلا ما كان بأذنه وأمره.

وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية، ثم اختلفوا في أن المنع من اللعن لأى معنى كان؟ منهم من قال الحكمة فيه أنه تعالى ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب، أو أن لم يتب لكنه علم أنه سيولد منه ولد يكون مسلماً براً تقياً، وكل من كان كذلك، فإن اللاتق برحمة الله تعالى أن يمهل في الدنيا وأن يصرف عنه الآفات إلى أن يتوب أو إلى أن يحصل ذلك الولد فإذا حصل دعاء الرسول عليهم بالإهلاك، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول ﷺ، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من اللعن وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله تعالى.

ومنهم من قال: المقصود منه إظهار عجز العبودية وأن لا يخوض العبد في أسرار الله تعالى في ملكه وملكوته، هذا هو الأحسن عندي والأوفق لمعرفة الأصول الدالة على حقيقة الربوبية والعبودية.

المسألة الرابعة: ذكر الفراء والزجاج وغيرهما في هذه الآية قولين:

(أحدهما) أن قوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ما قبله، والتقدير: ليقطع طرفاً من الذين كفروا، أو يكتبهم، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم، ويكون قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كالكلام الأجنبي الواقع بين المعطوف والمعطوف عليه، كما تقول: ضربت زيداً، فعلم ذلك عمراً، فعلى هذا القول هذه الآية متصلة بما قبلها.

والقول الثاني: أن معنى (أو) ههنا معنى حتى، أو إلا أن، كقولك: لالزمتك أو تعطيني حتى والمعنى: إلا أن تعطيني أو حتى تعطيني، ومعنى الآية ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتشفي منهم.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر عند أصحابنا بخلق التوبة فيهم وذلك عبارة عن خلق الندم فيهم على ما مضى، وخلق العزم فيهم على أن لا يفعلوا مثل ذلك في المستقبل.

قال أصحابنا: وهذا المعنى متأكد ببرهان العقل وذلك لأن الندم عبارة عن حصول إرادة في الماضي متعلقة بترك فعل من الأفعال في المستقبل، وحصول الإرادات والكراهات في القلب لا يكون بفعل العبد، لأن فعل العبد مسبوق بالإرادة، فلو كانت الإرادات فعلاً للعبد لافتقر العبد في فعل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ويلزم التسلسل وهو محال، فعلمنا أن حصول الإرادة والكراهات في القلب ليس إلا بتخليق الله تعالى وتكوينه ابتداءً، ولما كانت التوبة عبارة عن الندم والعزم، وكل ذلك من جنس الإرادات والكراهات، علمنا أن التوبة لا تحصل للعبد إلا بخلق الله تعالى، فصار هذا البرهان مطابقاً لما دل عليه ظاهر القرآن، وهو قوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وأما المعتزلة فإنهم فسروا قوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إما بفعل الألفاظ، أو بقبول التوبة.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: إن كان الغرض من الآية منعه من الدعاء على الكفر صح الكلام وهو أنه تعالى سماهم ظالمين، لأن الشرك ظلم قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وإن

كان الغرض منها منعه من الدعاء على المسلمين الذين خالفوا أمره صح الكلام أيضاً، لأن من عصى الله فقد ظلم نفسه.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد من العذاب المذكور فى هذه الآية عذاب الدنيا، وهو القتل والأسر وأن يكون عذاب الآخرة، وعلى التقديرين فعلم ذلك مفوض إلى الله.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة مستقلة، إلا أن المقصود من ذكرها تعليل حسن التعذيب، والمعنى: أو يعذبهم فإنه إن عذبهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ (١): قوله: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

قال ابن عطية: كان النبي ﷺ لحقه فى تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش؛ فمالت نفسه إلى أن يستأصلهم الله، ويريح منهم. فقيل له: بسبب ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى عواقب الأمور بيد الله فامض أنت لشأنك، ودم على الدعاء لربك.

وقال غيره: المعنى أن الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يكتبهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شىء، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم، فعلى هذا يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض المعطوف والمعطوف عليه.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

أى: نزلت هذه الآية، والخطاب فيها للرسول ﷺ.

و﴿شَيْءٌ﴾: نكرة فى سياق النفي؛ فتعم.

قوله: ﴿الْأَمْرِ﴾؛ أى: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى

النبي ﷺ ليس له فيهم شىء.

فى الآية خطاب للرسول ﷺ وقد شُجَّ وجهه، وكُسِرَت ربايعيته، ومع ذلك ما عذره

الله - سبحانه - فى كلمة واحدة: «كيف يُفْلِح قوم شجوا نبيهم؟» (٣)، فإذا كان الأمر كذلك؛ فما بالك بمن سواه؟ فليس لهم من الأمر شىء؛ كالأصنام، والأوثان، والأولياء،

(١) تيسير العزيز الحميد. (٢) القول المفيد ١/٣٧٣ و٣٧٤.

(٣) تقدم تخريجه

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ» «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١).

والأنبياء؛ فالأمر كله لله وحده، كما أنه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه؛ لأنَّ المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً؛ فكيف يملك لغيره؟!

قلت: وتقدم نحو هذا الكلام

قوله: «فتزلت».

الفاء للسببية، وعليه؛ فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: «وكيف يفلح قوم شجروا وجه نبيهم؟».

قلت: وهذه صورة من ثلاث صور تدل دلالة قطعية على سبب النزول.

الصورة الثانية: وهي أصرح منها تعبيرهم عن السبب بلفظ: «سبب تزول الآية كذا» والثالثة وهي وهردونهما في الدلالة أن يسأل ﷺ فيوحى إليه ويجيب بما نزل عليه، ولا يكون التعبير بسبب النزول ولا بتلك الفاء ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام حديث ابن مسعود في الصحيح لما سئل ﷺ عن الروح فرفع رأسه فعرف ابن مسعود أنه يوحى إليه ثم قال ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ الآية.

قوله: (وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما...).

● مناسبة الآية التي في الحديث للباب: قال القرعاوى حيث دلت الآية أن الأنبياء وهم أصلح الناس لا يملكون نفعاً ولا ضرراً، فكيف بمن دونهم أهـ (٣).

● مناسبة الآية التي في الحديث للتوحيد: قال القرعاوى حيث دلت الآية على أن جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله، فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.

قوله: «وفيه».

أى في صحيح البخارى فى ثلاثة أبواب فى المغازى والتفسير والاعتصام جميعاً بترجمة الآية ليس لك من الأمر شيء.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى «المغازى»/ باب: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» (٧/٤٢٢/ح ٤٠٦٩) وأحمد فى «مستده» (٢/١٤٧)، والنسائى فى «الكبرى» فى «التفسير» (٦/٣١٤/١١٠٧٦). وانظر ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (ح ٤١٢٥) بتخريجنا)، وفتح القدير (ح ٢٨٧) «وفتح المجيد» (ح ٣٠٩) بتخريجنا.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٧١) عن ابن مسعود به وانظر «فتح القدير» بتخريجنا

(٣) الجديد (١٤١، ١٤٣).



وفى رواية: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسَهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ،  
فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١).

قوله: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ  
الْفَجْرِ».

وفى رواية البخارى فى الاعتصام وسمع النبى ﷺ يقول فى صلاة الفجر ورفع رأسه  
من الركوع.

وفى التفسير بلفظ «سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الآخرة  
من الفجر».

قال ابن عثيمين (٢): وقد قيد مكان الدعاء من الصلوات بالفجر وما كان من  
الركعات بالآخرة، وما كان من الركن بما بعد الرفع من الركوع أ.هـ.

قوله: [عن ابن عمر].

قال ابن حجر (٣): هو أحد العبادلة، وفقهاء الصحابة والمكثرين منهم، وأمه زينب،  
ويقال رائطة بنت مظعون أخت عثمان وقدامة ابنى مظعون، للجميع صحبة، وكان مولده  
فى السنة الثانية أو الثالثة من المبعث، فإنه ثبت أنه كان يوم بدر ابن ثلاث عشرة سنة،  
وكانت بدر بعد البعثة بخمس عشرة سنة. وفى تاريخ وفياته فى كتاب الصلاة عند  
البخارى وأنها كانت بسبب من دسه عليه الحجاج فمس رجله بحربة مسمومة فمرض بها  
إلى أن مات أوائل سنة أربع وسبعين أ.هـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى «المغازى»/ باب «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» (٤٠٧٠/٧/٤٢٣/٧ ح ٤٠٧٠)  
قال الحافظ: وهم من زعم أنه معلق وقوله «سمعت سالم بن عبد الله يقول كان رسول الله ﷺ يدعوا  
إلخ» هو مرسل.

ووصله الترمذى فى «تفسير القرآن»/ باب: ومن سورة آل عمران (٢٢٧/٥) ح ٣٠٤ وأحمد فى مسنده  
(٩٣/٢) من حديث ابن عمر.

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب يستغرب من حديث عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه وقد  
رواه الزهرى عن سالم عن أبيه لم يعرفه محمد بن إسماعيل من حديث عمر بن حمزة وخبره من  
حديث الزهرى وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣١٠).

(٢) القول المفيد/ ٣٧٥.

(٣) فتح البارى (١١٢/٧، ١١٣/١١٣ ح ٣٧٣٨ - ٣٧٤١).

قلت]: ومناقبه كثيرة، وأدخله البخارى فى مناقب الصحيح، وذكر له ثلاثة أحاديث فى فضله وفيه رؤية رآها وقصها على النبى وفى آخرها قال ﷺ «نعم الرجل عبدالله لو كان يصلى من الليل» فكان عبدالله لا ينام من الليل إلا قليلاً<sup>(١)</sup>. والحديث الآخر قال ﷺ: «إن عبدالله رجل صالح»<sup>(٢)</sup>.

قوله: [إذا رفع رأسه من الركوع].

قال ابن حجر: الجملة حالية أى قال ذلك حال رفع رأسه من الركوع ويؤخذ منه أن محل القنوت عند رفع الرأس من الركوع لا قبل الركوع أهد.

قوله: [من الركعة الأخيرة].

قال ابن حجر<sup>(٣)</sup>: أى الركعة الثانية من صلاة الصبح كما صرح بذلك فى رواية حبان بن موسى، وظن الكرماني أن قوله (فى الآخرة) متعلق بالحمد، وأنه بقية الذكر قاله النبى ﷺ فى الاعتدال فقال: فإن قلت: ما وجه التخصيص بالآخرة مع أن له الحمد فى الدنيا. ثم أجاب بأن نعيم الآخرة أشرف، فالحمد عليه هو الحمد حقيقة، أو المراد بالآخرة العاقبة أى مآل كل الحمد إليه، انتهى.

وليس لفظ (فى الآخرة) من كلام النبى ﷺ بل هو من كلام ابن عمر، ثم ينظر فى جمعه الحمد على حمود أهد.

قوله: «اللهم العن فلاناً وفلاناً».

تقدم أن اللعن من الله هو الطرد والإبعاد، ومن الناس الدعاء بذلك أو السب. وتقدم فى الباب التاسع «ما جاء فى الذبح لغير الله» فى شرح حديث على «لعن الله من ذبح لغير الله»<sup>(٤)</sup> تفصيل مسائل اللعن سواء المعين أو العام. فانظره.

قوله: «فلاناً وفلاناً» ابن حجر<sup>(٥)</sup>.

وفى رواية البخارى عن حنظلة بن أبى سفيان، سمعت سالم بن عبدالله يقول: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام الحديث، قول البخارى عن حنظلة بن أبى سفيان معطوف على قوله أخبرنا معمر إلى آخره، والراوى له عن حنظلة هو عبدالله بن المبارك ووهم من زعم أنه معلق، وقوله سمعت

(١) أخرجه البخارى (٣٧٣٨) عن ابن عمر به.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٧٤٠، ٣٧٤١) عن حفصة.

(٣) فتح البارى (١٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٤) تقدم تخريجه (٥) الفتح (٧/ ٤٢٤).

سالم بن عبدالله يقول: كان رسول الله ﷺ هو مرسل، والثلاثة الذين سماهم قد أسلموا يوم الفتح، ولعل هذا هو السر في نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ووقع في رواية يونس عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة نحو حديث ابن عمر، لكن فيه «اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية»<sup>(١)</sup>.

وقال الحافظ<sup>(٢)</sup>: وبينت هذه الرواية الثانية أنهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، وهذه الرواية أخرجه البخاري عقب هذا الحديث مرسلة أمه.

وأخرج أحمد والترمذي هذا الحديث موصولاً من رواية عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه فسماهم وزاد في آخر الحديث «فتيب عليهم كلهم»،<sup>(٣)</sup> وأشار بذلك إلى قوله بقية الآية ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

ولأحمد أيضاً من طريق محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر كان رسول الله ﷺ يدعو على أربعة، فنزلت، قال وهداهم الله للإسلام وكان الرابع عمرو بن العاص<sup>(٤)</sup> وقد عزاه السهلي لرواية الترمذي، لكن لم أره فيه والله أعلم. كذا قال ابن حجر أه. وقال ابن حجر في موضع آخر<sup>(٥)</sup> قوله (فلاناً وفلاناً): قال الكرماني: يعني رعل وذكوان، ووهم في ذلك، وإنما سمي ناساً بأعيانهم لا قبائل أمه.

وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام اللهم العن سهيلاً بن عمر، اللهم العن صفوان بن أمية، فنزلت هذه الآية، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فتيب عليهم كلهم<sup>(٦)</sup>.

فلعل الرابع على هذه الرواية هو أبو سفيان.

والرواية التي أشار إليها الحافظ عزها السيوطي في «الدر» للترمذي وصححها وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال «كان النبي ﷺ يدعو على أربعة نفس فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية، فهداهم الله للإسلام<sup>(٧)</sup>.

وفي المعنى أيضاً جاء عن سالم بن عبدالله بن عمر، قال: جاء رجل من قريش إلى النبي ﷺ فقال إنك تنهى عن السبي يقول قدي سبي العرب ثم تحول ففاه إلى النبي ﷺ وكشف إسته فلعنه ودعى عليه فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ثم أسلم الرجل فحسن إسلامه<sup>(٨)</sup>.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم في المساجد (٣/١٩٠/٢٩٤) عن أبي هريرة به.

(٢) الفتح ٧٤/٨.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٣/٢)، والترمذي (٣٠٠٤) عن ابن عمر به وانظر «فتح القدير

بتحريجنا.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٨/٢) به. (٥) الفتح (١٣/٣٢٦).

(٦) تقدم.

(٧) تقدم تحريجه.

(٨) ذكره السيوطي في «الدر» (١٢٧/٢) ونسبه لابن إسحاق، والنحاس في «ناسخة».

وفى الباب عن ابن عمر أن النبي ﷺ لعن فى صلاة الفجر بعد الركوع - فى الركعة الآخرة - فقال: «اللهم العن فلاناً وفلاناً ناساً من المنافقين دعا عليهم - فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾» (١).

عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربما قال إذا قال سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة، اللهم اشد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسنى يوسف. يجهر بذلك. وكان يقول فى بعض صلواته فى صلاة الفجر: اللهم العن فلاناً وفلاناً - لأحياء من العرب - حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية» (٢) رواه البخارى.

قال ابن حجر: قوله: (كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد) أى فى صلواته.

قوله: (قنت بعد الركوع) تمسك بمفهومه من زعم أن القنوت قبل الركوع، قال: وإنما يكون بعد الركوع عند إرادة الدعاء على قوم أو لقوم.

وتعقب باحتمال أن مفهومه أن القنوت لم يقع إلا فى هذه الحالة.

ويؤيده ما أخرجه ابن خزيمة بإسناد صحيح عن أنس «أن النبي ﷺ كان لا يقنت إلا إذا دعا لقوم أو دعا على قوم» (٣).

قوله: (وكان يقول فى بعض صلواته فى صلاة الفجر) كأنه يشير إلى أنه لا يداوم على ذلك.

قوله: (اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحياء من العرب) وقع تسميتهم فى رواية يونس عن الزهرى عند مسلم بلفظ «اللهم العن رعلاً وذكوان وعصية».

قوله: (حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾) تقدم استشكله، وأن قصة رعل وذكوان كانت بعد أحد، ونزول ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كان فى قصة أحد فكيف يتأخر السبب عن النزول؟.

ثم ظهر لى علة الخبر وأن فيه إدراجاً، وأن قوله «حتى أنزل الله» منقطع من رواية الزهرى عن بلغه.

بين ذلك مسلم فى رواية يونس المذكورة فقال هنا قال يعنى الزهرى ثم بلغنا أنه ترك

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٢٧/٢) ونسبه لعبد بن حميد، والنحاس فى ناسخه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠٠٦)، ومسلم فى المساجد (٢٩٥/٣) عن أبى هريرة به.

(٣) أخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه» (٦٢٠) عن أنس به.

ذلك لما نزلت وهذا البلاغ لا يصح لما ذكرته، وقد ورد في سبب نزول الآية شيء آخر لكنه لا ينافي ما تقدم، بخلاف قصة رعل وذكوان، فعند أحمد ومسلم من حديث أنس «أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية (١).

وطريق الجمع بينه وبين حديث ابن عمر أنه ﷺ دعا على المذكورين بعد ذلك في صلاته فنزلت الآية في الأمرين معاً، فيما وقع له من الأمر المذكور وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم، وذلك كله في أحد، بخلاف قصة رعل وذكوان فإنها أجنبية.

ويحتمل أن يقال إن قصتهم كانت عقب ذلك وتأخر نزول الآية عن سببها قليلاً، ثم نزلت في جميع ذلك، والله أعلم.

قوله «بعد ما يقول سمع الله لمن حمده».

قال ابن الأثير: أجاب الله حمده وتقبله (٢).

قوله: «ربنا ولك الحمد».

في بعض روايات البخارى بإسقاط الواو، قال ابن دقيق العيد: «كأن إثباتها دال على معنى زائد؛ لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد. فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال ابن حجر (٣): «ربنا ولك الحمد» معين لكون الرفع من الركوع؛ لأنه ذكر الاعتدال أهـ.

وقد تقدم معنى الحمد في بداية الكتاب.

وقال ابن تيمية: والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له.

ونحو من هذا قول ابن القيم.

- فوائد الحديث:

- جواز الدعاء على المشركين، بأعيانهم في الصلاة وأن ذلك لا يضر بالصلاة.

- التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد وهو قول الشافعى وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة.

(٣) الفتح ١٣/٣٢٥.

(٢) النهاية ١/٢٤٠.

(١) تقدم تخريجه

- أن سبب دعاء النبي ﷺ على المذكورين لكونهم لم يذعنوا للإيمان ليعتصموا به من اللعن؛ لذلك أدخل الحديث البخاري في كتاب الاعتصام.

- الإشارة إلى الخلاف المشهور في أصول الفقه، وهو هل كان له ﷺ أن يجتهد في الأحكام أولاً<sup>(١)</sup>. واستدل من قال بالاجتهاد بهذا الحديث وأمثاله بقوله ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.

وبقوله: «وشاورهم في الأمر».

ويقول عمر: «إن الرأي كان من الرسول مصيباً وإنما كان منا الظن والتكلف».

قال ابن حجر: وبهذا يمكن أن يقال كان يجتهد ولكنه لا يقع فيما اجتهد فيه خطأ أصلاً<sup>(٢)</sup> أ.هـ.

قوله: «وفي رواية».

تقدم أنها عند البخاري مرسلة وأسندها أحمد وغيره.

قوله: «صفوان بن أمية وسعيد بن عمرو والحارث بن هشام».

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد، هم وأبو سفيان بن حرب، فما استجيب له ﷺ فيه، بل أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فتاب عليهم وحسن إسلامهم كما تقدم. حتى خلاص الأمر لله من قبل ومن بعد، يهدى من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته وليس بعيداً من ذلك قصة الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً وسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عابد فقال ليس لك توبة فأكمل به المائة، ثم دل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فاتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم «حكماً»، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقيسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة<sup>(٣)</sup> متفق عليه.

(٢) الفتح ١٣/٣٠٤ و٣٠٥.

(١) الفتح (١٣/٣٢٥).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم في الذكر والدعاء والاستغفار (١٧/٨٢-النوى)

عن أبي سعيد به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٢١ - بتخریجنا).

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١)، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَّا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أُغْنِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا (٢).

مناسبة الحديث للباب:

قال السعدي (٣): إذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحماً فكيف بغيره؟ فبأ لمن أشرك بالله وساوى به أحداً من المخلوقين، لقد سلب عقله بعد ما سلب دينه أهـ.

وقال القرعاوي (٤): حيث دل الحديث على أن الأنبياء لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضرراً، فكيف بمن دونهم أهـ.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي: حيث دل الحديث على أن جلب النفع ودفع الضرر من الأفعال الخاصة بالله، فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.



ولفظه في الصحيح عن عبدالرحمن أن أبا هريرة قال: «قام رسول الله ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَلِّينِي مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

(١) الشعراء: ٢١٤

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري في «التفسير»/ باب: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (٨/ ٣٦٠ / ٤٧٧١) ومسلم في «الإيمان» (٢/ ٨٢ / ٣٥١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٠) وابن جرير في «تفسيره» (١٩/ ٧٣)، والترمذي في «التفسير»/ باب: ومن سورة الشعراء (٥/ ٣٣٨ / ٣١٨٥)، والنسائي في «الكبرى» في «التفسير» (٦/ ٤٢٣ / ١١٣٧٧).

وذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ١٧٩) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٩٧٧٢) - و«فتح المجيد» (ح ٢١٣) بتخریجنا).

(٢) القول السديد (٥٢). (٤) الجديد (١٤٥).

وفي الصحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادى: يا بني فهر، يا بني عدى - لبطن قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقني؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (١).

قوله: (- وفيه عن أبي هريرة - رضى الله عنه، قال قام فينا رسول الله) وفي طريق آخر عن ابن عباس -

قوله: (عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

قال ابن حجر (٢): هذا من مراسيل الصحابة، وبذلك جزم الإسماعيلي لأن أبا هريرة إنما أسلم بالمدينة، وهذه القصة وقعت بمكة، وابن عباس كان حينئذ إما لم يولد وإما طفلاً. ويؤيد الثاني نداء فاطمة فإنه يشعر بأنها كانت حينئذ بحيث تخاطب بالأحكام، وفي السيرة النبوية احتمال أن تكون هذه القصة وقعت مرتين، لكن الأصل عدم تكرار النزول.

وقد صرح في هذه الرواية بأن ذلك وقع حين نزلت. نعم وقع عند الطبراني من حديث أبي أمامة قال «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ جمع رسول الله ﷺ بنى هاشم ونساء وأهله فقال: «يا بني هاشم، اشترؤا أنفسكم من النار، واسعوا في فكاك رقابكم. يا عائشة بنت أبي بكر، يا حفصة بنت عمر ويا أم سلمة» فذكر حديثاً طويلاً (٣).

فهذا إن ثبت دل على تعدد القصة، لأن القصة الأولى وقعت بمكة لتصريحه في حديث الباب أنه صعد الصفا، ولم تكن عائشة وحفصة وأم سلمة عنده ومن أزواجه إلا بالمدينة، فيجوز أن تكون متأخرة عن الأولى فيمكن أن يحضرها أبو هريرة وابن عباس أيضاً، ويحمل قوله «لما نزلت... جمع» أي بعد ذلك، لا أن الجمع وقع على الفور، ولعله كان نزل أولاً ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فجمع قريشاً فعم ثم خص كما سيأتى، ثم نزل ثانياً ﴿ورهلك منهم المخلصين﴾ فخص بذلك بنى هاشم ونساء والله أعلم. وفي هذه الزيادة تعقب على النوى حيث قال في «شرح مسلم» إن

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٠١)، ومسلم فى الإيمان (٣٥٥/٨٣/٢) عن ابن عباس به.

(٢) فتح البارى (٣٦٠/٨ - ٣٦٢).

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الكبيرش (٧٨٩٠/٢٦٨/٨) قال الهيثمى فى «الجمح» (٨٦/٧): وفيه على بن

يزيد الألهانى وهو متروك.



البخارى لم يخرجها أعنى «ورَهطك منهم المخلصين» اعتماداً على ما فى هذه السورة، وأغفل كونها موجودة عند البخارى فى سورة «تبت».

قال القرطبي: لعل هذه الزيادة كانت قرآناً فنسخت تلاوتها: ثم استشكل ذلك بأن المراد إنذار الكفار، والمخلص صفة المؤمن.

والجواب عن ذلك: أنه لا يتمتع عطف الخاص على العام. فقوله «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ» عام فيمن آمن منهم ومن لم يؤمن، ثم عطف عليه الرهط المخلصين تنبيهاً بهم وتأكيذاً. قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: والسر فى الأمر بإنذار الأقربين أولاً أن الحجّة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم وإلا فكانوا علة للأبعدين فى الإمتناع، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقریب من العطف والرأفة فيحاييهم فى الدعوة والتخويف، فلذلك نص له على إنذارهم.

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: وقد أمره الله أيضاً بالندارة العامة كما قال «لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا»<sup>(٣)</sup> وقال: «لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ»<sup>(٤)</sup> ولاتنأى بينهما، لأن الندارة الخاصة فرد من أفراد العامة.

قوله: «قام»<sup>(٥)</sup> أى خطيباً، وفى الصحيح من رواية ابن عباس «صعد رسول الله على الصفا.

قوله: «حين أنزل عليه: أى بواسطة جبريل «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» ويستفاد من ذلك أنه لم يتأخر بل قام فقال: «يا معشر قريش...».

قوله: «أُنذِرْ» أى حذر وخوفٌ والإنذار الإعلان المقرون بالتخويف.

قوله: «عَشِيرَتَكَ»: عشيرة الرجل هم بنو أبيه الأدنون من الجد الرابع فما دون، أو قبيلته، لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الدينى والدينوى. كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ»<sup>(٦)</sup>.

(١) فتح البارى (٨/ ٣٦٠ - ٣٦٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٩٠.

(٣) مريم/ ٩٧.

(٤) يس/ ٦.

(٥) تيسير العزيز الحميد (١٩٠).

(٦) التحريم/ ٦.

وقال ﷺ حينما سئله رجل من أحق بحسن صحابتي؟ قال: «أمك. ثم أمك. ثم أمك. ثم أمك. ثم أمك.» (١).

وهو شاهد لقوله ﷺ حينما سئل أيضاً من أبر قال أمك. قال: ثم من قال: ثم أباك ثم أختك وأخاك (٢) ..

قوله: «الأقربين» أى الأقرب فالأقرب على النحو المتقدم بيانه من الآية والحديث، الولد ثم الأم ثم الأب ثم الإخوة ثم الأعمام وهكذا.

قوله: «يا معشر قريش» المعشر كمسكن: الجماعة أى يا جماعة قريش، وقريش هو فهر بن النضر بن مالك أحد أجداد الرسول ﷺ كذا قال ابن عثيمين.

وذكر الشوكانى ذلك فى «فتح القدير». وذكر قولاً آخر. أنهم هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، فكل من كان من ولد النضر فهو قُرشى، وقال: هذا القول أصح.

قال ابن عثيمين (٣): ويؤخذ من هذا أن الأقرب أولى بالإندار، لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف، وذلك أن الوصف الموجب للحكم كلما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين أهد.

- لماذا سميت قريش بهذا الاسم؟

ذكر الرازى وجوهاً فى تسميتها:

أحدها: أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة تعين بالسفن، ونسب ذلك لابن عباس.

الثانى: أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب.

الثالث: قال الليث: كانوا متفرقين فى غير الحرم فجمعه قُصى بن كلاب فى الحرم، حتى اتخذوها مسكناً فسميت قريش لأنَّ القرش هو التجمع وذكر رابعاً.

قوله: «أو كلمة نحوها» هو بنصب كلمة عطف على ما قبلها وقوله «نحوها» أى بمعناها أو شبهها، وهذا احتراز من الرواة، إذا شكوا أدنى شك، قالوا: «أو كما قال» أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك، حتى لا يقعوا فى وعيد المتعمد الكذب على الرسول ﷺ. قوله: «اشترؤا أنفسكم».

قال ابن حجر: قوله: فى حديث أبى هريرة «اشترؤا أنفسكم من الله» أى باعتبار

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٧١)، مسلم فى البر والصله (١٦/١٠٢- النوى) عن أبى هريرة به، وعند البخارى بدون لفظ «ثم أدناك أدناك».

وأنظر «رياض الصالحين» (٣١٨- بتخریجنا)

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٤٠) عن كليب بن منفعة عن جده به

(٣) القول المفيد (١/٣٧٨).

تخليصها من النار، كأنه قال أسلموا تسلموا من العذاب، فكان ذلك كالشراء، كأنهم جعلوا الطاعة ثمن النجاة. وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ فهناك المؤمن بائع باعتبار تحصيل الثواب والتمن الجنة.

وفيه إشارة إلى أن النفوس كلها ملك لله تعالى، وأن من أطاعه حق طاعته في امتثال أوامره واجتناب نواهيه وفي ماعليه من الثمن، وبالله التوفيق.

قوله: «لا أغنى عنكم من الله شيئاً».

قال ابن عثيمين: (١) هذا هو الشاهد من الحديث على الترجمة في هذا الباب، أى لا أدفع أولاً أنفع.

أى لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء، أراذه الله لكم؛ لأن الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك؛ فقال: «قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً» أهـ.

قوله: «شيئاً» قال ابن عثيمين: نكرة في سياق النفي؛ فتم أي شيء (٢).

وفي هذا حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه أو يدفعوا عنه، فإن ذلك هو الشرك الذي حرّمه الله تعالى وأقام نبيه بالإنذار عنه (٣).

وسقط من لفظ المصنف في الترجمة.

قوله: (يابنى عبد مناف، اشتروا أنفسكم من الله، يا عباس إلخ) وهى ثابتة فى الصحيح فى رواية موسى بن طلحة عن أبى هريرة عند مسلم وأحمد «دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعم وخص فقال: يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بنى كعب كذلك، يا معشر بنى هاشم كذلك، يا معشر بنى عبدالمطلب كذلك» الحديث.

ووقع عند البلاذرى من وجه آخر عن ابن عباس أبين من هذا ولفظه «فقال: يا بنى فهر، فاجتمعوا. ثم قال: يابنى غالب، فرجع بنو محارب والحارث ابنا فهر. فقال: يابنى لؤى، فرجع بنو الأدرم بن غالب. فقال: يا آل كعب، فرجع بنو عدى وسهم وجمع فقال: يا آل كلاب، فرجع بنو مخزوم وتيم. فقال: يا آل قصي، فرجع بنو زهرة. قال: يا آل عبد مناف، فرجع بنو عبدالدار وعبدالعزيز. فقال له أبو لهب: هؤلاء بنو عبدمناف عندك».

(١) القول المفيد (١/٣٧٩).

(٢) القول المفيد ١/٣٧٩.

(٣) فتح المجيد ١/٢٤٠.

وعند الواقدي أنه قصر الدعوة على بني هاشم والمطلب، وهم يومئذ خمسة وأربعون رجلاً.

وفي حديث علي عند ابن إسحق والطبري والبيهقي في «الدلائل» أنهم كانوا حينئذ أربعون يزيدون رجلاً أو ينقصون وفيه عمومته أبو طالب وحزمة والعباس وأبو لهب<sup>(١)</sup>. ولا بن أبي حاتم من وجه آخر عنه أنهم يومئذ أربعون غير رجل أو أربعون ورجل<sup>(٢)</sup>.

وفي حديث علي من الزيادة أنه صنع لهم شاة على ثريد وقعب لبن، وأن الجميع أكلوا من ذلك وشربوا وفضلت فضلة، وقد كان الواحد منهم يأتي على جميع ذلك<sup>(٣)</sup>. قوله: «ياعباس بن عبدالمطلب، لا أغنى عنك من الله شيئاً».

قال ابن عثيمين: بنصب «بن»، ويجوز الرفع والنصب في «عبّاس» وهو عم النبي ﷺ وعبد المطلب جد النبي ﷺ وعباس؛ بالضم؛ لأن المنادى إذا كان معرفة بيني على الضم، ونعته إذا كان مضافاً ينصب، وهنا ابن عبدالمطلب. ولهذا نصب. إشكال:

فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ عبد المطلب مع أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلى الله عزوجل؟ فالجواب:

قال ابن عثيمين: إن هذا ليس إنشاءً، بل هو خبر، فاسمه عبدالمطلب، ولم يسمه النبي ﷺ لكن اشتهر بعبدالمطلب، ولهذا انتمى إليه الرسول ﷺ فقال: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب<sup>(٤)</sup>

فلو فرض أن لك أب يسمى عبدالمطلب أو عبدالعزيز؟ فإنك تتسبب إليه، ولا يعد هذا إقراراً، ولكنه خبر عن أمر واقع؛ كما لو قلت: كفر فلان وناق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه إذا كان لا يجوز<sup>(٥)</sup>. أهـ

قوله: «ياصفية عمّة رسول الله ﷺ».

قال الحافظ: بنصب عمّة، ويجوز في صفة الرفع والنصب وكذا القول في قوله يافاطمة بنت محمد.

قوله: «ويافاطمة بنت محمد».

قال الحافظ<sup>(٦)</sup>: واستدل بعض المالكية بقوله في هذا الحديث «يا فاطمة بنت محمد،

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (١٨/٥) ونسبه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في «الدلائل» عن علي. وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريخنا.

(٢) تقدم قبله (٣) انظر ما تقدم. (٤) انظر ما تقدم

(٥) القول المفيد ١ / ٣٨٠. (٦) فتح الباري (٨ / ٣٦٠).

سلينى من مالى ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئاً» أن النيابة لا تدخل فى أعمال البر، إذ لو جاز ذلك لكان يتحمل عنها ﷺ بما يخلصها، فإذا كان عمله لا يقع نيابة عن ابنته فغيره أولى بالمنع.

وتعقب بأن هذا كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه يشفع فيمن أراد وتقبل شفاعته، حتى يدخل قوما الجنة بغير حساب، ويرفع درجات قوم آخرين، ويخرج من النار من دخلها بذنوبه، أو كان المقام مقام التخويف والتحذير أو أنه أراد المبالغة فى الحض على العمل، ويكون فى قوله «لا أغنى شيئاً» إضمار إلا إن أذن الله لى بالشفاعة.

### ● فائدة:

قوله ﷺ «لا أغنى عنك من الله شيئاً» كقوله ﷺ «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» قال ابن رجب (١): وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال كما قال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (٢).

وقال: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» (٣) قال ابن مسعود: يأمر الله بالصراف فيضرب على جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم زمرا زمرا، أو اتلهم كلمح البرق ثم كمر الريح ثم كمر المطر ثم كمر البهائم حتى يمر الرجل سعيا وحتى يمر الرجل مشيا وحتى يمر آخرهم يتلبط على بطنه، فيقول: يارب لم أبطأت بى؟ فيقول: إني لم أبطىء بك إنما أبطأ بك عملك.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا بنى عبدالمطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة النبى ﷺ لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً» (٤). وفى رواية خارج الصحيحين «إن أوليائى منكم

(١) جامع العلوم (٦١٦/٢ - ٦١٨) بتخريجنا.

(٢) آل عمران: ١٣٣/١٣٤.

(٣) المؤمنون: ٩١/٥٧.

(٤) تقدم تخريجه.

المتقون، لا يأتي الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد، يا محمد فأقول: قد بلغت» (١).

وخرج ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أوليائي المتقون يوم القيامة، وإن كان نسب أقرب من نسب، يأتي الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد يا محمد، فأقول: هكذا وهكذا وأعرض في كلا عطفه» (٢).

وخرج البزار من حديث رفاعة بن رافع أن النبي ﷺ قال لعمر: «اجمع لي قومك: يعني قريشا، فجمعهم، فقال: إن أوليائي منكم المتقون، فإن كنتم أولئك فذاك وإلا فانظروا، يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتوني بالأثقال فيعرض عنكم» (٣).  
وخرجه الحاكم مختصراً وصححه.

وفى المسند عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن خرج معه يوصيه، ثم التفت وأقبل بوجهه إلى المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا» (٤).

وخرجه الطبراني وزاد فيه «إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي وليس كذلك، إن أوليائي منكم المتقون من كانوا وحيث كانوا» (٥).

ويشهد لهذا كله ما في الصحيحين عن عمرو بن العاص «أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما ولي الله وصالحوا المؤمنين» (٦) يشير إلى أن ولايته لاتنال بالنسب بأولياء، وإنما ولي الله وصالحوا المؤمنين، يشير إلى أن ولايته لاتنال بالنسب وإن قرب وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً فهو أعظم ولاية له، سواء كان له نسب قريب أو لم يكن، وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه

فلاتترك التقوى اتكالا على النسب

وقد رفع الإسلام سلمان فارسي

قوله: «سليبي من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا».

وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة (٧): قال: قال رسول الله ﷺ من نفس عن مؤمن

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٤٠/٤) عن رفاعة بن رافع بنحوه

(٢) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٦١٧/٢) ونسبه لابن أبي الدنيا.

(٣) تقدم قيل حديث.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٥/٥)، والطبراني في «الكبير» (٥٤١٨٢٠/٢٠) وجود إسناده

الهيثمى في المجمع (٢٣٢/١٠).

(٥) ما قبله.

(٦) [متفق عليه]. أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٨٧/٣ - النووي). وانظر «جامع العلوم والحكم»

(٦١٧/٢ - بتخریجنا)

(٧) مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٢١ و٢٢ النووي) وانظر جامع العلوم والحكم بتخریجنا (٥٩٥/٢)

## فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ.

الثانية: قِصَّةُ أَحَدٍ.

الثالثة: قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤْمِنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

الرابعة: أَنَّ الْمَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

كربة من كرب الدنيا... الحديث وفي آخره... ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

قال ابن رجب: فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله، لم يسرع به نسبه فيبلغه تلك الدرجات، فإن الله تعالى رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. أهـ.

وتقدم تمام كلام ابن رجب قبل هذا

قال ابن عثيمين:

قوله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.

الثانية: قصة أحد.

يعنى: حيث شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ ... الحديث.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين ... الخ.

أراد المؤلف بهذه المسألة أن النبي ﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادات الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم؛ فكيف يتقذون غيرهم؟! وليس مراده رحمه الله مجرد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيد وسادات؛ فلا أحد من هذه الأمة أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجؤون إلى الله - سبحانه - في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله؛ فكيف يمكن أن يلجأ إليه في كشف الكربات؟! فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

قلت: وفي ذلك معنى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ ۖ الْآيَةِ.

الخامسة: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجَّهَهُمْ نَبِيِّهِمْ، وَحَرَضَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، وَمِنْعَهَا التَّمثِيلُ بِالْقَتْلِ مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِمْ.

السادسة: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فَتَابَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَّنُوا.

الرابعة: أَنْ الْمَدْعُو عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

تُؤَخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ الْآنَ لَيْسُوا عَلَى حَالٍ مَرْضِيَّةٍ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ وَسَهِيلَ بْنَ عَمْرٍو وَالْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ وَقَتَّ الدَّعَاءِ عَلَيْهِمْ كَانُوا كُفَّارًا.

وهذا المسألة - أى أن المدعو عليهم كفار - ترمى إلى أن الرسول ﷺ وإن كان يرى أنه دعا عليهم بحق؛ فقد قطع الله - سبحانه وتعالى - أن يكون له من الأمر شيء لأنه قد يقول قائل: إذا كانوا كفاراً؛ أليس يملك الرسول ﷺ أن يدعو عليهم؟

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئاً، هذا وجه قول المؤلف أن المدعو عليهم كفار، وليس مراده الإعلام بكفرهم؛ لأن هذا معلوم لا يستحق أن يعتنوا له، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفاراً لم يملك النبي ﷺ شيئاً بالنسبة إليهم.

الخامسة: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ ...

أى: إِنَّهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ كَانُوا مَعْتَدِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ قِيلَ لَهُ فِي حَقِّهِمْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وَإِلَّا؛ فَهَمَّ شَجَّوْا النَّبِيَّ ﷺ، وَمَثَّلُوا بِالْقَتْلِ مِثْلَ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَكَذَلِكَ أَيْضاً حَرَضُوا عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ، مَعَ أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ فِيهِمْ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ، وَفِيهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ.

السادسة: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

أى: مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَقٌّ بِأَنْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ فَالْأَمْرُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ قَطَعَ عَنْهُ هَذَا الشَّيْءُ؛ فَغَيْرِهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

السابعة: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فَتَابَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَّنُوا.

وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته؛ فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وأمنوا، لأنَّ الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذى يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر رضى الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما



## الثامنة: القنوتُ في النَّوْزَلِ.

جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى؛ فرسول الله ﷺ ومَنْ دونه لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً من أمر الله.

### الثامنة: القنوت في النوازل.

وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة؛ فإنه ينبغى أن يدعى لهم حتى تنكشف.

وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغيره<sup>(١)</sup>؛ إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر رضي الله عنه ولم يقنت، ولأنه شهادة؛ فلا ينبغى الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أمّا ما كان من فعل الله؛ فإنه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف؛ فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجدب يُشرع له الاستسقاء، وهكذا.

وما علمت لساعتى هذه أن القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضيق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك؛ فإنه يقنت اتباعاً للسنة في هذا الأمر.

ثم من الذي يقنت: الإمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصل؟

المذهب: أن الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل: يقنت كل مصل، وهو الصحيح؛ لعموم قول النبي ﷺ: «صلوا كما

رأيتُموني أصلي»<sup>(٢)</sup>، وهذا يتناول قنوته ﷺ عند النوازل.

(١) أخرجه: أحمد في «مسنده» (٣٠١/١)، وأبو داود (١٤٤٣).

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٣١)، ومسلم في المساجد (١٧٤/٥- النوى) عن مالك بن الحويرث به.

وانظر «منار السبيل» (٢٥٥ - بتخريجنا).

## التاسعة: تَسْمِيَةُ الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

وهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ فسماهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز وعليه، فإذا كان في تسمية المدعو عليهم مصلحة؛ كانت التسمية أولى، ولو دعا إنسان لأناس معينين في الصلاة جاز؛ لأنه لا يُعَدُّ من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى، ولا يدخل في عموم قوله ﷺ: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»<sup>(١)</sup>.

مسألة: هل الذي نهى عنه الرسول ﷺ الدعاء أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهى عنه هو لعن الكفار في الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عموماً؛ فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنه كان يقنت ويلعن الكفرة عموماً، ولا بأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم! أرح المسلمين منه، واكفهم شره، واجعل شره في نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار؛ فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبي ﷺ على قريش بالهلاك، بل قال: «اللهم! عليك بهم، اللهم! اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»، وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله عن ظلمه.

فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء حبيب حيث قال: «اللهم أحصهم عدداً، ولا تبق منهم أحداً»<sup>(٢)</sup> على جوار ذلك؛ لأنه وقع في عهد الرسول ﷺ.

ولأن الأمر وقع كما دعا؛ فإنه ما بقى منهم أحد على رأس الحول، ولم ينكر الله تعالى ذلك، ولا أنكره النبي ﷺ، بل إن إجابة الله دعاءه يدل على رضاه به وإقراره عليه.

(١) تقدم تخريجه بلفظ: واعتقها فإنها مؤمنة

(٢) (صحيح) أخرجه البخارى (٤٠٨٦) عن أبي هريرة به.

العاشرة: لَعْنُ الْمُعِينِ فِي الْقُنُوتِ.

الحادية عشرة: قِصَّتُهُ ﷺ لَمَّا أُنزِلَ عَلَيْهِ ﴿\*أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ..

الثانية عشرة: جَدُّهُ ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَى الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ.

فهذا قد يُستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن يُنظر في القصة؛ فقد يكون لها أسباب خاصة لاتتأني في كل شيء.

ثم إن خيباً دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار للجميع الكفار.

وفيه أيضاً إن صحَّ الحديث: دعاؤه على عتبة بن أبي لهب: «اللهم! سلط عليه كلباً من كلابك»<sup>(١)</sup>، فيه دليل على الدعاء بالهلاك، لكن هذا على شخص معين لا على جميع الكفار.

العاشرة: لعن المعين في القنوت.

هذا غريب، فإن أراد المؤلف - رحمه الله - أن هذا أمر وقع، ثم نهى عنه؛ فلا إشكال، وإن أراد أنه يُستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت أبداً، فهذا فيه نظر لأنَّ النبي ﷺ نهى عن ذلك.

الحادية عشرة: قِصَّتُهُ ﷺ لَمَّا أُنزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

وهي أنه لما نزلت عليه الآية نادى قريشاً؛ فعم، ثم خصَّص، فامتثل أمر الله في هذه الآية.

الثانية عشرة: جَدُّهُ ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَى الْجُنُونِ.

أى: اجتهاده ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا جَنٌّ، كَيْفَ يَجْمَعُنَا وَيُنَادِينَا هَذَا النَّدَاءَ؟!

قلت: فينبغي للداعي أن لا يلتفت إلى ما نسب من جنون أو تأخر أو تطرف في سبيل جده واجتهاده في دعوته فهذا أمر توأصى به المجرمون.

وقوله: «وكذلك لو يفعله مسلم الآن».

أى: لو أن إنساناً جمع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبي ﷺ؛ لقالوا: مجنون،

(١) بنحوه أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٣٩/٢) وصححه.

الثالثة عشرة: قَوْلُهُ لِلأَبْعَدِ والأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» حَتَّى قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا». فَإِذَا صَرَخَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ - بِأَنَّهُ لَا يُغْنِي شَيْئًا عَنِ سَيِّدِهِ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ، وَأَمَّنَ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ حَوَاصِّ النَّاسِ الْيَوْمَ، تَبَيَّنَ لَهُ تَرْكُ التَّوْحِيدِ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

إِلَّا إِذَا كَانَ مَعْتَادًا عِنْدَ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» (١)، وَقَالَ تَعَالَى: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»؛ فَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبِلَادِ وَالزَّمَانِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَبْذُلَ جِهْدَهُ وَاجْتِهَادَهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَامَ بِهَذَا الْأَمْرِ وَلَمْ يُبَالِ بِمَا رُمِيَ بِهِ مِنَ الْجُنُونِ.

الثالثة عشرة: قَوْلُهُ لِلأَبْعَدِ والأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

صَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا قَالَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا الْقَائِلُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ، وَقَالَ لِسَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ نَحْنُ نُؤْمِنُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، وَأَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْ ابْنَتِهِ شَيْئًا؛ تَبَيَّنَ لَنَا الْآنَ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ حَوَاصِّ النَّاسِ تَرْكُ التَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّهُ يَجِدُ أَنَّاسَ حَوَاصِّ يَرُونَ أَنفُسَهُمْ عُلَمَاءَ، وَيَرَاهُمْ مِنْ حَوْلِهِمْ عُلَمَاءَ وَأَهْلًا لِلتَّقْلِيدِ، يَدْعُونَ الرَّسُولَ ﷺ لِكَشْفِ الضَّرِّ وَجَلْبِ النِّفْعِ دَعْوَةً صَرِيحَةً، وَيَرُدُّونَ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَالِي مِنْ أَلُوذِ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ

وغير ذلك من الشرك وإذا أنكر عليهم ذلك ردوا على المنكر بأنه لا يعرف حق الرسول ﷺ ومقامه عند الله، وأنه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنه خلق من نور العرش، ويلبسون بذلك على العامة، فيصدّقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد لم يستجيبوا له؛ لأنّ سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد، «وَلَمَّا آتَتْ الدِّينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ» (٢)، ثُمَّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ عَاطِفَتَهُ وَمِيلَهُ لِلرَّسُولِ ﷺ أَمْرٌ لَا يُنْكَرُ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُبْغِي لَهُ أَنْ يَحْكُمَ الْعَاطِفَةَ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَأَيْدِ الْعَقْلِ الصَّرِيحِ السَّالِمِ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّهَوَاتِ.

ولهذا نعى الله - سبحانه - على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنهم لا يعقلون، وكلام المؤلف حق؛ فإنّ من تأمّل ما عليه الناس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبين له ترك التوحيد وغربة الدين أمه.

(٢) البقرة: ١٤٥.

(١) آل عمران: ١٤٠.

## بَابُ (١٥)

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١).

- مناسبة هذا الباب لما قبله، ولكتاب التوحيد:

قال ناصر السعدى (٢): وهذا أيضاً برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك. وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوى والسفلى ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه أو تتبدى لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات يأسرها خاضعة لجلاله، معترفة بعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذى لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شئ: فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره، فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذى لا يشاركه فيه مشارك بوجه. اهـ.

قلت: واختصر هذا الكلام ابن عثيمين فقال (٣):

مناسبة الترجمة: أن هذا من البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكاً مع الله؛ لأن الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله - عز وجل - ماعدا خواص بنى آدم يحصل منهم عند كلام الله سبحانه الفزع. اهـ.

علاقة الباب بما قبله وما بعده

قال الفقير: قلت: وهناك علاقة لهذا الباب بما قبله وما بعده تصح مناسبة أخرى مفسرة لما سبق وموضحة له، تكمن فى: أسباب شرك بنى آدم وخروجهم من عبادة رب العباد إلى عبادة العباد، إما طلباً لدفع الضر أو جلب النفع، أو طلباً للغيب أو طلباً للشفاعة، أو الغللو فى الصالحين، أو غير ذلك، فأراد المصنّف فى الباب السابق، قطع النفع إلا من الله ودفع الضر إلا منه، وإقامة البراهين على ذلك لدحض هذه الشبه الشركية.

وفى هذا الباب، أراد إقامة البراهين، على قطع كل سبيل من شأنه أن يوصل إلى الغيب، فما ينبغى على عاقل، أن يلجأ لساحر أو كاهن أو عراف، فيكفر بما أنزل على

(١) سبأ آية: ٢٣

(٢) القول السديد ٥٣ - ٥٥.

(٣) القول المفيد ١/ ٣٩٢.

محمد، ليسأله عن غيب ويصدقه في ذلك. فأقام البراهين على أن الملائكة المقربين لا تسمع من الوحي ولا من الغيب شيئاً، إذ تفرع عند سماع قول الله فلا تسمع، ولا مسترقوا السمع فلهم الشُّهْب، فلماذا يخرجون من دين الله لطلب الغيب. وهو سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (١).

وقال في الجن ﴿فَلَمَّا خُرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (٢).

ثم أراد بالباب التالي في الشفاعة إقامة الحجج والبراهين، على أن الشفاعة خالصة لرب العالمين قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (٣). وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٤) فلا ينبغي لعاقل فضلاً عن مسلم أن يخرج من دين الله طلباً للشفاعة فسوف يعامل بنقيض قصده.

- فائدة:

لماذا أحرَّ المصنّف الشفاعة بعد هذا الباب وقد قدّمها الله في الآية؟

الجواب: أحرّها المصنّف بعد هذين البابين لأنها من النفع الأخرى الآجل، وقدّم هذين البابين لأنهما أيضاً في النفع الدنيوى العاجل.

- ماذا أراد المصنّف بهذا الباب؟

قال حامد بن حسن (٥): باب ما يدل على الفوائد التوحيدية والمسائل الصمدية ونظام القيومية وسلطان الملكوتية من قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٦): أراد المصنّف رحمه الله. بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبّد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله - تعالى - وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحد من دون الله؟ وإذا كانوا لا يدعون مع الله تعالى. استقلالاً، ولا وساطة بالشفاعة، فغيرهم ممن لا يقدر على شئ من الأموات والأصنام أولى أن لا يدعى ولا يعبد ففيه الرد على جميع فرق المشركين الذين يدعون

(٢) سبأ: ١٤.

(١) الجن: ٢٦.

(٤) الزمر: ٤٤.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(١) سبأ: ٣٣.

(٥) فتح الله الحميد المجيد ٢٥٦.

(٦) تيسير العزيز الحميد ١٩٣ و ١٩٤.

مع الله من لا يدانى الملائكة، ولا يساويهم عن صفة من صفاتهم. وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ \* لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ \* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (١) فهذه حالهم وصفاتهم وليس لهم فى الربوبية والإلهية شيء. بل ذلك لله وحده. لا شريك له.

قال الفقير: ولم يذكر صاحب فتح المجيد شيئاً من ذلك. وقد اختصر هذا الكلام ابن باز فقال (٢):

أراد المؤلف بهذا الباب الرد على عباد القبور والأصنام والملائكة وغيرها فين أن الملائكة إذا كانت تخاف الله وتخاف عذابه إن خالفت أمره فكيف تستحق أن تعبد من دون الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾.



- مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٣): حيث دلّت الآية على خوف الملائكة من الله وتذللهم له.

- مناسبة الآية للتوحيد:-

قال ابن عثيمين (٤): أنه إذا كان منفرداً فى العظمة والكبرياء، فيجب أن يكون منفرداً فى العبادة.

قال القرعاوى (٥):- حيث دلّت الآية على أن الملائكة أنفسهم يخافون الله ويخشونه فكيف يدعون من دون الله وإذا لم تصح عبادتهم لا استقلالاً ولا وساطة بالشفاعة فعبادة غيرهم كالقبور لا تصح من باب أولى.

قوله: «حتى...»

قال محبى الدين درويش (٦):- حتى حرف غاية وجر والغاية المحذوف يفهم من سياق الكلام كأنه قيل يتربصون ويتوقفون حائرين مدهوشين وجلين تتفارسهم المخاوف وتتقاذفهم الشكوك أيؤذن لهم أم لا حتى إذا فزع... إلخ أه.

وقال بنحو ذلك الزمخشري فقال (٧): ولأى شيء وقعت حتى غاية؟ قلت- يعنى

(١) الأنبياء ٢٦ - ٢٨ . (٢) التعليق المفيد (٩٩).

(٣) الجديد ١٤٨

(٤) القول المفيد ١/٣٩٤ . (٥) الجديد ١٤٨ .

(٦) إعراب القرآن ٨/٨٩ .

(٧) الكشاف ٣/٢٥٨ .

الزمخشري- بما فهم من هذا الكلام من أنَّ ثمَّ انتظاراً للإذن وتوقفاً وتمهلاً وفرعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أولاً يؤذن وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان وطول من التريص ومثل هذا الحال دلَّ عليه قوله- عز وجل ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿١-هـ

قال الفقير: وهناك قول آخر فى (حتى) على قول من قال أن الذين سيفزع عن قلوبهم المشركون كما سيجىء.

قال الرازى<sup>(١)</sup>: - متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أى زعمتم الكفر إلى غاية التفريع، ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق.

قوله: ﴿إِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾

قال محى الدين درويش<sup>(٢)</sup>: - وَفُرِعَ بالبناء للمجهول ونائب الفاعل هو الجار والمجرور أى عن قلوبهم وقرىء بالبناء للمعلوم فيتعلق الجار والمجرور به أى فرع الله عن قلوبهم.

قال ابن الجوزى<sup>(٣)</sup>: - قرأ الأكثرون «فَرَع» بضم الفاء وكسر الزاى. قال ابن قتيبة: خُفِّفَ عنها الفَرَع.

وقال الزجاج: معناه كُشِّفَ الفرع عن قلوبهم.

وقرأ ابن عامر، ويعقوب وأبان: (فَرَع) بفتح الفاء والزاى، والفعل لله عز وجل: وقرأ الحسن، وقتادة وابن يعمر: (فرغ) بالراء غير معجمة وبالغين معجمة وهو بمعنى الأول، لأنها فرغت من الفرع.

وقال غيره: بل فرغت من الشك والشرك.

قال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: - وفرغ أى نفى الوجع عنها وأفنى من قولهم فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء ثم ترك ذكر الوجع وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول دفع إلى زيد إذا علم ما المدفوع، وقد تخفف وأصله فرغ الوجع عنها أى انتفى عنه وفى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وقرأ (افرنقع) عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها.

(١) التفسير الكبير ١٣/٢٥/٢٥٦.

(٢) إعراب القرآن ٨/٨٩.

(٣) زاد المسير ٦/٢٤٣.

(٤) الكشف ٣/٢٥٨.



وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار فالتف عليه الناس فلما أفاق قال: مالكم تكأكاتم على تكأكاتم على ذى جنة افرنقوا عنى.

والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء وقرىء بالرفع أى مقوله الحق.

قلت: وهذه القراءة الأخيرة (افرنقوا) لم أجدها إلا عند الزمخشري ولعلها شاذة لأن علماء اللغة كانوا يستشهدون بهذه المقولة على عدم البلاغة الفصاحة بسبب تنافر الحروف فالله أعلم.

### ● التفسير من أقوال الصحابة وغيرهم

وروى ابن جرير عن مجاهد: - حتى إذا فزع عن قلوبهم قال كشف عنها الغطاء يوم القيامة. (١)

وعن ابن مسعود ومسروق وغيرهما: - ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أى زال الفزع عنها. (٢)

قال ابن عباس وابن عمر وأبو عبدالرحمن السلمى والشعبي وإبراهيم النخعي والضحاك والحسن وقتادة فى قوله عز وجل. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يقول خلى عن قلوبهم (٣).

قال قطرب: معنى ﴿فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أخرج ما فيها من الفزع، وهو الخوف.

قال الشوكانى (٤): - والمعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء من المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام. إلا أن الله سبحانه يأذن للملائكة والأنبياء ونحوهم فى الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ فإذا أذن لهم فى الشفاعة فزعوا لما يقترن بذلك الحالة من الأمر الهائل والخوف الشديد من أن يحدث شئ من أقدار الله. أ. هـ.

قال الطبرى (٥): - والعرب تستعمل فزع فى معنيين فتقول للشجاع الذى به تنزل

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦٢/٢٢)

وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٤/٥) وزاد نسبه للفرياي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم وأنظر الأخير بتخريجنا

(٣) ابن كثير ٥٠٢/٣.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق.

وأنظر «فتح المجيد» بتخريجنا

(٥) تفسير الطبرى ٦٤/٢٢/١٠.

(٤) فتح القدير ٣١٥/٤.

الأمر التي يفزع منها هو مفزع وتقول للجبان الذي يفزع من كل شيء أنه لمفزع وكذلك تقول للرجل الذي يقضى له الناس في الأمور بالغبلة على من نازله فيها هو مغلب وإذا أريد به هذا المعنى كان غالباً وتقول للرجل أيضاً الذي هو مغلوب أبداً مغلب.

قال صاحب الظلال (١): -

صَوَّرَ المشهد الذي تقع فيه الشفاعة، و هو مشهد مذهل مرهوب ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قالوا: ماذا قال ربكم قالوا: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. . . إنه مشهد في اليوم العصيب. يوم يقف الناس، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يتأذن ذو الجلال في عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام. ويطول الإنتظار. ويطول التوقع. وتعنو الوجوه. وتسكن الأصوات وتخضع القلوب في إنتظار الإذن من ذى الجلال والإكرام.

ثم تصدر الكلمة الجليلة الرهيبة. فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم. ويتوقف إدراكهم عن الإدراك. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾. . . وكشف الفزع الذي أصابهم، وأفاقوا من الروعة التي غمرتهم فأذهلتهم. أ. هـ.

قال ابن عثيمين (٢): - قال ذلك ولم يقل: ﴿فُزِعَتْ قُلُوبِهِمْ﴾: إذ عن تفسيد المجاوزة، والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم، أى: أزيل الفزع عن قلوبهم. والفزع: الخوف المفاجيء، لأنَّ الخوف المستمر لا يُسَمَّى فزعاً. وأصله: النهوض من الخوف. أهـ.

وقوله: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾

قال الطبرى (٣): - واختلف أهل التأويل فى الموصوفين بهذه الصفة من هم وما السبب الذى من أجله فزع عن قلوبهم.

قال ابن الجوزى (٤): - وفى المشار إليهم قولان: -

أحدهما: أنهم الملائكة «وقد دلَّ الكلام على أنهم يفزعون لأمر يطرأ عليهم من أمر الله، ولم يذكره فى الآية، لأنَّ إخراج الفزع يدل على حصوله. وفى سبب فزعهم قولان:

أحدهما: أنهم يفزعون لسماع كلام الله تعالى. روى عبدالله بن مسعود عن رسول

(١) الظلال.

(٢) القول المفيد ١/٣٩٢.

(٣) تفسير الطبرى ١٠/٢٢/٦٢.

(٤) زاد المسير ٦/٢٤٣.

الله - ﷺ - قال « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجرجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل ﴿فَرَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ قال فيقول: ﴿الْحَقُّ﴾، فينادون «الْحَقَّ الْحَقُّ» (١).

وروى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - أنه قال: «إذا قضى الله - عز وجل - الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم قالوا: الذي قال الحق، وهو العلي الكبير» (٢).

وروى ابن جرير عن مسروق (٣) - قال إذا حدث عند ذى العرش أمر سمعت الملائكة صوتاً كجر السلسلة على الصفا قال فيغش عليهم فإذا فزع عن قلوبهم قال: ماذا قال ربكم؟ قال: فيقول من شاء الله الحق وهو العلي الكبير.

وعن سعيد قال: ينزل الأمر من عند رب العزة إلى السماء الدنيا فتفزع أهل السماء الدنيا حتى يستبين لهم الأمر الذى نزل فيه فيقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فيقولون قال الحق وهو العلي الكبير فذلك قوله ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ الآية (٤).

وعن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوف أمر الله فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرائيل فيقول جبرائيل قال الحق وهو العلي الكبير. قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل فينتهي جبرائيل بالوحي حيث أمره الله» (٥).

وعن ابن عباس: أنه كان يقول إن الله لما أراد أن يوحى إلى محمد دعا جبريل فلما تكلم ربنا بالوحي كان صوته كصوت الحديد على الصفا فلما سمع أهل السموات صوت

(١) [المحفوظ موقوف] علقه البخارى (٣/ ٤٦١ - الفتح) ووصله فى «خلق أفعال العباد» (٣٦٧) وأبو داود (٤٧٣٨). وابن خزيمة فى التوحيد (ص: ١٤٥) وأنظر «الاتقان فى علوم القرآن» للسيوطى بتخريجنا وأنظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا أيضاً وفتح المعيد «ح ٣٢٠».

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» وسيأتى تخريجه.

(٣) المصدر السابق (٦٢/٢).

(٤) المصدر السابق (٦٣/٢٢).

(٥) المصدر السابق (٦٣/٢٢).

الحديد خروا سجداً فلما أتى عليهم جبرائيل بالرسالة رفعوا رؤسهم فقالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير وهذا قول الملائكة (١).

وعن ابن عباس قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ إلى ﴿وهو العلى الكبير﴾ قال لما أوحى الله تعالى ذكره إلى محمد - ﷺ - دعا الرسول من الملائكة فبعث بالوحي سمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم سألوها عما قال الله فقالوا الحق وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً وأنه منجز ما وعد قال ابن عباس وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوه خرواً سجداً فلما رفعوا رؤسهم ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير﴾ (٢).

القول الثانى فى سبب فزعهم:

قال ابن الجوزى (٣): - أنهم يفزعون من قيام الساعة.

وفى السبب الذى ظنوه بدنو الساعة ففزعوا، قولان:

أحدهما: أنه لما كانت الفترة التى بين عيسى ومحمد - ﷺ - ثم بعث الله محمداً، أنزل الله جبريل بالوحي، فلماً نزل ظنّت الملائكة أنه نزل بشيء من أمر الساعة، فصعقوا لذلك، فجعل جبريل يمرُّ بكلِّ سماءٍ ويكشف عنهم الفزع ويخبرهم أنه الوحي، قاله قتادة، ومقاتل. وابن السائب.

وقيل: لما علموا بالإيحاء إلى محمد - ﷺ - فزعوا لعلمهم أن ظهوره من أشراط الساعة.

والثانى :- أن الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض ويكتبون أعمالهم إذا أرسلهم الله - تعالى - فانحدروا. يُسمع لهم صوت شديد، فيحسب الذين هم أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سجداً، ويصعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة، وهذا كلُّما مروا عليهم. رواه الضحاك عن ابن مسعود (٤).

القول الثانى :- فىمن أشير إليهم :-

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦٣/٢٢) وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٤١/٥) ونسبه لابن أبى حاتم فأنظره بتخريجنا)

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٤١/٥) وزاد نسبه لابن مردويه.

(٣) زاد المسير ٦/٢٤٣.

(٤) رواه ابن جرير عن ابن مسعود ٦٣/٢٢/١٠.

قال ابن الجوزي (١): - أن الذين أشير إليهم المشركون ثم في معنى الكلام قولان:

أحدهما. أن المعنى: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند الموت - إقامة للحجة عليهم. قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فارقوا حين لم ينفعهم الإقرار، قاله الحسن، وابن زيد.

والثاني: حتى إذا كشف الغطاء عن قلوبهم يوم القيامة، قيل لهم: ماذا قال ربكم؟ قاله مجاهد.

قال ابن جرير (٢) - وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي ذكره الشعبي عن ابن مسعود لصحة الخبر الذي ذكرناه من ابن عباس عن رسول الله - ﷺ - بتأييده وإذا كان ذلك كذلك فمعنى الكلام لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن أن يشفع عنده فإذا أذن الله لمن أذن له أن يشفع فزع لسماعه إذنه حتى إذا فزع عن قلوبهم فجلى عنهم وكشف الفزع عنهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: الحق وهو العلى على كل شيء الكبير الذي لا شيء دونه.

قال القرطبي (٣) - وهذا تنبيه من الله - تعالى - وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكنهم أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صعقوا. وكان هذه حالهم. فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤملون أتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة.

قال السعدي (٤) -: - يحتمل أن الضمير في هذا الموضع، يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ. والقاعدة في الضمائر. أن تعود إلى أقرب مذكور.

ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أى «زال الفزع» وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاء به الرسل، أنهم يقرون، أن ما هم عليه من الكفر والشرك، باطل، وأن ما قال الله، وأخبرت به عنه رسله، هو الحق «بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل» وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم... وهذا المعنى، أظهر، وهو الذى يدل عليه السياق.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله - تعالى - إذا تكلم بالوحي، سمعته الملائكة، فصعقوا، وخرروا لله سجداً. فيكون أول من يرفع رأسه. جبريل،

(٢) تفسير الطبرى ٦٤/٢٢.

(١) زاد المسير ٦/٢٤٤.

(٣) تفسير القرطبي ٨/٥٣٧٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٤/١٧٥.

فيكلمه الله من وحيه بما أراد. فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام، الذى صعقوا منه، ماذا قال ربكم؟

فيقول بعضهم لبعض. قال الحق. إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً. وإما أن يقولوا، قال كذا وكذا، للكلام الذى سمعوه منه، وذلك من الحق فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الألهة، التى وصفنا لكم عجزهم ونقصها. وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرخوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم. العلى الكبير- من عظمته وجلاله- أن الملائكة الكرام، والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق، عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله أنه لا يقول إلا الحق. فما بال هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه: فتعالى العلى الكبير، عن شرك المشركين. وإفكهم وكذبهم أ.هـ.

قال صاحب الظلال<sup>(١)</sup>: - ولعلمهم الملائكة المقربون هم الذين يجيبون بهذه الكلمة المعجلة الجامعة: «قالوا الحق...».

قال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: - وقوله «عَنْ قُلُوبِهِمْ»، أى قلوب الملائكة، لأن الضمير يعود عليهم بدليل ما سياتى من حديث أبى هريرة، ولا أحد من الخلق أعلم بتفسير القرآن من رسول الله - ﷺ .  
قوله «قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ».

قال محيى الدين درويش<sup>(٣)</sup>: - (قالوا) جواب إذا و(ما) اسم استفهام وإذا اسم موصول خبر والجملة مقول قال مقدّم عليه و(قال ربكم) فعل وفاعل والجملة مقول قالوا الأولى.

قال ابن عثيمين<sup>(٤)</sup>: - والمعنى: قال بعضهم لبعض: وإنما قلنا ذلك لأن فى الكلام قائلاً ومقولا له، فلو جعلنا الضمير فى قالوا عائداً على الجميع، فأين المقول له؟

والمعنى: أى شىء قال ربكم؟

وإعراب (ماذا) على أوجه:

١- ما: اسم استفهام مبتدأ، وذا: اسم موصول خبر، أى: ما الذى.

(١) الظلال ٤/٥ - ٢٩٠.

(٢) القول المفيد ١/٣٩٢.

(٣) إعراب القرآن ٨/٨٩.

(٤) القول المفيد ١/٣٩٣.

٢- ماذا: اسم استفهام مركب من ما وذا.

٣- ما اسم استفهام، وذا زائدة، قال ابن مالك.

ومثل ماذا بعد ما استفهام أو من إذا لم تبلغ في الكلام  
قوله ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾.

قال محيي الدين درويش: - و(قالوا) فعل وفاعل و(الحق) منصوب بقول مقدر أى  
قال ربنا القول الحق ولك أن تعرب القول مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً به والحق صفة ا.هـ.  
قال ابن عثيمين: - أى: قال المسؤولون. والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله،  
والتقدير قال القول الحق. والمعنى: أن الله - سبحانه - قال القول الحق لأنه سبحانه هو  
الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام؛ كما قال الله تعالى:  
﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾<sup>(١)</sup>. ولا يفهم من قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أنه قد يكون  
قولاً باطلاً؛ بل هو بيان لسواقع، فإن قيل: ما دام بياناً للواقع ومعروفاً عند الملائكة أنه  
لا يقول إلا الحق، فلماذا الاستفهام؟!

أجيب: أن هذا من باب الشناء على الله بما قال، وأنه سبحانه لا يقول إلا الحق أ.هـ.  
قال الفقير: أو لشدة محبتهم لربهم سبحانه وتعالى يريدون أن يسمعوا كلامه ولو  
بواسطة مع كمال علمهم بأنه لا يقول إلا الحق، كما أن الله كان يعلم ما يمين موسى  
ولشدة محبته له سأل عن ذلك.

- فائدة في الرد على من قال بخلق القرآن:

جاء في شرح الصحيح وسنن ابن ماجه: قالوا: ماذا قال ربكم ولم يقل ماذا خلق  
ربنا؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا ماذا خلق؟

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

قال محيي الدين درويش<sup>(٢)</sup>: - (هو) مبتدأ و(العلي) خبر أول و(الكبير) خبر ثان  
وهو تمة كلام الشفعاء.

قال صاحب الظلال<sup>(٣)</sup>: - وهذه الإجابة المعجلة تشي بالروعة الغامرة، التي لا

(٢) إعراب القرآن ٨/٨٩.

(١) الأتعام ١١٥.

(٣) الظلال ٥/٢٩٠٤.

ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة! فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب. وهذه صورة الملائكة فيه بين يدي ربهم فهل بعد هذا المشهد يملك أحد أن يزعم أنهم شركاء لله، شفعاء في من يشرك بالله؟! . اهـ.

قوله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات<sup>(١)</sup>.

قال الفقير :- كما قال الأوزاعي: كنا نقول والتابعون وافرون - مجتمعون - أن الله مستوى على عرشه بائن عن خلقه معهم بعلمه.

وكما قال ابن المبارك: لما قيل له: بم تعرف ربنا؟ قال: «بأنه على عرشه بائن عن خلقه» تمسكاً منه بالقرآن، لقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وقوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ في سبعة مواضع من القرآن:

[الأعراف ٥٤ - يونس ٣ - الرعد ٢ - السجدة ٤ - الحديد ٤] (٢).

قال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

أي: العلى في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء، وهى العظمة التى لا يُدانيها شيء، أى العظيم الذى لا أعظم منه.

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من يتسبب للإسلام حتى الجهمية ونحوهم.

الثاني: علو الذات، وقد أنكره كثير من المتسبين للإسلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم؛ فإنَّ المحققين منهم أثبتوا علو الذات.

وعلوه لا ينافى كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم؛ لأنه ليس كمثل شيء فى جميع صفاته.

وفى الآية فوائد:

١- أن الملائكة يخافون الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (٣).

٢- إثبات القلوب للملائكة؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾.

(١) فتح المجيد ٢٤٤

(٢) القول المفيد ١/٣٩٤.

(٣) النحل: ٥٠.



٣- إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحاً مجردة من الجسميّة، وهو أمر معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ (١)، وقد رأى النبي ﷺ جبريل له ست مئة جناح قد سدّ الأفق (٢)؛ فالقول بأنهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع، وهو قول باطل.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنّما أكلهم وشربهم التسييح بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٣)؛ ففى هذا دليل على أن ليلهم ونهارهم مملؤان بذلك، ولهذا جاء: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ﴾، ولم يقل: يسبحون فى الليل؛ أي: أن تسيحهم دائم، والتسيح تنزيه الله عما لا يليق به.

٤- أن لهم عقولاً؛ إذ إنّ القلوب هى محلّ العقول خلافاً لمن قال: إنهم لا يعقلون، ولأنهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

٥- إثبات القول لله- سبحانه وتعالى-، وأنّه متعلّق بمشيئته؛ لأنه جاء بالشرط: ﴿إِذَا فُزِعَ﴾، وإذا الشرطية تدلّ على حدوث الشرط والمشروط، خلافاً للأشاعرة الذين يقولون: إنّ الله لا يتكلّم بمشيئة، وإنّما كلامه هو المعنى القائم بنفسه؛ فهو قائم بالله أزلّى أبدي، كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر.

ولا ريب أن هذا باطل، وأن حقيقة إنكار كلام الله، ولهذا يقولون: إنّ الله يتكلّم بكلام نفسى أزلّى أبدي، كما يقولون: هذا الكلام الذى سمعه موسى، وسمعه النبي ﷺ، ونزل به جبريل على الرسول ﷺ شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

وهذا فى الحقيقة قول الجهميّة؛ كما قال بعض المحققين من الأشاعرة: ليس بيننا وبين الجهميّة فرق، فإننا اتفقنا على أن هذا الذى بين دفتى المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبارة عن كلام الله، وهم قالوا: هو كلام الله.

فالجهميّة خير منهم فى أنهم يقولون: هذا كلام الله، لكنهم شرّ منهم فى كونهم يصرّحون أن كلام الله مخلوق.

٦- إثبات أن قول الله حق، وهذا جاء فى القرآن: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (٤)، وقال: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٥)؛ فالله تعالى لا يقول إلا حقاً؛ لأنّه هو الحق، ولا يصدر عن الحق إلا الحق.

(١) فاطر: ١.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٢٣٢)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٥/ ٢٨٠) عن ابن مسعود به.

(٣) الأنبياء: ٢٠.

(٤) الأحزاب: ٤.

(٥) ص: ٨٤.

وفى الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْقُذُهُمْ ذَلِكَ. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ (١) فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سَفِيَانٌ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الأَخْرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرَبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرَبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرَكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبَةِ، فَيَقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا: وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةَ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ» (٢).

٧- الفرع لكلام الله - عز وجل - وحسن استقبال هذا الكلام والخوف والهلع من أوامره ونواهيهِ كما كان النبي ﷺ يفعل حينما ينزل عليه جبريل كان في اليوم الشديد البرد يتفصد عرقاً فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وهو في الصحيح أيضاً جبريل لما نزل حتى بلغ منه الجهد ليأخذ الأمر بقوة والكتاب بقوة حتى ظن أنه نبي فلا بد من أخذ الأمر بقوة والفرع والهلع لاستقبال هذا الأمر والاستعداد بهذين الأمرين بالخوف والقوة وبالرجاء أيضاً «ماذا قال ربكم قال الحق وهو العلي الكبير».



قال الفقير:- والمصنف قد أورد هذا الحديث بعد الآية ليسوه أو ليبين لنا مدى عمقه العلمى، وتأسيه بالسلف إذ فسروا القرآن بالقرآن وإن لم يجدوا فيفسرونه بالسنة، فلذلك فسر الآية بالحديث وهو كالنص في المسئلة لا يجوز أن يعدل إلى غيره، كما تقدم معنا من كلام شيخ الإسلام أولاً ومن كلام الشيخ ابن عثيمين ثانياً في القول المفيد.

- مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى (٣):- حيث دلَّ الحديث على بيان حال الملائكة وأنهم يخافون من الله ويخشونه. أهـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب ﴿إِلا من اسرق السمع فأتبعه شهاب ميين﴾ (٨/٢٣١ / ٤٧٠١) والترمذى فى تفسير القرآن/ باب ومن سورة سبأ (٥ / ٣٦٢ / ٣٢٢٣)، وابن ماجه فى المقدمة / باب فيما أنكرت الجهمية (١ / ٦٩ - ٧٠ / ١٩٤). وأنظر الأتقان فى علوم الأتقان» (١٧١٨ - بتخریجنا) «وفتح المجید» (ح ٣١٩) بتخریجنا «وفتح القدير» (ح ٤٨٨ / ١٠) بتخریجنا). وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (ح ١٧٨٩٦) بتخریجنا

- مناسبة الحديث للتوحيد:-

قال القرعاوى: حيث دل الحديث على أن الملائكة أنفسهم يعبدون الله ويخافونه فإذا لم يصح دعاؤهم ولا عبادتهم لاستقلالاً ولا وساطة بالشفاعة فعبادة غيرهم لا تصح من باب أولى.

ولفظه في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا افْزَعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: لَلَّذِي قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَوَصَفَهُ سَفِيَانٌ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذِبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا: وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ».

قوله (في الصحيح) يعنى صحيح البخارى .

قوله «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ»

قال ابن حجر فى حديث النّوأس بن سمعان عند الطبرانى مرفوعاً «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحَى أَخَذَتِ السَّمَاءُ رَجْفَةً شَدِيدَةً مِنْ خَوْفِ اللهِ ، فَإِذَا سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ بِذَلِكَ صَعِقُوا وَخَرُوا سَجْدًا، فَيَكُونُ أَوْلَهُمْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيْلُ، فَيَكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَنْتَهَى بِهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كَلِمًا مَرَّ بِسَمَاءِ سَأَلَهُ أَهْلُهُ مَاذَا قَالَ رَبَّنَا؟ قَالَ الْحَقُّ، فَيَنْتَهَى بِهِ حَيْثُ أَمْرٌ»(١).

وعند سعيد بن منصور. وأبى داود وابن جرير عن ابن مسعود قال: إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحَى، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَلْصَلَةً كَجَرِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ(٢).

وعلقه البخارى وذكره الحافظ موصولاً فى «المسند» عن أبى معاوية ولفظه «إِنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِالوَحَى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ فَيَصْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جَبْرِيْلُ، فَإِذَا جَاءَهُمْ جَبْرِيْلُ فَرَزَعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ» قال: ويقولون يا جبريل ماذا قال ربكم قال فيقول الحق قال فينادون الحق الحق.

(٢) تقدم تخريجه

(١) سيأتى تخريجه

قال البيهقي: رواه أحمد بن شريح الرازي، وعلى بن إشكاب، وعلى بن مسلم، ثلاثتهم عن أبي معاوية مرفوعاً. أخرجه أبو داود في السنن عنهم، ولفظه مثله، إلا أنه (قال: فيقولون: ماذا قال ربك؟) قال: ورواه شعبة عن الأعمش موقوفاً، وجاء عنه مرفوعاً أيضاً أ.هـ.

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: - المراد (بالأمر) الشأن، ويكون القضاء، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً» بفتح الحين من الخضوع، وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه وهو مصدر بمعنى خاضعين.

وفي حديث ابن مسعود «سمع أهل السماء الصلصلة»<sup>(٢)</sup>

قوله: «خضعاناً»

مصدر كقوله غفراناً، قاله الخطاب، وقال غيره: - هو جمع خاضع.

والمعنى: - أي: خضعاناً لقوله.

«كأنه سلسلة على صفوان» وفي رواية في الصحيح «سمع أهل السموات»

قال ابن حجر: قوله (سمع أهل السموات) في رواية أبي داود وغيره «سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا» ولبعضهم «الصفوان» بدل «الصفا» وفي رواية الثوري «الحديد» بدل «السلسلة» وفي رواية شيان بن عبدالرحمن عن منصور عند ابن أبي حاتم «مثل صوت السلسلة» وعنده من رواية عامر الشعبي عن ابن مسعود «سمع من دونه صوتاً كجر السلسلة» ووقع في حديث النواس بن سمعان عند ابن أبي حاتم «إذا تكلم الله بالوحي أخذت السموات منه رجفة» أو قال «رعدة شديدة من خوف الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرأوا لله سجداً»<sup>(٣)</sup> وكذا وقع قوله «ويخرون سجداً» وفي رواية أبي مالك وكذا في رواية سفيان وابن عمير المشار إليها، ووقع في رواية شعبة «فيرون أنه من أمر الساعة فيفزعون».

قوله (كأنه) أي القول المسموع وقد يكون هذا المسموع هو رجفة ورعدة وصعق الملائكة (سلسلة على صفوان) هو مثل قوله في بدء الوحي «صلصلة كصلصلة الجرس» وهو صوت الملك بالوحي.

(١) القول المفيد ١/٣٩٧.

(٢) سيأتي تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

وقد روى ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه «إذا تكلم الله بالوحي يسمع أهل السماوات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان فيفزعون»<sup>(١)</sup>.

قال الخطابي: الصلصلة صوت الحديد إذا تحرك وتداخل، وكأن الرواية وقعت له بالصاد، وأراد أن التشبيه في الموضوعين بمعنى واحد، فالذى فى بدء الوحي هذا والذى هنا جر السلسلة من الحديد على الصفوان الذى هو الحجر الأملس يكون الصوت الناشئ عنهما سواء.

قوله (على صفوان) زاد البخارى فى سورة الحجر عن على بن عبدالله «قال غيره- يعنى غير سفيان- «ينفذهم ذلك».

فى حديث ابن عباس عند ابن مردويه من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه «فلا ينزل على أهل سماء إلا صُعِقُوا»<sup>(٢)</sup>.

وعند مسلم والترمذى من طريق على بن الحسين بن على عن ابن عباس عن رجال من الأنصار أنهم كانوا عند النبى ﷺ، فرمى بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون لهذا إذا رمى به فى الجاهلية» قالوا: كنا نقول مات عظيم أو يولد عظيم، فقال: «إنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمرا سيح حملة العرش ثم سيح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح سماء الدنيا، ثم يقولون لحملة العرش: ماذا قال ربكم» الحديث<sup>(٣)</sup>.

قوله: [يَنفُذُهُمْ ذَلِكَ]

قال ابن حجر: (وقال غيره صفوان ينفذهم) قال عياض ضبطوه بفتح الفاء من صفوان، وليس له معنى وإنما أراد لغير المبهم وقوله (ينفذهم) وهو بفتح أوله وضم الفاء أى يعمهم.

قلت أى ابن حجر: وكذا أخرجه ابن أبى حاتم عن محمد بن عبدالله بن زيد عن سفيان بن عيينة بهذه الزيادة.

وذكره الكرمانى بلفظ (صفوان ينفذ فيهم ذلك) بزيادة لفظ الإنفاذ أى ينفذ الله ذلك القول إلى الملائكة، أو من النفوذ أى ينفذ ذلك إليهم أو عليهم.

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧ / ٤٨٣ / ١٢٤) عن ابن عباس به.

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا»

قوله: «حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»  
وقد تقدم تفسير الآية وما فيها من فوائد. لاسيما إثبات الكلام لله بصوت وحرف كما  
هو مذهب أهل السنة وهو مسألة طويلة ولهذا بوب البخارى فى كتاب التوحيد على صفة  
الكلام لله عز وجل باباً ذكر فيه هذا الأثر وغيره،

قال ابن حجر: قال ابن بطال: استدل البخارى بهذا على أن قول الله قديم لذاته،  
قائم بصفاته، لم يزل موجوداً به، ولا يزال كلامه لا يشبه المخلوقين، خلافاً للمعتزلة  
التي نفت كلام الله، وللكلابية فى قولهم: هو كناية عن الفعل والتكوين، وتمسكوا بقول  
العرب: قلت ييدى هذا أى حركتها. واحتجوا بأن الكلام لا يعقل إلا بأعضاء ولسان،  
والبارى منزّه عن ذلك فرد عليهم البخارى بحديث الباب والآية. ١. هـ

أى الحديث والآية التي ذكرهما مصنف كتاب التوحيد تبعاً للبخارى وغيره.

ثم قال ابن حجر: وملخص ذلك قال البيهقى فى «كتاب الاعتقاد» القرآن كلام الله  
وكلام الله صفة من صفات ذاته، وليس شيء من صفات ذاته مخلوقاً ولا محدثاً ولا  
حادثاً. قال تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(١)</sup> فلو كان القرآن  
مخلوقاً لكان مخلوقاً بكن ويستحيل أن يكون قول الله لشيء بقول لأنه يوجب قولاً ثانياً  
وثالثاً فيتسلسل وهو فاسد، وقال الله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ  
الْإِنْسَانَ (٣) فَخَصَّ الْقُرْآنَ بِالْتَّعْلِيمِ لَأنَّهُ كَلَامُهُ وَصَفَتُهُ، وَخَصَّ الْإِنْسَانَ بِالتَّخْلِيقِ لَأنَّهُ  
خَلَقَهُ وَمَصْنُوعُهُ، وَلَوْ لَاقَ ذَلِكَ لَقَالَ خَلَقَ الْقُرْآنَ وَالْإِنْسَانَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ  
مُوسَى تَكْلِيمًا﴾<sup>(٣)</sup> ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم قائماً بغيره، وقال الله تعالى ﴿وَمَا  
كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾<sup>(٤)</sup> الآية، فلو كان لا يوجد إلا مخلوقاً فى شيء  
مخلوق لم يكن لاشرط الوجه المذكورة فى الآية معنى لاستواء جميع الخلق فى سماعه  
عن غير الله فبطل قول الجهمية أنه مخلوق فى غير الله، ويلزمهم فى قولهم أن الله خلق  
كلاماً فى شجرة كلم به موسى أن يكون من سمع كلام الله من ملك أو نبى أفضل فى  
سماع الكلام من موسى، ويلزمهم أن تكون الشجرة هى المتكلمة بما ذكر الله أنه كلم به  
موسى وهو قوله ﴿إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى﴾<sup>(٥)</sup> وقد أنكر الله تعالى قول

(١) النحل. (٢) الرحمن: ٣/٢.

(٣) النساء: ١٦٤. (٤) الشورى: ٥١.

(٥) طه: ١٤.

المشركين ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ولا يعترض بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١) لأن معناه قول تلقاه عن رسول الله كريم كقوله تعالى ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (٢) ولا بقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (٣) لأن معناه سميناه قرآناً، وهو كقوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ (٤) وقوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ (٥) وقوله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ (٦) فالمراد أن تنزيله إلينا هو المحدث لا الذكر نفسه، وبهذا احتج الإمام أحمد ثم ساق البيهقي حديث نيار بكسر النون وتخفيف التحتانية ابن مكرم أن أبا بكر قرأ عليهم سورة الروم فقالوا هذا كلامك أو كلام صاحبك، قال ليس كلامي ولا كلام صاحبى ولكنه كلام الله، وأصل هذا الحديث أخرجه الترمذى مصححاً (٧).

وعن علي بن أبي طالب ما حكمت مخلوقاً، ما حكمت إلا القرآن، ومن طريق سفیان بن عيينة سمعت عمرو بن دينار وغيره من مشيختنا يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق.

وقال ابن حزم فى الملل والنحل: أجمع أهل الإسلام على أن الله تعالى كلم موسى، وعلى أن القرآن كلام الله وكذا غيره من الكتب المنزلة والصحف.

المحفوظ عن جمهور السلف ترك الخوض فى ذلك والتعمق فيه والاقتصار على القول بأن القرآن كلام الله وأنه غير مخلوق ثم السكوت عما وراء ذلك أهـ.

قوله [فيسمعها مسترق السمع]

قال سليمان آل الشيخ: (٨) أى يسمع الكلمة التى قضاها الله مسترق السمع، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً فيسمعون أصوات الملائكة بالأمر يقضيه الله كما قال تعالى ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ.

أهـ.

قال ابن عثيمين (٩): أى هذه الكلمة التى تكلمت بها الملائكة. ا. هـ.

(١) الحاقة: ٤٠.

(٢) التوبة: ٦. (٣) الزخرف: ٣.

(٤) الواقعة: ٨٢. (٥) النحل: ٦٢.

(٦) الأنبياء: ٢.

(٧) أخرجه الترمذى (٣١٩٤) بدون موضع السابق.

(٨) تيسير العزيز الحميد (١٩٦).

(٩) القول المفيد (١/ ١٤٠٠).

وفى حديث عائشة فى الصحيح لما سئل عن الحق الذى يحدث به الكهان أحياناً، قال - ﷺ - تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى (١).

وهى مبينة لصفة الإستراق ومفسرة له بالخطف (٢).

قال ابن عثيمين (٣): وتأمل كلمة (مسترق) ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاساً بسرعة أو اختلاساً سريعاً ويؤيده قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (٤).

قوله «ومسترق»

قال ابن حجر (٥): كذا فى رواية على عند أبى ذر بالإفراد وهو فصيح، وهو مفرد مضاف فيعم جميع المسترقين، ويؤيده ما فى الصحيح بلفظ (ومسترقوا السمع).

قوله (هكذا بعضه فوق بعض وصفه سفيان).

قال ابن حجر: - أى ابن عيينة (بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه) أى فرق، فى رواية على ابن المدينى ووصف سفيان بيده ففرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض».

وفى حديث ابن عباس عند ابن مردويه «كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يسمعون منه الوحى» يعنى يلقيها، زاد على عن سفيان «حتى ينتهى إلى الأرض فيلقى» (٦).

قال سليمان آل الشيخ (٧): (وصفه سفيان بكفه أى وصف ركوب بعضهم فوق بعض وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالى الكوفى ثقة حافظ فقيه إمام حجة، إلا أنه

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٦٢)، ومسلم فى السلام (٧ / ٤٨٢ / ١٢٢)

(٢) الفتح ٢٠٣/٦٠ ك الطب.

(٣) القول المفيد (١ / ٤٠٠).

(٤) الصافات: ١٠.

(٥) فتح البارى (٨ / ٣٩٩).

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥ / ٤٤٢) ونسبه لبيهقي، وابن أبى شيبة، وابن مردويه، وأبى نعيم فى

«الدلائل»

(٧) تيسير العزيز الحميد (١٩٦).



تغير حفظه بأخره، وربما دلس لكن عن الثقات، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة. أه.

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: أى أنها واحد فوق الثانى، أى الأصابع، فالجن يتراكبون واحد فوق الآخر إلى أن يصلوا إلى السماء فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾.

قال الفقير:

● وفيه من الفوائد:-

الأولى:- أن من الجن مسترقون مختلسون خطافون، قال تعالى ﴿وَأَنَا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾.

الثانية: أنهم يقومون بعمليات انتحارية ذلك لأنهم يتراكبون واحداً فوق الآخر إلى أن يصلوا إلى السماء وهم على ثقة أن أغلبهم سيدركهم الشهاب، ومع ذلك فعلوا.  
الثالثة:- ذكر فى غير موضع كما فى صحيح مسلم وغيره أن إبليس له سرايا وجنود وبعوث وعرش وحُجُب، فلا غرو ولا عجب أن يكون منهم من يقوم بهذه العمليات الانتحارية.

الرابعة: مدى حرص أهل الباطل على الباطل ويؤيده قوله تعالى ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ الآية وقوله تعالى ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الآية.

الخامسة:- أهل الحق أولى بهذا من أهل الباطل وإلا يفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

قوله: «يسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته.

وفى حديث عائشة فى رواية السرخسى يخطفها من الجن.

(١) القول المفيد (١/٤٠١).

قال ابن حجر: أى الكاهن يخطفها من الجن أو الجن الذى يلقي الكاهن يخطفها من جن آخر فوجه .

(ويخطفها) بقاء معجمة وطاء مفتوحة وقد تكسر، وبعدها فاء ومعناه الأخذ بسرعة .

قال سليمان آل الشيخ: أن يسمع المستمع الفوقانى الكلمة من الوحي، فيلقيها إلى الشيطان الذى تحته، ثم يلقيها الآخر من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، وحينئذ يقع الرجم أ.هـ .

قال ابن عثيمين: أى يسمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، أى يخبره بها (ومن) اسم موصول، وقوله (تحته) شبه جملة صلة الموصول، لأنه ظرف . أ.هـ .  
قوله «ثم يلقيها الآخر إلى من تحته» .

أى يسمع أعلى المسترقين الكلمة فيلقيها إلى من تحته أى يخبره بها .

قوله «حتى يلقيها على لسان الساحر أو لكاهن» .

وفى رواية على الساحر والكاهن وكذا قال سعيد بن منصور عن سفيان .

قوله «حتى يلقيها» .

فى حديث عائشة «فيقرها» أى يصبها، يقول قررت على رأسه دلواً إذا صببته، فكأنه صب فى أذنه ذلك الكلام، ووقع فى رواية يونس «فيقرقرها أى يرددتها، يقال قرقرت الدجاجة تقرقر قرقرة . إذا رددت صوتها .

قال الخطابي: والمعنى أنه إذا ألقى الكلمة لوليه تسمع بها الشياطين فتناقلوها كما إذا صوتت الدجاجة فسمها الدجاج فجاءت بها .

وقيل معانٍ أخرى .

قوله «على لسان الساحر أو الكاهن» .

تقدم صفة ذلك . قال مالك والساحر الذى يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره . وهو مثل الذى قال الله تعالى فى كتابه ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق﴾ وسيأتى تفصيل ذلك فى أبواب السحر وتقدم قول ابن عثيمين .

والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذى يضرب الحصى، والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى فى قضاء حوائجه .

وقال فى (المحكم): الكاهن القاضى بالغيب . وقال فى (الجامع): العرب تسمى كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهناً .

وقال الخطابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شديدة وطباع نارسة، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التاسب في هذه الأمور ومساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه .  
أنواع الكهانة.

قال ابن حجر: وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصاً في العرب لانقطاع النبوة فيهم . وهى على أصناف: منها ما يتلقونه من الجن، فإنَّ الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه، إلى أن يتلقاه من يُلقه فى أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرس السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً.

قال الفقير: وذلك لأن الحرس لم يكونوا موجودين للسمع فيسمع الجن ويعطوا للكاهن ولذلك كان للكهان شأن كبير وعظيم فى الجاهلية أما بعد الإسلام فليس لهم شأن ولذلك أنا أرجح قول من يقول أن هذه الشهب لا زالت موجودة إلى الآن فإنه لم تكن فقط المناسبة نزول القرآن.

قال ابن حجر: كما جاء فى أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما فى الإسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل والله الحمد.

ثانيها ما يخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً .  
أو يطلع عليه من قرب منه لامن بعد .

#### ● فائدة:

قال ابن عثيمين (١): وقد التبس على بعض طلبة العلم، فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولوفىما مضى فهو كاهن لكن ماضى مما يقع فى الأرض ليس غيباً مطلقاً، بل هو غيب نسبي . اهـ .

قال ابن حجر: ثالثها ما يستند إلى ظن وتخمين وحس وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

قال الفقير: لأن مستنده ظن وتخمين مثل أن يخبرك إنسان بما فى ضميرك فإن كان مستند ذلك ظن وتخمين وحس فهو المذموم وإن كان مستنده فراسة فهذا مشروع لأنه يستدل بإشارات وعلامات على الوجه تنفذ بها من الظاهر إلى الباطن .

(١) القول المفيد .

واعتمد الحكم بالفراصة ابن القيم فى كتابه الطرق الحكيمية وذكر أن رجلاً دخل على عثمان - رضى الله عنه - فقال له رجل أما يستحى رجل أن يدخل على أمير المؤمنين وأثر الزنى فى عينيه، ومن هنا أقر الرسول ﷺ ما يحدث لعمر من إلهام وقال «فى كل أمة - محدثين وملهمين وإن يكن فى أمتى فهو عمر» والحديث أصله فى الصحيح.

قال ابن حجر : رابعها ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهاى السحر، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم.

قلت : كمن يعمل خطأ ويقول أنا تبت كفراسة الخضر مع موسى عندما قال له ﴿إنك لن تستطيع معى صبراً قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً﴾ .  
ليس غيباً مطلقاً بل هو غيب نسبى .

قال ابن عثيمين : مثل ما يقع فى المسجد يعد غيباً بالنسبة لمن فى الشارع وليس غيباً بالنسبة لمن فى المسجد، وقد يتصل الإنسان بجنى فيخبره عما حدث فى الأرض، ولو كان بعيداً فيستخدم الجن لكن ليس على وجه محرم<sup>(١)</sup>، فلا يسمى كاهناً لأن الكاهن ما يخبر عن المغيبات فى المستقبل أ.هـ .

قال الفقير : وما استنكره الشيخ هو ما قرره ابن حجر فى النوع الثانى من أنواع الكهانة وقال فى آخر هذه الأنواع وكل ذلك مذموم شرعاً.

حكم الكهانة وما ورد فى ذمها.

قال ابن حجر : وكل ذلك مذموم شرعاً، وورد فى ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبى هريرة رفعه «من أتى كاهناً أو عرفاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»<sup>(٢)</sup>.

وله شاهد من حديث جابر<sup>(٣)</sup>، وعمران بن حصين أخرجهما البزار بسندين جيدين ولفظهما «من أتى كاهناً» .

أخرجه مسلم من حديث امرأة من أزواج النبى ﷺ، ومن الرواة من سماها حفصة - بلفظ «من أتى عرفاً»<sup>(٤)</sup>.

(١) وقد تقدم أن استخدام الجن بأى صورة من الصور ممنوع، وليس هناك أى وجه فى الاستخدام عليه دليل إلا ما روى بسند ضعيف عن أبى موسى فى قصة وسم عمر ابل الصدقة، ولا تقوم به حجة. والله المستعان.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٧) ونسبه للبزار . قال : ورجاله رجال الصحيح خلا عقبه بن سنان وهو ضعيف

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧ / ٤٨٤ / ١٢٥)

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بالرأي، ولفظه: «من أتى عرفاً أو ساحراً أو كاهناً» (١).

واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة إلا حديث مسلم فقال فيه: «لم يقبل لهما صلاة أربعين يوماً» (٢).

ووقع عند الطبراني من حديث أنس بسند لين مرفوعاً بلفظ: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل صلاته أربعين يوماً» (٣) الأحاديث الأولى مع صحتها وكثرتها أولى من هذا، والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة، وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتى أشار إلى ذلك القرطبي اهـ.

قوله: «فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها» إلى آخره

قال ابن حجر: (٤) يقتضى أن الأمر فى ذلك يقع على حد سواء، والحديث الآخر يقتضى أن الذى يسلم منهم قليل بالنسبة إلى من يدركه الشهاب.

ووقع فى روايه سعيد بن منصور عن سفيان فى هذا الحديث «فيرمى هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى يلقي على فم ساحر أو كاهن».

قوله «فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء» زاد على بن عبدالله عن سفيان كما فى تفسير الحجر عند البخارى « فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا كذا يكون وكذا وكذا فوجدناه حقا الكلمة التى سمعت من السماء».

وفى حديث ابن عباس « فيقول: يكون العام كذا وكذا فيسمعه الجن فيخبرون به الكهنة فتخبر الكهنة الناس فيجدونه » وسيأتى.

وفى حديث عائشة «(فيخلطون معها مائة كذبة)» (٥) فى رواية ابن جريج «أكثر من مائة كذبة» وهو دال على أن ذكر المائة للمبالغة لالتعيين العدد، وقوله كذبة هنا بالفتح وحكى الكسر اهـ.

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٨) ونسبه للبخارى قال: ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم وهو ثقة.

(٢) ثقة تخريجه

(٣) أخرجه الطبراني فى «الأوسط» (٦٦٧٠) قال الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٨) قال: وفيه رشدين بن سعد وهو ضعيف وفيه توثيق فى أحاديث الرقاق وبقية رجاله ثقات.

(٤) «الفتح» (١٠ / ٢٢٧، ٢٢٨)

(٥) تقدم تخريجه

## مسئلة كيف يتوصل الجنى إلى اختطاف الكلمة واستراق السمع؟

قال ابن حجر: أخرج مسلم فى حديث آخر أصل توصل الجنى إلى الاختطاف فأخرج من حديث ابن عباس «حدثنى رجال من الأنصار أنهم بيناهم جلوس ليلاً مع رسول الله ﷺ إذ رمى بنجم فاستنار» فقال: ما كنتم تقولون إذا رمى مثل هذا فى الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم، فقال: إنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته. ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبى حملة العرش ثم سبى الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى أهل هذه السماء الدنيا فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم حتى يصل إلى السماء الدنيا، فيسرق منه الجنى، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون فيه وينقصون»<sup>(١)</sup> بيان كيفتهم عند استراقهم، بدء الخلق من وجه آخر عن عروة عن عائشة «أن الملائكة تنزل فى العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى فى السماء فتسرق الشياطين السمع»<sup>(٢)</sup> فيحتمل أن يريد بالسحاب السماء كما أطلق السماء على السحاب، ويحتمل أن يكون على حقيقته وأن بعض الملائكة إذا نزل بالوحي إلى الأرض تسمع منهم الشياطين، أو المراد الملائكة الموكلة بإنزال المطر. اهـ.

● فوائد الحديث.

### قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>.

- ١- إثبات القول لله - عزوجل.
  - ٢- عظمة الله - سبحانه وتعالى.
  - ٣- إثبات الأجنحة للملائكة.
  - ٤- خوف الملائكة من الله - عزوجل وخضوعهم له.
  - ٥- أن الملائكة يتكلمون ويعقلون.
  - ٦- أنه لا يصدر عن الله إلا الحق.
  - ٧- أن الله - سبحانه - يَكُنُّ هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس، وهى ما يلقونه على الكهان، فيحصل بذلك فتنة، والله - عزوجل - حكيم.
- وقد يوجد الله أشياء تكون ضلالاً لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدى وامتحاناً وابتلاء.

٨ - كثرة الجن؛ لأنهم يترادفون إلى السماء، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جداً، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيراناً.

وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فى السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير

(٣) القول المفيد ١/٤٤، ٤٠٥، ٤٠٦.

(٢) تقدم تخريجه

(١) تقدم تخريجه

وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً». (أَوْ قَالَ: رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ) خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ؛ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيْلُ فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جَبْرِيْلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جَبْرِيْلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جَبْرِيْلُ، فَيَنْتَهِي جَبْرِيْلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ» (١).

بهم: أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات، لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائرات؛ فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكائس التي تكنس بها البيوت، ويقول: أنا أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة؛ يفعلون هذا، وشيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين، ويسبون حتى من الناحية العملية؛ لأنهم يبرون الميقات ولا يحرمون منه.

٩- أن الكهان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلى ماسمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس، ويتوصلون بها إلى باطلهم تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجزي عليك كذا من موت أوسرقة مال ونحو ذلك.

١٠- أن الساحر يصور للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل الترمويه والتليس، وأنهم إن صدقوا في شيء؛ فيجب الحذر منهم بكل حال.



### قوله: عن النواس بن سمعان

قال ابن عثيمين (٢). هذا الحديث لم يخرجہ المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من

(١) لا أصل له أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦٣/٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٩٧/٣١٩٦/١٠) وأبو الشيخ في «العظمة» (١٦٤). وابن خزيمة في «التوحيد» (ص: ١٤٤) وابن أبي عاصم في السنة (٥١٥) من طريق نعيم بن حماد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبدالله بن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سمعان به. وفي إسناد نعيم بن حماد وهو ضعيف والوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعنه وقال الذهبي في «الميزان» (٤ / ٢٦٨) قال أبو زرعة الدمشقي عرضت على دحيم حديث حدثنا نعيم بن حماد عن الوليد بن مسلم فذكر الاستاد وهذا الحديث.

وقال وحيم: لا أصل له. وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخرجه. وانظر «الاتقان» (٣٩١ - بتخرجه). وفتح المجيد» (ح٢٢٦) بتخرجه

(٢) القول المفيد ١/٤٠٦، ٤٠٧.

رواية ابن ابي حاتم، وذكر فيه علة، وهى أن فى سنده الوليد بن مسلم، وهومدلس، وقد رواه عن شيخه بالعننة؛ فيكون فى الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم وأحمد من حديث ابن عباس حديثاً (١) قد يكون شاهداً له، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش، فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين. وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود؛ لكن يدل على أن له أصلاً أه.

### مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى (٢): حيث دل الحديث على بيان حال الملائكة وخوفهم من الله.

### مناسبة الحديث للتوحيد.

قال عبدالله بن جبار الله (٣): فيها تقرير التوحيد فإن الملك العظيم الذى تصعق الملائكة من كلامه خوفاً منه ومهابة وترجف منه المخلوقات هو الكامل فى ذاته وصفاته وملكه وغناه عن خلقه لايجوز أن يجعل له شريك فى عبادته.

قال القرعاوى (٤): حيث دل الحديث على أن الملائكة وهم من أعظم مخلوقات الله يخافون الله ويخشونه لذا فتكون عبادة غيرهم لهم باطلة وشركاً.

قوله: «عن النواس بن سمعان»

قال سليمان آل الشيخ (٥). قوله «عن النوس بن سمعان بكسر السين، أى : ابن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي، ويقال: إن أباه صحابي أيضاً. قال أبو حاتم الرازي: سكن الشام».

قوله: «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر»

قال ابن عثيمين (٦) أى بالشأن

قال سليمان آل الشيخ (٧): قوله : «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر»... إلخ هذا والله أعلم فى جميع الأمور التى يقضيها الرب تبارك وتعالى، كما يدل عليه عموم

(١) تقدم تخريجه

(٢) الجديد ١٥٣ .

(٣) الجامع الفريد ٧١

(٤) الجديد ١٥٣ (٥) تيسير العزيز الحميد ١٩٩

(٦) القول المفيد ٤٠٧/١ .

(٧) تيسير العزيز الحميد ١٩٩



اللفظ، ويدل على ذلك أيضاً حديث أبي هريرة الذى تقدم وغيره من الأحاديث المتقدمة.

قال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(١)</sup>: فيه النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي وهذا من حجة أهل السنة على النفاة لقولهم: لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله «تكلم بالوحي»

قال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: قوله: «تكلم بالوحي» جملة شرطية تقتضى تأخر المشروط عن الشرط؛ فالإدارة سابقة، والكلام لاحق؛ فيكون فيه ردّ على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلّى؛ كالسمع والبصر؛ ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا: إنه يتكلم بما شاء، كيف شاء، متى شاء، بل هذا صفة كمال، لكن النقص أن يُقال: إنه لا يتكلم بحرف وصوت، إنما الكلام معنى قائم بنفسه.

قوله: «أخذت السموات منه رجفة».

قال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٣)</sup> السموات: مفعول مقدم، والفاعل «رجفة» أى: أصاب السماوات من كلامه تعالى رجفة، أى: ارتجفت وهو صريح فى أنها تسمع كلامه تعالى، كما روى ابن ابي حاتم عن عكرمة قال «إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السماوات والأرض والجبال، وخرت الملائكة كلهم سُجّداً»<sup>(٤)</sup>.

قوله: «أو قال: رعدة شديدة».

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٥)</sup>. قوله: «أو قال رعدة شديدة» يعنى أن الراوى شك هل قال النبى ﷺ رجفة، أو قال: رعدة، وهو بفتح الراء بمعنى الأول.

قال ابن عثيمين<sup>(٦)</sup>: وإنما تأخذ السماوات الرجفة أو الرعدة؛ لأنه سبحانه عظيم يخافه كل شىء، حتى السماوات التى ليس فيها روح.

قوله «خوفاً من الله - عزّ وجل -».

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٧)</sup>. لا ينكر أن السماوات والأرض ترجف وترتعد خوفاً من

(١) فتح المجيد ٢٥٢ مؤنسة قرطبة.

(٢) القول المفيد ٤٠٧/١. (٣) فتح المجيد ٢٥٢ ط مؤسسة قرطبة.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم فى «تفسيره» (١٠ / ٣١٦٧ / ١٧٨٩٦) فأنظره بتخريجنا وذكره السيوطى فى

«الدر» (٥ / ٤٤٤) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٢٧) بتخريجنا

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٩٩ (٦) القول المفيد ٤٠٧/١ ١٨٢.

(٧) تيسير العزيز الحميد ١٩٩، ٢٠٠.

الله عزوجل ، فقد قال تعالى : ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤).

وفي «البخاري» عن ابن مسعود قال : [ولقد] كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل (٥).

وفي حديث (٦) أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان. هو حديث مشهور في «المسانيد» .

وكذلك في «الصحيح» (٧) قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر، ومثل هذا كثير.

قوله «فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرُّوا لله سجداً».

قال سليمان آل الشيخ (٨). أى يقع منهم الأمران الصعق وهو الغشى والسجود، والله أعلم أيهما قبل الآخر، فإن الواو لا تقتضى ترتيباً.

قال ابن عثيمين (٩) . فإن قيل : كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجداً؟

فالجواب: أن الصعق هنا - والله أعلم - يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله : فيكون أول من يرفع رأسه جبريل.

قال ابن عثيمين (١٠) أول بالنصب على أنها خير مقدم، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخرًا.

(١) الإسراء : ٤٤ .

(٢) مريم : ٩٠ .

(٣) البقرة : ٧٤ .

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٧٩) وأحمد فى «مسنده» (١ / ٤٦٠) من عن ابن مسعود وأنظر

«فتح المجيد» (٣٢٨) بتخريجنا

(٦) قال فى «المجمع» (٢٩٨/٨) : «رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات وفى بعضهم ضعف .

وأنظر «فتح المجيد» (٣٢٩) بتخريجنا

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٨٤) والترمذى فى «أبواب الصلاة»/ باب : ماجاء فى الخطبة على

المنبرت (٥ / ٣٧٩ / ٥٠٥) ابن عمر به

(٨) تيسير العزيز الحميد ٢٠٠ .

(٩) القول المفيد ٤٠٨/١ .

(١٠) القول المفيد ٤٠٨/١ .

قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>. قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل» معنى جبريل: عبدالله كما روى ابن جرير، وأبو الشيخ الأصبهاني عن علي بن حسين قال: اسم جبريل عبدالله، واسم ميكايل عبيد الله، وإسرافيل عبدالرحمن، وكل شيء راجع إلى إيل فهو معبد لله عزوجل.

وفيه دليل على فضيلة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ قال أبو صالح في قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قال: جبريل يدخل في سبعين حجاً من نور بغير إذن.

وقد ورد في صفة جبريل أحاديث صحيحة، منها.

ما رواه أحمد بإسناد صحيح عن عبدالله عن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت. والله به عليم<sup>(٣)</sup>.

قال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٤)</sup>: فإذا كان هذا عظم هذه المخلوقات فخالقها أعظم وأجل فيكف يسوى به غيره في العبادة: دعاءً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟

فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى وقد قال تعالى، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٠﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكِ نَجْزِيهِمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

قوله «فيكلمه الله من وحيه بما أراد».

قال ابن عثيمين<sup>(٦)</sup>. قوله: «بما أراد» أي: بما شاء لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) التكوير: ١٩، ٢٠.

(٣) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (١ / ٣٩٥، ٤٠٧) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

والحديث أصله في الصحيح أخرجه البخاري (٨ / ٤٧٦ / ح ٤٨٥٦)، ومسلم (٢ / ٥ / ح ١٧٤)

وانظر ابن أبي حاتم (ح ١٨٦٩٦) بتخريجنا و«فتح المجيد» (ح ٣٣٣) بتخريجنا.

(٤) فتح المجيد ٢٥٤، ٢٥٥ ط مؤسسة قرطبة.

(٥) الأنبياء: ٢٦-٢٩. (٦) القول المفيد ١/٤٠٨.

قوله: ﴿ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مرّ بسماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل﴾

قال ابن عثيمين (١). قوله «ثم يمر جبريل على الملائكة»

لأنه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي.

قال سليمان آل الشيخ قوله: (٢). «ثم يمر جبريل على الملائكة» إلى آخره. معناه ظاهر، فإذا كان هذا حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم ممن عبد من دون الله، وشدة خشيتهم من الله، وهيبتهم له مع ما أعطاهم الله من القوة العظيمة التي لا يعلمها إلا الله، ومع هذا فقد نفى عنهم الشفاعة بغير إذنه كما قال: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّن بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٣) وأخير أنهم لا يملكون كشف الضر عن دعاهم ولا تحويله. فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٤) وفي ضمن ذلك النهى عن دعائهم وعبادتهم الشفاعة أو غيرها، كما قال تعالى ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴿٥﴾ فكيف يدعوهم المشرك ويظن أنهم يشفعون له عند الله كما يشفع الوزراء عند الملوك، وإذا بطلت دعوتهم مع أنهم أحياء ناطقون مقربون عند الله، فدعاء غيرهم من الأموات الذين لا يستطيعون سماعاً ولا يملكون ضراً ولا نفعاً أولى بالبطان. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦) وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٧) أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴿٧﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٧).

قوله: فيقول جبريل: قال: الحق وهو العليُّ الكبير.

قال ابن عثيمين (٨). سبق في تفسير ذلك أنه يحتمل قال الحق في هذه القضية المعينة، أو قال الحق؛ لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق، وأياً كان؛ فإن

(١) القول المفيد ١/٤٠٨. (٢) تيسير العزيز الحميد ١/٢٠١.

(٣) النجم: ٢٦. (٤) الإسراء: ٥٦.

(٥) الزمر ٤٣/٤٤. (٦) الأعراف: ١٩٤.

(٧) النحل ٢٠/٢١/٢٢.

(٨) القول المفيد ١/٤٠٨، ٤٠٩.

جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحى الله إليه، بل يقول : قال الحق مبهماً، ولهذا سمي عليه السلام بالأمين، والأمين : هو الذي لا يبوخ بالسِر.

قوله : « وهو العلى الكبير ».

تقدم الكلام عليه .

قوله « فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ».

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup> : أى قال : الحق، وهو العلى الكبير .

قوله (فينتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله - عزوجل) - .

قال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup> . أى : يصل بالوحي إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل .

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٣)</sup> : قوله : ثم ينتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره

الله عزوجل . قد بيض المصنف رحمه الله بعد هذا، ولعله أراد أن يكتب تمام الحديث ومن رواه وتماه : « إلى حيث أمره الله عزوجل من السماء والأرض » .

ورواه ابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم والطبراني .

وفى الحديث من الفوائد إثبات الكلام خلافاً للجهمية، وإثبات الصوت خلافاً لهم

وللأشاعرة . أ.هـ .

قلت : وتقدم ذكر شيء من هذا عن الحافظ، فانظره فى هذا الباب

من فوائد الحديث .

قال ابن عثيمين<sup>(٤)</sup> .

● من فوائد الحديث .

١- إثبات الإرادة لقوله : « إذا أراد الله »، وهى قسمان : شرعية، وكونية .

والفرق بينهما أولاً : من حيث المتعلق؛ فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله -

عزوجل -، سواء وقع أو لم يقع، وأما الكونية؛ فتتعلق بما يقع، سواء كان مما يحبه الله أو مما لا يحبه .

ثانياً : الفرق بينهما من حيث الحكم، أى حصول المراد؛ فالشرعية لا يلزم منها وقوع

المراد، أما الكونية؛ فيلزم منها وقوع المراد .

(٢) القول المفيد ١/٤٠٩

(١) المصدر السابق .

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٠١، ٢٠٢

(٤) القول المفيد ١/٤٠٩، ٤١٢ .

فقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) هذه إرادة شرعية؛ لأنها لو كانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضاً متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة.

وقوله : ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ (٢) هذه كونية؛ لأن الله لا يريد الإغواء شرعاً، أما كوناً وقدراً؛ فقد يريده.

وقوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ (٣). هذه كونية، لكنها في الأصل شرعية؛ لأنه قال : ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ (٤).

وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٥) هذه شرعية؛ لأن قوله : ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ لا يمكن أن تكون كونية؛ إذ أن العسر يقع، ولو كان الله لا يريده قدراً وكوناً؛ لم يقع.

٢- أن المخلوقات وإن كانت جماداً تحس بعظمة الخالق، قال تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (٦).

٣- إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿ مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ ﴾؟ ويجابون : قال ﴿ الْحَقُّ ﴾، خلافاً لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

٤- إثبات تعدد السماوات؛ لقوله: «كلما مر بسماء»

٥- أن لكل سماء ملائكة مخصصين؛ لقوله «سأله ملائكتها».

٦- فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة ابن نوفل: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى» (٧)، والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السر.

٧- أمانة جبريل عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله - عزوجل - فيكون فيه رد على الراضة الكفرة الذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحي إلى علي فأوحي إلى محمد ﷺ، ويقولون : خان الأمين فصددها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب؛ لأنه كان يقول في غزوة خيبر: أنا الذي سمّنتي أمي حيدرة.

(٣) النساء : ٢٦

(٢) هود : ٣٤

(١) النساء : ٢٦

(٥) البقرة : ١٨٥

(٤) النساء : ٢٦

(٦) الإسراء : ٤٤

(٧) [صحيح] أخرجه البخاري (٣) عن عائشة به.

## فيه مسائل

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

وفى هذا تناقض منهم؛ لأن وصفه بالأمانة يقتضى عدم الخيان.

٨- إثبات العزة والجلال لله عزوجل؛ لقوله «عزوجل»، والعزة بمعنى الغلبة والقوة، وللعزيز ثلاثة معان:

١- عزيز: بمعنى ممتنع أن يناله أحد بسوء.

٢- عزيز: بمعنى ذى قدر لا يشاركه فيه أحد.

٣- عزيز: بمعنى غالب قاهر.

قال ابن القيم:

وهو العزيز فلن يرام جنابه  
وهو العزيز القاهر الغلاب لم  
أنى يرام جناب ذو السلطان  
يغلبه شىء هذه صفتان  
وهو العزيز بقوة هى وصفه  
فالعز حينئذ ثلاث معان

وأما جل: فالجلال بمعنى العظمة التى ليس فوقها عظمة.



فيه مسائل:

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>. قوله:

● الأولى: تفسير الآية.

أى: قوله تعالى ﴿حتى إذا فرغ عن قلوبهم...﴾ الآية، وقد سبق تفسيرها.

● الثانية: ما فيه من الحجة على إبطال الشرك.

وذلك أن الملائكة وهم من هم فى القوة والعظمة يصعقون ويفزعون من تعظيم الله؛

(١) القول المفيد ١/٤١٣، ٤٢١.

الثالثة: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

الرابعة: سَبَبُ سُؤْلِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (قَالَ: كَذَا وَكَذَا).

السادسة: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السابعة: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.

الثامنة: أَنَّ الْغَشْيَ يَعْمُ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ.

فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله وهي أقل منهم بكثير؛ فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

ولذلك قيل : إن هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب؛ لأن الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي؛ فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئاً مخلوقاً ربما يصنعه بيده حتى كان جهال العرب يصنعون آلهة من التمر إذا جاع أحدهم أكلها .

وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار: ثلاثة يجعلها تحت القدر، والرابع - وهو أحسنها - - يجعلها إلهاً له .

● الثالثة : تفسير قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

وسبق تفسيرها .

● الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك .

فالسؤال : ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفاً من أن يكون قد قال فيهم مالا يطيقونه من التعذيب .

● الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا؛ أي: يقول : قال الحق .

● السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل

لحديث النواس بن سمعان ، وفيه فضيلة جبريل .

● السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه .

وفى هذا دليل على عظمتهم بينهم .



التاسعة: ارتجافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللَّهِ.

العاشرة: أن جبريلَ هو الَّذِي يَتَّهِى بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ.

الحادية عشرة: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

الثانية عشرة: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الثالثة عشرة: إِرْسَالُ الشُّهُبِ.

قلت: وفيه دليل أيضا على أنهم جميعاً لا يعلمون ماذا قال الله تعالى يرغم قريهم منه بالنسبة إلى الجن والانس فقيه رد دافع على من يدعى علم الغيب من الجن والانس ومن أشركهم مع الله طلباً للغيب من بينهم.

● الثامنة: أن الغشى يعم أهل السماوات كلهم.

تؤخذ من قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات؛ صعقوا وخرروا لله سجداً».

● التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.

لقوله: «أخذت السماوات منه رجفة»؛ أى : لأجله تعظيماً لله.

● العاشرة: أن جبريل هو الذى يتتهى بالوحي إلى حيث أمره.

أى: لا أحد يتولى إيصال الوحي غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به؛ لأنه الأمين على الوحي.

● الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين

أى: الذين يسترقون ما يسمع فى السماوات، فيلقونه على الكهان فيزيد فيه الكهان ويتقصون.

● الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً.

وصفها سفيان - رحمه الله - بأن حرف يده وبدد بين أصابعه.

● الثالثة عشرة: إرسال الشهب.

يعنى : التى تحرق مسترقى السمع. قال تعالى: «إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ

مُبِينٌ» (١).

الرابعة عشرة: أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيهَا فِي أُذُنِ  
وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

الخامسة عشرة: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.

السادسة عشرة: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كَذِبَةٍ.

السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ  
السَّمَاءِ.

- 
- الرابعة عشرة: أَنَّهُ تَارَةً يَدْرِكُهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ  
قلت: ففيه حرصهم على الموت من أجل الباطل إلا تفعله من أجل الحق تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.
  - الخامسة عشرة: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.  
لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء؛ صار صادقاً قلت: أى ومع ذلك يحرم الذهب بغيركم وإذا كان ينمن فقد كفرو جمع بين محرمين وإذا ضم إلى ذلك التصديق له.
  - اعتراض وجوابه.  
كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟ والجواب: إن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي ﷺ  
أما الأمور القدرية التي يتكلم الله بها؛ فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقوا السمع.
  - السادسة عشرة: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كَذِبَةٍ.  
أى: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق.  
وقوله: «مئة كذبة» هذا على سبيل المبالغة كما سبق وليس على سبيل التحديد.
  - السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.  
وأما ما قاله من عنده؛ فهو تخرص؛ فالكلمة التي سمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب يمويه به على الناس.

الثامنة عشرة: " قَبُولُ النَّفُوسِ لِلْبَاطِلِ ! كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِثَّةٍ؟! "

التاسعة عشرة: كَوْنُهُمْ يَتَلَقَّى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

العشرون: إِبْتَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافاً لِلأَشْعَرِيَّةِ الْمُعْطَلَةِ.

● الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة؟!

وهذا صحيح ، وليس صفة عامة لعامة الناس ، بل لأهل الجهل والسفه ؛ فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة ، وأما مئة كذبة ؛ فلا يعتبرون بها ، ولا شك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد ، ولكن لا يغتر به أهل العقل والإيمان ، ولهذا لما نزل قوله تعالى ﴿ يَا لَوْلَاكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (١) .

تركهما كثير من الصحابة اعتباراً بالموازنة ، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة ؛ فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع قلت : هذا دأب السفهاء في كل عصر ومصر يغترون بالباطل فهم الذين قالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ الآية أما الذين أوتوا العلم فلم يغتروا بهذا الباطل المبهرج بل قالوا للسفهاء : ﴿ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ .

● التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها... إلخ .

الكلمة : هي الصدق ؛ لأنها هي التي تروج بضاعتهم ، ولو كانت بضاعتهم كلها كذباً ما راجت بين الناس

قلت : وإذا كان أهل الباطل حفظوا الحق واستدلوا به ليرجوا به باطلهم فمن باب أولى أهل الحق يكونوا للحق أحفظ .

● العشرون : إِبْتَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافاً لِلأَشْعَرِيَّةِ الْمُعْطَلَةِ

الأشعرية : هم الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري وسموا معطلة لأنهم يعطلون التصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه . والمراد تعطيل أكثر ذلك فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها ، بخلاف المعتزلة ؛ فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء ، هؤلاء عامتهم ، وإلا ؛ فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء ، وأما الأشاعرة ؛ فهم معطلة اعتباراً بالأكثر ؛ لأنهم لا يثبتون من الصفات إلا

## الحادية والعشرون: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

### الثانية والعشرون: أَنَّهُمْ يَخِرُونَ لِهَيْبَةِ اللَّهِ سُجَّدًا.

سبعاً، وصفاته تعالى لا تحصى، وإثباتهم لهذه السبع ليس كإثبات السلف؛ فمثلاً: الكلام عند أهل السنة: أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف. والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزوم الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئته، وهذا الذى يسمع عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، بل هو مخلوق؛ فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنه لا فرق بيننا وبين المعتزلة فى كلام الله؛ لأننا أجمعنا على أن ما بين دفتى المصحف مخلوق، وحجتهم فى إثبات الصفات السبع: أن العقل دل عليها.

وشبهتهم فى إنكار البقية: زعموا أن العقل لا يدل عليها.

والرد عليهم بما يلى:

١- أن كون العقل يدل على الصفات السبع لا يدل على انتفاء ما سواها؛ فإن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ فهب أن العقل لا يدل على بقية الصفات، لكن السمع دل عليها؛ فثبتها بالدليل السمعى.

٢- أنها ثابتة بالدليل العقلى بنظير ما أثبتتم هذه السبع؛ فمثلاً: الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن الله جعل الشمس شمساً والقمر قمراً والسماء سماءً والأرض أرضاً، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سبحانه وتعالى يريد؛ إذ لولا الإرادة لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لا تمضى لحظة على الخلق إلا وهم فى نعمة من الله؛ فهذه النعم العظيمة من الله تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم فى الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس؛ فالمؤلف رحمه الله لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات على خلاف فى إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا؛ فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق.

● الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشى خوفاً من الله - عزوجل.

فيدل على عظمة الخالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

● الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.

أى: تعظيماً لله واتقاءً لما يخشونه؛ فتنفيذ تعظيم الله - عزوجل - كالتى قبلها. أهـ



- محتويات الباب:-

- ١- مناسبة الباب لما قبله وماذا أراد المصنف بهذا الباب.
- ٢- شبه الشفاعة والجواب عليها.
- ٣- مدخل للباب.
- ٤- تعريف الشفاعة.
- الآية الأولى فى الباب ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مَن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الآية.
- ٥- مناسبة الآية للباب.
- ٦- مناسبة الآية للتوحيد.
- ٧- إعراب الآية.
- ٨- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.
- ٩- سبب نزول الآية.
- ١٠- ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد للآية.
- الآية الثانية فى الباب ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ الآية.
- ١١- مناسبة الآية للباب.
- ١٢- مناسبة الآية للتوحيد.
- ١٣- إعراب الآية.
- ١٤- ما جاء فى كلام المفسرين فى تفسيرها.
- ١٥- ما جاء من كلام الشراح لكتاب التوحيد فى الآية.
- ١٦- أقسام الشفاعة.
- أ - شفاعة الخالق للمخلوق.
- ب - مواطن شفاعة الله.
- ج - شفاعة كلام رب العالمين.
- ١٧- أنواع شفاعة المخلوقين للمخلوقين بإذن رب العالمين.

(أ) شفاعة الملائكة .

(ب) شفاعة النبيين .

(ج) شفاعة النبي ﷺ وهي قسمان :

- القسم الاول : شفاعة في الدنيا فيما يقدر عليه قدرأً وشرعاً .

- مواطن شفاعة الرسول ﷺ .

- القسم الثاني : شفاعة النبي ﷺ في الآخرة وهي أنواع :-

(أ) الشفاعة الكبرى .

(ب) شفاعته ﷺ لأهل الجنة في دخولها .

(ج) شفاعته ﷺ لقوم من العصاة من أمتة قد استوجبوا النار .

(د) شفاعته ﷺ في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم .

(هـ) شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم .

(و) شفاعته لأهل الكبائر .

(ز) شفاعته في بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه .

١٨- أسباب شفاعة الرسول ﷺ .

(أ) الدعاء له بالمقام المحمود بعد الأذان .

(ب) الصلاة عليه ﷺ ثم طلب الوسيلة له بعد الأذان .

(ج) سكنى المدينة والموت فيها .

(د) كثرة السجود .

١٩- عدم ثبوت الشفاعة لزائر قبر الرسول ﷺ .

٢٠- شفاعة المؤمنين وهي نوعان :-

(أ) في الدنيا فيما يقدر عليه المخلوق قدرأً وشرعاً وهو الدعاء للأموات والأحياء .

(ب) شفاعة في الآخرة فيما يأذن لهم الله عزوجل فيه .

● شفاعة المؤمنين الشهداء .

● الآية الثالثة في الباب ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ الآية .

٢١- مناسبة الآية للباب .

٢٢- مناسبة الآية للتوحيد .

- ٢٣- إعراب الآية .
- ٢٤- ما جاء فى كلام المفسرين فى الآية
- ٢٥ ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد .
- ٢٦- إشكال وجوابه .
- الآية الرابعة ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا... ﴾ الآية .
- ٢٧- مناسبة الآية للباب .
- ٢٨- مناسبة الآية للتوحيد .
- ٢٩- إعراب الآية .
- ٣٠- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين .
- ٣١- ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية .
- ٣٢- موانع الشفاعة .
- (أ) عدم الرضى عن الشافع .
- (ب) عدم الإذن له .
- ٣٣- موانع الشفاعة العامة .
- (أ) التكذيب بالشفاعة .
- (ب) عدم الإذن .
- ٣٤- الموانع الخاصة للشفاعة .
- (أ) ترك الأسباب الخاصة للشفاعة الخاصة .
- الآية الخامسة فى الباب ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ... ﴾ الآية .
- ٣٥- مناسبة الآية للباب .
- ٣٦- مناسبة الآية للتوحيد .
- ٣٧- إعراب الآية .
- ٣٨- ما جاء من كلام المفسرين للآية .
- ٣٩- كلام شيخ الإسلام فى الباب وحديث أبى هريرة من أسعد الناس بشفاعتك .
- ٤٠- الحكمة من الشفاعة .
- ٤١- مسائل الباب .



## باب: الشفاعة (١٦)

● مناسبة الباب لما قبله وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: لما كان المشركون في قديم الزمان وحديثه إنما وقعوا في الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة. كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾<sup>(٣)</sup> وكذلك قطع الله أطماع المشركين منها، وأخبر أنه شرك، نزه نفسه عنه، ونفى أن يكون للخلق من دونه ولى أو شفيع، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

أراد المصنف في هذا الباب إقامة الحجج على أن ذلك هو عين الشرك، وأن الشفاعة التي يظنها من دعا غير الله ليشفع له كما يشفع الوزير عند الملك منتفية دنيا وأخرى، وإنما الله هو الذى يأذن للشافع ابتداء، لا يشفع ابتداء كما يظنه أعداء الله اهـ.

قال حامد بن محمد<sup>(٥)</sup>: باب في بيان ما يدل على أن الشفاعة المطلقة لله جميعاً، وليس لأحد من خلقه أن يشفع لأحد إلا بإذنه، أى بإذن الشافع - فى شفاعته من رضى عليه - من الكتاب والسنة اهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٦)</sup>: باب الشفاعة: أى بيان ما أثبتته القرآن منها، وما نفاه وحقيقة ما دل القرآن على إثباته. اهـ.

قال ناصر السعدى<sup>(٧)</sup>: فالمقصود فى هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بأهتهم، وأنه ليس لها من الملك شىء لاستقلالها ولا مشاركة ولا معاونة ولا مظاهره، ولا من الشفاعة شىء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

وقد قال قبل هذا: إنما ذكر المصنف الشفاعة فى تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم: نحن ندعوهم، مع علمنا

- |                                 |                         |
|---------------------------------|-------------------------|
| (١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٢).  | (٢) يونس: (١٨).         |
| (٣) الزمر: (٣).                 | (٤) السجدة: (٤).        |
| (٥) فتح الله الحميد المجيد ٢٦٥. | (٦) فتح المجيد (١/٢٥٨). |
| (٧) القول السديد (٥٨/٥٥).       |                         |



أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث أن لهم عند الله جاهاً عظيماً ومقامات عالية ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده، كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم، وإدراك مآربهم.

وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه الله العظيم ملك الملوك الذى يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء فى تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم. فأبطل الله هذا الزعم.

وبين أن الشفاعة كلها له، كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده إلا بأذنه ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله ولا يرضى إلا توحيده، وإخلاص العمل له.

فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة.

وبين أن الشفاعة المثبتة التى تقع بإذنه إنما هى الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة، وأنها كلها منه، رحمة منه، وكرامة للشافع ورحمة منه وعفواً عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها فى الحقيقة، وهو الذى أذن لمحمد ﷺ فيها وأن له المقام المحمود، فهذا يدل عليه الكتاب والسنة فى تفصيل القول فى الشفاعة اهـ.

وقال عبدالله بن جار الله<sup>(١)</sup>: مناسبة هذا الباب للتوحيد: هى أن فيه رد على المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين، ويقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده اهـ.

وقال ابن باز<sup>(٢)</sup>: قد تكلم الناس فى الشفاعة، واضطربت أقوالهم فيها، وشذ المبتدعة بعقيدة باطلة، احتاج العلماء إلى الكلام فيها، ويخصونها بالكلام حتى يعرف المؤمن الحق ويعتقد الاعتقاد الصحيح فيها،

فباب الشفاعة: أى بيان الشفاعة المثبتة والمنفية، والحق والباطل فيها اهـ.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: ذكر المؤلف - رحمه الله - الشفاعة فى كتاب التوحيد، لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنهم شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيها بالدعاء والاستغاثة، وما أشبه ذلك.

وهم بذلك يظنون أنهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون له؛ لأنه عليم بكل شىء، وله الحكم التام المطلق، والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء.

(٢) التعليق المفيد (١٠٣).

(١) الجامع الفريد (٧٢).

(٣) القول المفيد (١/٤٢٢، ٤٢٣).

ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، فيقربونا إلى الله، وهم ضالون في ذلك، فهو سبحانه عليهم قدير وذو سلطان، ومن كان كذلك فإنه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم، فيتجأ عليهم الشفعاء فيشفعون بدون استئذان ولكن الله عزوجل كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يراد بها معاونة الله سبحانه وتعالى في شيء مما شفع فيه، فهذا ممتنع، ولكن يُقصد بها أمران هما:

(١) إكرام الشافع. (٢) نفع المشفوع له اهـ.

[قلت]: بوب المصنف هذا الباب حتى يغلق المصنف باباً من أبواب الشرك، أو سبباً من أسباب الشرك، أو سبباً من أسباب خروج الناس من عبادة الرحمن إلى عبادة الشيطان. فهم قد يخرجون بدعوى أن من يدعوهم من دون الله وسطاء قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١).

فاتخذوا أولياء من دون الله وزعموا أنهم ماعبدوهم، إنما اتخذوهم وسطاء ليقربوهم إلى الله عزوجل فنفى الله عزوجل ذلك عنهم، وبين أن هذا سبباً من أسباب البعد عن الله، وليس هذا سبباً من أسباب القرب من الله عزوجل.

وأيضاً ربما تعلقوا بالشريك لا من أجل أنه يقربهم كما تقدم، بل من أجل أنه ينفعهم أو يدفع عنهم الضر، فبين الله... أن هؤلاء لا يملكون دفع الضر عنهم ولا تحويلاً ولا جلب النفع ولو قليلاً وذلك في غير ما موضع من الآيات.

وزعموا أيضاً أنهم يعبدونهم من أجل البركة أو من أجل التبرك، أو من أجل التماس بعض البركة منهم، فنفى ذلك المصنف في باب «من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما، أو في الباب قبل ذلك «من علّق تميمة فلا أتم الله له».

وفيه نفى أن يكون هؤلاء الشركاء منهم بركة أو هم سبب من أسباب البركة، سواء كان هذا الشريك شجر أو حجر، أو أنس أو جن أو ملك.

● وأيضاً فى هذا الباب: (الشفاعة).

اتخذ الناس شركاء من دون الله لابقصد الشرك بزعمهم ولكن زعموا أنهم شفعاء لهم وقالوا «هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فعبدوهم مع أنهم ربما إعتقدوا أنهم لا ينفعونهم، ولا يضررونهم وزعموا أنهم ما عبودهم إلا لأنهم شفعاء لهم عندالله.

● فأراد المصنف فى باب الشفاعة أن يبين أن هذا سبب من أسباب حرمان الشفاعة، وليس سبب من أسباب الشفاعة، فالشفاعة لاتنال إلا كما قال الله عزوجل: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ يعنى بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾<sup>(١)</sup> فهم ذهبوا إلى الله عزوجل ليس لهم من دون الله ولى ولا شفيع. ولى: يعنى نصير أو معضد أو معين، ولا شفيع يشفع لهم من دون الله عزوجل فالله هو الولى لهم، والله هو المشفّع فيهم، والله هو الشفيع - سبحانه وتعالى - لهم.

● وأيضاً قال تعالى ينفى هذه الشفاعة المزعومة وينفى هذه الشفاعة الشركية فيقول: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾<sup>(٢)</sup> ليست للحسن ولا للحسين ولا للشركاء أياً كانوا إنس أم جن أو نبى أو ولى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ شفاعة مباشرة من الله عزوجل - بغير سبب من الأسباب من المخلوقين أذن لهم فى الشفاعة، وشفاعة من المخلوقين للمخلوقين بإذن من رب العالمين.

● وأيضاً قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾<sup>(٣)</sup>.

وهو استفهام للنفى والإنكار، أى من هذا الذى يشفع عند الله بدون إذن الله عزوجل تزعمون أن هؤلاء شفعاء، فإن كانوا شفعاء، فالله - عزوجل - لا بد أن يرضى عنهم ثم يأذن لهم، والله - عزوجل - لم يخبركم أنه رضى عنهم ولا أذن لهم ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾<sup>(٤)</sup> وهؤلاء ملائكة مقربون ومع ذلك لاتغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد إذن الله ورضاه عن الشافع والمشفع فيه.

● وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(٥)</sup>.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(٢) الزمر: ٤٤.

(١) الأنعام: ٥١.

(٥) سبأ: ٢٢.

(٤) النجم: ٢٦.

فهم إن أيقنوا أن الشركاء ليس لهم مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .  
فهم ادعوا قالوا «لعلهم يملكون» فنفى الله - عزوجل - أن يكون لهم ملك .  
فقالوا نعم ليس لهم ملك ولكنهم مشاركون، فنفى سبحانه وتعالى الشريك  
يقول «ومالهم فيهما من شرك» الآية .  
فقالوا لعلهم ليسوا بشركاء ولا بذوى أملاك لكن لعلهم معاونون أو مناصرون لله -  
عزوجل .

فنفى الله - عزوجل - ذلك بقوله : «وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ» من نصير ولا معاون .  
فقالوا: ليسوا شركاء ولا أصحاب أملاك ولا مناصرين لله - عزوجل . ولكن لعلهم  
شفعاء، كما أن الملك يكون له شريك في الملك - والله المثل الأعلى - أو أن يكون له  
معاون؛ فالشريك من حقه أن يتحكم فى الشريك الآخر فنفى . الله الشركة والمعاونة  
والظهير .  
فقالوا: لعلهم يشفعوا عنده لدلالهم عليه .

فقال الله تعالى مبيناً أن هذه الشفاعة تقدر فى ملك الملك لأنه فى الحقيقة من نقص  
الملوك أن يكون عندهم شفعاء، يشفعون بإذنه أو بغير إذنه، سواء هم معاونون له أو  
غير ذلك، فيجىء أدنى من هو فى المملكة ليزور ويُسْرِبْ أى شىء على الملك ويتعدى  
عليه ويفعل أى شىء من وراءه .

فتعالى الله - عزوجل - عن ذلك علواً كبيراً فلا قادح فى ربوبيته ولا شفيع إلا من  
بعد إذنه، وإلا لمن ارتضى حتى وإن كان مقرباً، حتى وإن كان نبياً، حتى وإن كان  
حبيباً إلى الله - عزوجل - فهؤلاء لا أحد منهم يشفع إلا بعد رضى الله عنه وبعد إذن  
الله - عزوجل - له .

فهم ظنوا أن ملك الله - عزوجل - كملك الناس، فظنوا أن هناك مدخل من باب  
الشفاعة فقطع المصنف عليهم بالأدلة القرآنية والنبوية هذا الباب وبين أن أسعد الناس  
بشفاعة النبى ﷺ هم الموحدون المخلصون فى توحيدهم، لا المشركون المبتعدون عن  
توحيد رب العالمين بهذا الشرك .

لذا فقد جوزوا بجزء من جنس عملهم، أتخذوا الشركاء بقصد الشفاعة فحرموا  
الشفاعة، فلذلك بَوَّبَ المصنف هذا الباب وأورد هذه الأدلة . والله أعلم .

● شبه الشفاعة والجواب عليها:

الأولى: فإن قلت: إذا كان من اتخذ شقيقاً عند الله إنما قصده تعظيم الرب تعالى وتقدس أن يتوصل إليه بالشفعاء؟ فلم كان هذا القدر شركاً؟!؟

الجواب: قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: قصده للتعظيم لا يدل على أن ذلك تعظيم لله تعالى، فكم من يقصد التعظيم لشخص ينقصه بتعظيمه، ولهذا قيل في المثل المشهور: (يضر الصديق الجاهل، ولا يضر العدو العاقل)، فإن اتخاذا الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية، وتنقص للعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾<sup>(٢)</sup> الآية، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيد، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه نداً، أو شقيقاً يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته، ويدعوه ويذبح له، وينذر، وهذه هى التسوية التى أثبتتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا وهم فى النار أنها كانت باطلاً وضلالاً، فيقولون وهم فى النار ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٣)</sup> إذ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(٤)</sup> ومعلوم أنهم ما ساووهم به فى الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا إن الهتكم خلقت السموات والأرض، وأنها تحمى وتميت، وإنما ساووهم به فى المحبة والتعظيم والعبادة، كما نرى ما عليه أهل الإشراك ممن يتسبب إلى الإسلام، وإنما كان ذلك هضماً لحق الربوبية، وتنقيصاً لعظمة الألوهية، وسوء ظن برب العالمين، لأن المتخذ للشفعاء والأنداد، إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غنى عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدره الشفيع، وإما أن يظن أن لا يعلم حتى يعلمه الشفيع، أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم، أو لا يكفى وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده، كما يشفع عند المخلوق أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه، كما هو حال ملوك الدنيا.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) الشعراء : ٩٨، ٩٧

(٣) الفتح : ٦

وهذا أصل شرك الخلق، أو يظن أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك أو يظن أن للشفيع عليه حقاً فهو يقسم عليه بحقه، ويتوسل إليه بذلك الشفيع، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولا تمكنهم مخالفتهم، وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها. ذكر معناه ابن القيم فلهذه الأمور وغيرها أخير سبحانه وتعالى أن ذلك شرك، ونزه نفسه عنه، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أهـ.

الثانية: فإن قلت: إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء، أما من دعاهم للشفاعة فقط، فهو لم يعبدهم، فلا يكون ذلك شركاً.

الجواب: قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الشرك ملزوم لتفويض الرب سبحانه وتعالى، والتفويض لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله، ولا وجود له فى الخارج. وإنما هو شيء قدره المشركون فى أذهانهم، فإن الدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة، فإذا دعاهم للشفاعة فقد عبدتهم، وأشرك فى عبادة الله شاء أم أبى أهـ.

\* مدخل للباب يعرض موجز لما تضمنته:

قال الفقير وسنعرض إن شاء الله فى هذا الباب معنى الشفاعة فى اللغة، والاصطلاح.

وتفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ ثم أكر على أقسام الشفاعة، لأن العلماء قالوا فى تفسير قول الله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أفادت أن الشفاعة أقسام وأنواع.

فالشفاعة تنقسم من حيث الشافع إلى قسمين.

أولاً: شفاعة لرب العالمين خالصة بغير سبب من المخلوقين أذن لهم فى الشفاعة.

وتنقسم هذه الشفاعة إلى شفاعة الله وشفاعة لكلام الله - عز وجل - القرآن.

ثانياً: شفاعة المخلوقين فى المخلوقين بإذن رب العالمين - وتنقسم إلى أربعة أقسام:

(١) شفاعة الملائكة.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٣).

(٢) شفاعة النبيين.

(٣) شفاعة النبي ﷺ وهي تنقسم أيضاً إلى ستة أقسام:

- ١- شفاعته لأهل الموقف من أمته ومن غيرهم (الشفاعة العظمى).
- ٢- شفاعته لقوم قد وجبت لهم النار ببعض ذنوبهم من الموحدنين، فشفع لهم في ألا يدخلوها.
- ٣- والشفاعة الثالثة لأقوام من أمته دخلوا النار فيخرجون بفضل الله وبشفاعة النبي ﷺ.
- ٤- دخول الجنة لأهل الجنة، فهم يقفون على بابها حتى يشفع لهم الرسول ﷺ في دخولها فيدخلوها.

٥- في قوم دخلوا الجنة فيشفع لهم الرسول ﷺ في رفع درجاتهم في الجنة.

٦- شفاعته في بعض أهله من الكفار أن يخفف عنهم العذاب وهي خاصة بالنبي ﷺ وبعمه أبي طالب فقط، وأصل الحديث ثابت في الصحيح أنه يوضع في ضحضاح من نار تغلى منه دماغه.

كما تنقسم شفاعة النبي ﷺ من وجه آخر إلى قسمين:

١- شفاعة في الدنيا فيما يستطيعه قدرأً وشرعاً وفيه حديث الرجل الأعمى الذي سأل النبي ﷺ أن يرد عليه بصره فدعى له ﷺ بعد أن أمره أن يتوضأً ويصلي ركعتين ويسأل الله أن يشفع الرسول ﷺ، فيه وأن يقبل دعوة الرسول فيه، وهذه شفاعة فيما يستطيعه قدرأً وشرعاً وهو حى في الدنيا.

٢- والشفاعة في الآخرة وهي التي تنقسم إلى الستة أقسام السابقة.

(٤) شفاعة المؤمنين وهي تنقسم إلى قسمين:

١- شفاعة في الدنيا فيما يقدر عليه المؤمن وهو حى قدرأً وشرعاً، كما في قوله ﷺ الثابت في الصحيح «اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء» (١)، وهذه شفاعة إما في جلب منفعة أو في دفع مضرة، كما تسأل المشفع التجاوز عن الجرائم وجلب المنافع، وأيضاً من شفاعتهم قدرأً وشرعاً أن يصلوا على المتوفى، وثبت أيضاً عن نبينا ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يموت فيصلى عليه أمة من الناس يبلغون مئة فيشفعون فيه إلا شفّعهم الله فيه يوم القيامة» (٢) فهذه الشفاعة أصلها في الدنيا تنفعه يوم القيامة.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٣٢)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٧ - النووى) عن أبى

موسى به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٤٨ - بتخریجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز (٧/١٧ - النووى) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٣٤ - بتخریجنا).

وأيضاً فى رواية «يلغون أربعين، فيشفعون فيه إلا شفعم الله - عزوجل - فيه» (١).

٢- شفاعة المؤمنين فى الآخرة وفيه أحاديث فى الصحيحين وفى غيرهما.

أن المؤمنين حينما يمرون بالصراط المستقيم فيسقط من يسقط منهم فى النار - ثم يدخل من دخل منهم الجنة برحمة الله وفضله فليس هناك أحد أشد دفاعاً عن المؤمنين الذين وقعوا فى النار برحمة من إخوانهم المؤمنين الذين دخلوا فى الجنة فيقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، فيأمر الله - عزوجل - الملائكة فتزل تخرجهم من النار تعرفهم بأثار الصلاة وأثار الوضوء، فإن النار تأكل كل شىء من ابن آدم إلا مواضع الصلاة.

وفى ذلك أحاديث كثيرة ستأتى بإذن الله.

ثم بعد ذلك تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ (٢). ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾. يذكر فى تفسير هاتين الآيتين أيضاً أسباب الشفاعة وموانع الشفاعة. فمن أسباب الشفاعة:

- التوحيد كما فى حديث أبى هريرة من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله قال «ما ظننت أن يسألنى أحد عن هذا السؤال غيرك لعلمى بحرصك على الحديث» (٣).

وقد استنبطنا فى أول شرح كتاب التوحيد من هذا الحديث ما استظهره واستنبطه ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله» أن النبى ﷺ سُمى العلم عند الإطلاق علم الدين وخص بالعلم عند الإطلاق علم العقيدة. وذكر فى الحديث أن «أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه» (٤).

وهذا الشرط للشفاعة الخاصة، وأما الشفاعة العامة وهى شفاعة الرسول ﷺ لأنصراف أهل الموقف من الموقف فلا يشترط له هذا الشرط.

أما باقى أنواع الشفاعة المتقدمة فيشترط لها - التوحيد - وعلي ذلك أدلة كثيرة ؟ تكاد تكون متواترة كما قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الآية.

فوحده الله عزو جل ذكر الولى والشفيع.

(١) أخرجه مسلم فى الجناز (٧/١٨- النوى) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٣٥- بتخريننا).

(٢) الأنعام: ٥١

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٩٩) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٣٦) بتخريننا.

(٤) ما قبله



وأيضاً فى تفسير الخشية يذكر ما ثبت فى كتاب السنة لابن أبى عاصم من حديث أنس مرفوعاً يقول الله تبارك وتعالى: «أخرجوا من النار من ذكرنى أو خافنى فى مقام»<sup>(١)</sup>. «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ»<sup>(٢)</sup>.

ولقوله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصة من قلبه».

هناك شروط أخرى للشفاعة العامة التى تعم جميع الشفعاء وجميع المشفع فيهم<sup>(٣)</sup>.

- ألا يكذب بالشفاعة فمن كذب بالشفاعة حرم الشفاعة كما سيأتينا الأثر عزاه ابن حجر فى الفتح لسعيد ابن منصور - وصححه وعزاه الشيخ مقبل فى كتاب بالشفاعة لغيره وأعتمد تصحيح الحافظ.

ولذلك من المناسب أن نقول أن الله - عزوجل - لا يأذن بالشفاعة إلا لشافع موحد أو مشفع فيه موحد، وأيضاً لا يأذن إلا لشافع يؤمن بالشفاعة ولمشفع فيه يؤمن بالشفاعة.

فقد يسأل سائل هل هناك من لا يؤمن بالشفاعة؟

الجواب: نعم كالخوارج والمعتزلة، ينكرون أحاديث الشفاعة ويقولون أن صاحب الكبيرة مخلد فى النار ولا يعترفون أن النبى ﷺ له شفاعة يخرج بسببها من كان فى النار من أهل القبلة من أصحاب الكبائر كما سيأتينا متواتراً أو يكاد أن يبلغ حد التواتر كما نقل ذلك من كتاب السنة لابن أبى عاصم، بل وفى الصحيح.

ومن الشروط:

(١) - الرضى: فقد يكون موحد له بعض الأفعال أو الأقوال التى لا يرضى عنها الله، كما تقدم معنا فى صحيح مسلم «إن اللعانين لا يكونوا شفعاء ولا شهداء»<sup>(٤)</sup> فهو موحد ولكنه قال قولاً أو فعلاً لا يرضى الله - عزوجل - عنه، فيحرم الشفاعة، لا يكون شافعاً وقد لا يكون مشفع فيه، أو لا يكون له شفاعات خاصة، وإن كان يكون له بعض الشفاعة إن أذن الله للشفاعة فيه.

ومن الشروط:

(٢) - الإذن

(١) السنة لابن أبى عاصم ح ٨٣٣ والترمذى والحاكم وصححه وحسنه الألبانى بالشواهد والمتابعات.

(٢) الأنبياء: ٢٨.

(٣) تقدم قريباً

(٤) سيأتى تخريجه.

وقد يسأل سائل، هل من الممكن أن يوجد موحد والله راضٍ عنه ولا يأذن له؟  
الإجابة: نعم لأنه قد لا يطلب الشفاعة أصلاً، والصحابة رضى الله عنهم جميعاً،  
ولكن لم يشبث أنهم جميعاً شفعاء، لكن قد يكون فيهم الشفيح وفيهم الذى يشفع  
وفيهم الذى لا يشفع، فإما لا يشفع لأنه لم يؤذن له، أو إما لم يشفع لأنه لم يقدم على  
الشفاعة أصلاً فيؤذن له.

- ومن هذه الشروط .

الصلاة فالنار تأكل كلَّ شيء من ابن آدم إلا مواضع السجود وهناك شفاعات خاصة  
لنيل درجات خاصة ولنيل كرامات خاصة، لا تكون إلا لأعمال خاصة، لكن لا بد لها  
من هذه الشروط العامة.

الشفاعات الخاصة:-

شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة فى الدخول أو فى رفع الدرجات.

وهذه لا تكون إلا بأسبابها وهى أعمال خاصة.

١- كالشهيد يؤذن له بالشفاعة فى سبعين من أهل بيته.

٢- وسورة تبارك تشفع لصاحبها.

٣- الصلاة على النبي ﷺ وطلب الوسيلة كما ثبت فى صحيح البخارى من حديث  
جابر مرفوعاً: «من قال حين يسمع النداء. اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة  
آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم  
القيامة» (١)....».

٤- كثرة السجود.

كما سيأتينا فى الرجل الذى سأل النبي ﷺ مرافقته فى الجنة، قال لانسألنى غير ذلك  
أو قال «أو غير ذلك»؟! قال: لا غير ذلك، قال: إذا فأعنى على نفسك بكثرة السجود.

فالعامل المتميز لنيل درجة من الشفاعة متميزة.

٦- سكنى المدينة.

كما فى صحيح مسلم من حديث ابن عمر «أن من سكن المدينة وصبر على لأوائها -  
شدتها - كنت له شفيحاً يوم القيامة» (٢).

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢/١١٢/٦١٤).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٥/١٦٢/٤٨١).

وهذه أيضاً شفاعاة إما عامة وإما خاصة لساكنى المدينة .

وكما أن هناك أسباب فهناك موانع :

١- الشرك .

٢- أو عدم رضى الله عن فعل أو قول للشافع .

٣- أو عدم الإذن للشافع لسبب أو بغير سبب .

فذلك فضل الله - عزوجل - يؤتسه من يشاء . كما سيأتينا أن من حَكَم الشفاعاة التفضل على المشفع فيه ، وإظهار كرامة الشافع . وهذا آوان الشروع فى الموضوع

● تعريف الشفاعاة:

الشفاعاة فى اللغة:

قال ابن الأثير فى النهاية: قد تكرر ذكر الشفاعاة فى الحديث فيما يتعلق بأمرى الدنيا والآخرة ، وهى السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم ، يقال : شفع يشفع شفاعاة فهو شافع وشفيع ، والمشفَعُ: الذى يقبل الشفاعاة ، والمشفَعُ: الذى تقبل شفاعته أهـ .

وفى القاموس وتاج العروس: والشفيع: صاحب الشفاعاة . والجمع شفعاء: وهو الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب .

وفيهما أيضاً: وشفعته فيه تشفيعاً حين شفع كمنع شفاعاة أى قبلت شفاعته كما فى «العباب» ، قال حاتم يخاطب النعمان:

فككت عديا كلها من إسارها فأفضل وشفعنى بقبس بن جحدر

وفى حديث الحدود: «إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفَعُ»<sup>(١)</sup> .

وفى حديث ابن مسعود: «القرآن شافع مشفع، وما حلَّ مصدَّق»<sup>(٢)</sup> . أى من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع مقبول الشفاعاة من العفو عن فرطاته ، ومن ترك العمل به تم على إساءته ، وصدق عليه فيما يرفع من مساويه ، فالمشفَعُ ، الذى يقبل الشفاعاة ، والمشفَعُ الذى تقبل شفاعته ، ومنه حديث: «اشفع تشفع» واستشفعه إلى فلان: أى سأل أن يشفع له إليه .

(١) سيأتى

(٢) سيأتى

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١).

والمعاني الشرعية موافقة للمعان اللغوية فمن الشفعاء من يشفع ابتداءً. ومنهم من يشفع بعد الطلب، كما سيأتى إن شاء الله بيانه فى الأحاديث (٢). اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر. قال تعالى: ﴿وَالشَّفَعُ وَالْوَتْرُ﴾.

واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبى ﷺ لأهل الجنة يدخلوها.

ومثال دفع المضرة: شفاعة النبى ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.



قوله: وقول الله عزوجل: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ...﴾ الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ (٤): الآية دليل على نفى إتخاذ الشفعاء من المؤمنين، وعلى نفيها بغير إذن الله، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع كما قال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وليس فى الآية دليل على نفى الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المعتزلة اهـ.

وقال عبدالله بن جار الله (٥): دلت على أن المؤمنين الذين أخلصوا نيتهم، وعملوا لله، وتركوا التعلق على الأولياء والشفعاء اهـ.

وقال القرعاوى (٦): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة التى لم تتوافر شروطها أهـ.

(١) الأنعام: ٥١

(٢) الشفاعة ص ٦ و ٧ و ٨ للشيخ مقبل.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٣٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٠٤) بتقديم وتأخير.

(٥) الجامع الفريد (٧٤).

(٦) الجديد (١٥٥).

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى: حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن المخلوق استقلالاً فيكون طلبها. من المخلوق شركاً أكبر ومن ذلك طلبها من الأوثان التي زعموا أنهم يعبدونها للشفاعة اهـ.

● الإعراب (١):

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الواو عاطفة والكلام معطوف على ما تقدم معدولاً به إلى توجيه الإنذار للذين يتفرس فيهم قبول الاتعاض والإستعداد لتقبله، وهم المؤمنون العاصون، وأنذر فعل أمر، وبه جار ومجرور متعلقان بأنذر والذين اسم موصول مفعول به وجملة يخافون صلة الموصول، وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول يخافون ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وُلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الجملة حال من الضمير في أن يحشروا، أى: أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولى لهم يواليهم ولا نصير ولا شفيع يشفع لهم من دون الله، وليس فعل ماض ناقص ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وولى اسم ليس، ولا شفيع عطف على ولى، ولعل واسمها وجملة يتقون خبرها، وجملة الرجاء حالية.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾: أى بالقرآن. كما سيأتى بيان ذلك.

كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾. وقوله: ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾.

سبب نزول الآية:

عن عبد الله بن مسعود قال: «مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك من الله عليهم من بيننا، أو نحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل فيهم القرآن ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢) اهـ.

(١) إعراب القرآن الكريم (٣/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢٤/٣) ونسبه لأحمد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، والطبرانى،

وأبى الشيخ، وابن مردويه، وأبى نعيم فى «الحلية».

وأنظر «فتح القدير» وتفسير ابن حاتم بتخريجنا

قال ابن جرير (١): هذا أمر من الله تعالى لنبية محمد ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل الله إليه من وحيه وتذكيرهم بالإقبال عليهم بالإنذار، وصدّه عن المشركين به بعد الإعذار إليهم، وبعد إقامة الحجة عليهم حتى يكون الله هو الحاكم فى أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم أهـ.

- قال ابن جرير (٢): يقول تعالى ذكره لنبية ﷺ: وأنذر يا محمد بالقرآن الذى أنزلناه إليك أهـ.

- وقال البغوى (٣): قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ خوف به، أى بالقرآن أهـ.

- وقال الزمخشرى (٤): ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الضمير راجع إلى ما يوحى إلى أهـ.

- وقال ابن الجوزى (٥): ﴿بِهِ﴾ قال الزجاج بالقرآن أهـ.

- قال الفخر الرازى (٦): الإنذار؛ الإعلام بموضع المخافة، وقوله ﴿بِهِ﴾ قال ابن عباس والزجاج بالقرآن، والدليل عليه قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ﴾ إلى.

وقال الضحاك: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أى بالله، والأول أولى؛ لأن الإنذار يقع بالقول وبالكلام لابذات الله تعالى أهـ.

- قال القرطبى (٧) بنحو كلام الرازى وزاد: وقيل: ﴿بِهِ﴾ باليوم الآخر أهـ.

- وقال ابن كثير (٨) بنحو كلام المفسرين السابق.

- وقال السعدى (٩): هذا القرآن نذارة للخلق كلهم أهـ.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مَشْفِقُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

قال ابن جرير (١٠): القوم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علماً منهم بأن

(٢) تفسير الطبرى (١٢٧/٧/٥)

(٤) الكشاف (١٦/٢)

(٦) التفسير الكبير (٢٤٤/١٢/٦)

(٨) ابن كثير (١٢٨/٢)

(١٠) تفسير الطبرى (١٢٧/٧/٥)

(١) تفسير ابن جرير (١٢٧/٧/٥)

(٣) معالم التنزيل (٣٦١/٢)

(٥) زاد المسير (٣٥/٣)

(٧) تفسير القرطبى (٢٤٢٨/٤)

(٩) تفسير الكرىم الرحمن (٢٥/٢)

ذلك كائن، فهم مصلقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضى الله، دائمون فى السعى فيما ينقذهم فى معادهم من عذاب الله ثم قال: وقيل ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ومعناه يعلمون أنهم محشرون، فوضعت المخافة موضع العلم؛ لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم فى ذلك اهـ.

- وقال البغوى<sup>(١)</sup>: ﴿يُحْشَرُوا﴾ يجمعوا ويعثوا قوله تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقيل ﴿يَخَافُونَ﴾ يعلمون؛ لأن خوفهم إنما كان من علمهم اهـ.

- وقال الزمخشرى<sup>(٢)</sup>: إما قوم داخلون فى الإسلام مقررون بالبعث، إلا أنهم مفرطون فى العمل فينذرهم بما يوحى إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى يدخلون فى زمرة المتقين من المتعلمين، وإما أهل الكتاب؛ لأنهم مقررون بالبعث. وإما ناس من المشركين، علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الأنداز دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء اهـ.

- وقال ابن الجوزى<sup>(٣)</sup>: وإنما ذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم، وإن كان منذر لجميع الخلق لأن الحججة على الخائفين الحشر أظهر؛ لاعترافهم بالمعاد، فهم أحد رجلين:-

إما مسلم فينذر ليؤدى حق الله عليه فى إسلامه.

وإما كتابى، فأهل الكتاب مجمعون على البعث اهـ.

- وقال الفخر الرازى<sup>(٤)</sup> بتفصيل أوضح وأظهر لهذه الأقوال حيث قال:

ففيه أقوال: [الأول] أنهم الكافرون الذين تقدم ذكرهم، وذلك أنه ﷺ كان يخوفهم من عذاب الآخرة، وقد كان بعضهم يتأثر من ذلك التخويف، ويقع فى قلبه أنه ربما كان الذى يقول محمد حقاً، فثبت أن هذا الكلام لائق بهؤلاء، لايجوز حمله على المؤمنين؛ لأن المؤمنين يعلمون أنهم يحشروا إلى ربهم، والعلم خلاف الخوف والظن (ولقائل أن يقول): أنه لايمتنع أن يدخل فيه المؤمنون؛ لأنهم وإن تيقنوا الحشر، فلم يتيقنوا العذاب الذى يخاف منه، لتجويزهم أن يموت أحدهم على الإيمان والعمل الصالح، وتجويز ألا

(١) معالم التنزيل (٢/٣٦١).

(٢) الكشاف (٢/١٦).

(٣) التفسير الكبير (٦/١٢/٢٤٤).

(٤) زاد المسير (٣/٣٥).

يموت على هذه الحالة، فلهذا السبب كانوا خائفين من الحشر؛ بسبب أنهم كانوا مجوزين لحصول العذاب وخائفين منه.

[القول الثاني]: أن المراد منه المؤمنون؛ لأنهم هم الذين يقرون بصحة الحشر والنشر والبعث والقيامة، فهم الذين يخافون من عذاب ذلك اليوم.

[والقول الثالث]: أنه يتناول الكل؛ لأنه لا عاقل إلا وهو يخاف الحشر سواء قطع بحصوله أو كان شاكاً فيه؛ لأنه بالاتفاق غير معلوم البطلان بالضرورة، فكان هذا الخوف قائماً في حق الكل، ولأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، وكان مأموراً بالتبليغ إلى الكل اهـ.

وقال القرطبي<sup>(١)</sup> بنحو كلام المفسرين السابق وزاد:

﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ يتوقعون عذاب الحشر. وقيل ﴿يَخَافُونَ﴾ يعلمون، فإن كان مسلماً أندر لترك المعاصي، وإن كان من أهل الكتاب أندر ليتبع الحق اهـ.  
وقال: الأول أظهر: أي المؤمنون.

- قال الشوكاني<sup>(٢)</sup>: يشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين، وقيل: معنى الخوف على حقيقته.

والمعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبي ﷺ أن يذكره، وإن لم يكن مصداقاً به في الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبي ﷺ فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع. اهـ.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

- قال ابن جرير<sup>(٣)</sup>: قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ أي ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم ولي ينصرهم فيستنقذهم منه. ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم عند الله تعالى فيخلصهم من عقابه اهـ.

- وقال البغوي<sup>(٤)</sup>: قوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ قريب ينفعهم، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم ثم قال وإنما نفى الشفاعة لغيره مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون؛ لأنهم لا يشفعون إلا بإذنه اهـ.

(٢) فتح القدير (٢/١٢٣، ١٢٤).

(٤) معالم التنزيل (٢/٣٦١).

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٤٢٨).

(٣) تفسير الضحري (٥/١٢٧).



- وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من يحشروا، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين، ولا مشفوعاً لهم، ولا بد من هذه الحال؛ لأن كلاً محشور فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال اهـ.

- وقال ابن الجوزي<sup>(٢)</sup>: وذكر الولي والشفيع؛ لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم سبحانه وتعالى أن أهل الكفر ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع. وقال غيره - أي الزجاج صاحب القول السابق - : ليس لهم من دونه ولي، أي: ليس لهم غير الله ولي ولا شفيع؛ لأن شفاعَةَ الشافعين بأمره اهـ.

- وقال الفخر الرازي<sup>(٣)</sup>: قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قال الزجاج موضع (ليس) نصب على الحال، كأنه قيل: متخلين من ولي ولا شفيع، والعامِل فيه (يخافون)، ثم ههنا بحث: وذلك لأنه إن كان المراد من ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الكفار، فالكلام ظاهر؛ لأنهم ليس لهم عند الله، وذلك لأن اليهود والنصارى كانوا يقولون (نحن أبناء الله وأحباؤه) والله كذبهم فيه، وذكر أيضاً في آية أخرى، فقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وقال أيضاً ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وإن كان المراد المسلمين، فنقول: قوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لا ينافي مذهبنا في إثبات الشفاعة للمؤمنين؛ لأن شفاعَةَ الملائكة والرسل للمؤمنين، وإنما تكون بإذن الله تعالى لقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فلما كانت تلك الشفاعة بإذن الله، كانت في الحقيقة من الله تعالى اهـ.

- وقال القرطبي<sup>(٤)</sup>: ﴿شَفِيعٌ﴾ هذا رد على اليهود والنصارى في زعمهم أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا (نحن أبناء الله وأحباؤه) والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار، ومن قال الآية في المؤمنين قال: شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله، فهو الشفيع حقيقة إذن، وفي التنزيل ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ اهـ.

(١) الكشاف (١٦/٢).

(٢) زاد المسير (٣٥/٣).

(٣) التفسير الكبير (٦/١٢/٢٤٥).

(٤) تفسير القرطبي (٤/٢٤٢٨).

- وقال ابن كثير (١): قوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أى يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى قريب لهم، ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراد بهم أهـ.

- وقال الشوكاني (٢) بنحو مما تقدم من أقول المفسرين.

- وقال السعدى (٣): قوله ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ ولا من يشفع لهم؛ لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء أهـ.

- وقال فى حاشية الزمخشري:

وليس كل خائف من البعث لا شفيع له فإن الموحدین أجمعين خائفون وهم مشفوع لهم، وإن عني باللازمة التي لا ينفك ذو الحال عنها كالتى فى قوله وهو الحق مصداقاً فإنما هو حيثنذ يبنى على قاعدته فى إنكار الشفاعة فكل خائف عنده لا شفيع له إذ لا يخاف إلا أصحاب الكبائر غير التائبين: أو الكفار والكل عنده سواء لا شفيع لهم وحيث أثبتت الشفاعة جعلها خاصة بزيادة الثواب فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه فهذا عنده لا يخاف من البعث لأنه يستوجب الجنة فمن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان: غير خائف فلا تناوله الآية، وخائف: فذاك إنما خاف لأنه استوجب العقاب فلا شفاعة تناله وهذه من دفائنه الخفية ومكامنه المزوية فتفطن لها والله الموفق برحمته أهـ.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أخرج ابن أبى حاتم (٤) بسنده عن الضحاك: لعلمهم يتقون النار بالصلوات الخمس.

وبسنده أيضاً عن مجاهد: لعلمهم يطيعون أهـ.

قال ابن جرير (٥): يقول: أُنذِرهم كى يتقوا الله فى أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سخطه باجتتاب معاصيه أهـ.

- وقال البغوى (٦): ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيتهون عما نهوا عنه أهـ.

- وقال الزمخشري (٧): ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بانذارهم ليتقوا، ثم

(٢) فتح القدير (١٢٤/٢)

(١) تفسير ابن كثير (١٢٨/٢).

(٣) تفسير الكريم الرحمن (٢٦/٢).

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١٢٩٧/٤) ح ٧٣٢٩، (٧٣٣٠).

(٦) معالم التنزيل (٣٦١/٢).

(٥) تفسير ابن جرير (١٢٧/٧/٥).

(٧) الكشاف (١٦/٢).

أردفهم ذكر المتقين منهم، وأمرهم بتقريبهم، وإكرامهم، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته، ويواظبون عليها اهـ.  
- وقال الفخر الرازى<sup>(١)</sup>: قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه وأنذرهم لكي يخافوا فى الدنيا ويتهوا عن الكفر والمعاصى.

قالت المعتزلة: وهذا يدل على أنه تعالى أراد من الكفار التقوى والطاعة اهـ.  
- وقال القرطبى<sup>(٢)</sup>: قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى فى المستقبل، وهو الثبات على الإيمان اهـ.

- وقال ابن كثير<sup>(٣)</sup>: قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون فى هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به جزيلاً من ثوابه اهـ.  
- وقال السعدى<sup>(٤)</sup>: قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك وسيبه من أسبابه اهـ.



#### ● كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٥)</sup>: الإنذار: هو الإعلام بموضع المخافة. وقوله: ﴿بِهِ﴾ قال ابن عباس: بالقرآن. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى أنذر يا محمد بالقرآن ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ وهم المؤمنون كما روى ذلك عن ابن عباس والسدى.  
وعن الفضيل بن عياض: ليس كل خلقه عاتب إنما عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية، فإنهم المقصودون والمنظور إليهم لا أصحاب التجمل والسيادة فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم وقوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

(٢) تفسير القرطبى (٤/٢٤٢٨).

(١) التفسير الكبير (٦/١٢/٢٤٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/١٢٨، ١٢٩).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٤/٢٠٤).

قال الزجاج: موضع ليس نصب على الحال كأنه قال: متخلين من ولى وشفيع  
والعامل فيه يخافون.

وقال ابن كثير: ليس لهم من دونه يومئذ ولى ولا شفيع من عذابه إن أرادهم به  
لعلهم يتقون، فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذابه يوم القيامة  
قلت: فنفي سبحانه وتعالى عن المؤمنين أن يكون لهم ولى أو شفيع من دون الله  
كما هو دين المشركين. فمن اتخذ من دون الله شفيعاً فليس من المؤمنين ولا تحصل له  
الشفاعة وليس فى الآية دليل على نفي الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المعتزلة  
بل فيها دليل على نفي اتخاذ الشفعاء من المؤمنين، وعلى نفيها بغير إذن الله ولهذا أثبت  
الشفاعة بإذنه فى مواضع كما قال تعالى ﴿وَمَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ  
فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ اهـ.

قال ابن باز<sup>(١)</sup>: وقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ  
لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى أنذر يا محمد بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾  
ويسمعوا إلى ربهم وهو المسلمون؛ لأن الكفار لم يسمعوا ولم يستجيبوا، والانداز:  
الإعلام مع التخويف.

- ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ هذه الشفاعة الباطلة، فإن العباد ليس لهم ولى  
ولا شفيع بالكلية إلا من رضى الله قوله وعمله فقط؛ لأن الكفار يظنون أن لهم أولياء  
وشفعاء ينقذونهم من النار، ولا يدخلون النار بسببهم حتى عبدهم من دون الله.  
﴿وَقَالُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فبين  
سبحانه أنه ليس للعباد ولى ولا شفيع دونه، وأن شفاعة الكفار هذه باطلة، وأن الشفاعة  
الحق هي التى يأذن الله فيها لأنبيائه وأوليائه وأهل طاعته فى أهل التوحيد والإيمان،  
لا فى أهل الكفار والنفاق.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى لأجل أن يتقوا الله ويستقيموا على دينه إذا عرفوا أنه لا شفاعة ولا  
ولاية من دونه فيوحدونه ويحذرون من غضبه. اهـ.

وبنحو هذا قال شراح التوحيد، وقال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ أى  
يخافون مما يقال لهم من سوء العذاب فى ذلك الحشر.

(٢) القول المفيد ١/٤٢٣، ٤٢٤.

(١) التعليق المفيد (١٠٣، ١٠٤).

## وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (١).

والحشر: الجمع: وقد ضُمَّنْ هنا معنى الضم والإنهاء، فمعنى يحشرون، أى: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وِلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: شافع يتوسط لهم، وهذا محل الشاهد ففى هذه الآية نفى الشفاعة من دون الله، أى من دون إذنه، ومفهومها أنها ثابتة بإذنه، وهذا هو المقصود، الشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة، أما عند الملوك فجائزة بإذنه وبغير إذنه، فيمكن لمن كان قريباً من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن.

ويفيد قوله ﴿مِّنْ دُونِهِ﴾ أن لهم بإذنه ولياً وشفيعاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ اهـ.

قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

قال سليمان آل الشيخ (٢): هكذا أوردها المصنف، وتكلم عليها وعلى الآية التى قبلها - أى من نفس السورة، لا التى قبلها من كلام المصنف - ليتضح المعنى.  
قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبًا لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣). اهـ.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٤): حيث دلت الآية على أن الشفاعة بجميع أنواعها ملك لله، فلاتنال إلا بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٥): حيث أثبتت الآية ملك لله لا يستحقها أحد سواه، فيكون طلبها من غير الله شركاً، ومن ذلك طلبها من الأوثان الذين زعموا أنهم يعبدونهم لأجل الشفاعة اهـ.

● الإعراب (٦): ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لله خبر مقدم، والشفاعة مبتدأ مؤخر، واللام ﴿لِلَّهِ﴾ للملك أى أنه مختص بها لا يملكها أحد إلا بتملكه، و﴿جَمِيعًا﴾ حال اهـ.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٠٤، ٢٠٥).

(٤) الجديد (١٥٧).

(٦) إعراب القرآن (٤٢٧/٨).

(١) الزمر: (٤٤).

(٣) الزمر (٤٣، ٤٤).

(٥) الجديد (١٥٧).

وقال ابن عثيمين<sup>(١)</sup> كذلك وزاد: وقدم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته اهـ.

ما جاء من كلام المفسرين فى تفسيرها:

وهى كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٢).

وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٣) فكذبهم وكفرهم بذلك.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَّ ضُلُوعًا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٤).

عن قتادة فى قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ قال الآلهة<sup>(٥)</sup>.

وعن مجاهد فى قوله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ قال: لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه<sup>(٦)</sup> أهـ.

قال ابن جرير<sup>(٧)</sup>: يقول تعالى ذكره: أم اتخذ هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهمم التى يعبدونها شفعاء تشفع لهم عند الله فى حاجاتهم.

وقوله: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبى ﷺ: قل يا محمد لهم أتخذون هذه الآلهة شفعاء كما تزعمون، ولو كانوا لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرراً، ولا يعقلون شيئاً؟! ﴿قُلْ﴾ لهم إن تكون تعبدونها لذلك وتشفع لكم عند الله، فأخلصوا عبادتكم لله، وأفردوه بالآلوهية، فإن الشفاعة جميعاً له، لا يشفع عنده إلا من أذن له، ورضى له قولاً، وأنتم متى أخلصتم له العبادة، فدعوتموه شفعمكم.

(١) القول المفيد (١/٤٢٥).

(٢) يونس / ١٨

(٣) الزمر / ٢٣

(٤) الأحقاف / ٢٨

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦١٨/٥) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٦) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقى فى «البعث والنشور».

(٧) تفسير ابن جرير (٧/٢٤/١١) ..

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول له سلطان السموات والأرض وملكها، وما تعبدون أيها المشركون من دونه ملك له يقول: فاعبدوا الملك لا المملوك الذى لا يملك شيئاً ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: ثم إلى الله مصيركم، وهو معاقبكم على إشراككم به إن متم على شرككم، ومعنى الكلام ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فاعبدوا المالك الذى له ملك السموات والأرض الذى يقدر على نفعكم فى الدنيا وعلى ضرركم فيها، وعند مرجعكم إليه بعد مماتكم، فإنكم إليه ترجعون اهـ.

وقال البغوى (١): ﴿أَوْ لَوْ كَانُوا﴾ وإن كانوا يعنى الآلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم، وجواب هذا محذوف تقديره: وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم شفعاء اهـ.

وقال الزمخشرى (٢): ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أى هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذوناً له، وههنا الشرطان مفقودان.

وقال ابن الجوزى (٣): قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ يعنى كفار مكة، وفى المراد بالشفعاء قولان:

أحدهما: أنها الأصنام، زعموا أنها تشفع لهم فى حاجاتهم، قاله الأكثرون.  
والثانى: الملائكة، قاله مقاتل.

﴿قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم؟  
وجواب هذا الاستفهام محذوف، تقديره: أو لو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم؟! أهـ  
قلت: وهذا كقول البغوى السابق.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أى لا يملكها أحدٌ إلا بتملكه، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه اهـ.

وقال الفخر الرازى (٤): وزاد قولاً ثالثاً والمراد بالشفعاء أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها.

(٢) الكشاف (٣/٣٤٩).

(١) معالم التنزيل (٥/١٩، ٢٠).

(٣) زاد المسير (٧/٥٦، ٥٧).

(٤) التفسير الكبير (١٣/٢٦/٢٨٦).

ثم قال: ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ . . . اهـ.

وقال القرطبي<sup>(١)</sup>: قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نص فى أن الشفاعة لله وحده. اهـ.

وقال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: يقول تعالى ذامًا للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهى لا تملك شيئًا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير، ثم قال: قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضى وأذن له فمرجعها كلها إليه. اهـ.



ما جاء من كلام شرح كتاب التوحيد فى الآية:

قال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣).

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٤)</sup>: فقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ أى : بل اتخذوا ، أى :

المشركون والهمزة للإنكار من دون الله شفعاء، أى : أتشفع لهم عند الله بزعمهم كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٥) الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٦)

فكذبهم وكفرهم بذلك، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا

(١) تفسير القرطبي (٨/٥٧٠٧، ٨٠٧٠٨)

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥٥).

(٣) الزمر / (٤٣، ٤٤).

(٤) تفسير العزيز الحميد (٤/٢٠٤، ٢٠٥).

(٥) سورة يونس، الآية : ١٨.

(٦) سورة الزمر، الآية : ٣.



آلِهَةٌ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١﴾ فهذا هو مقصود المشركين ممن عبدوهم وهو الشفاعة لهم عند الله .

قوله : ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ، أى : من دون إذنه وأمره ، والحال أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، وأن يكون المشفوع له مرتضى ، وههنا الشرطان مفقودان ، فإن الله سبحانه لم يجعل اتخاذ الشفعاء ودعاءهم من دونه سبباً لإذنه ورضاه ، بل ذلك سبب لمنعه وغضبه .

قوله : ﴿قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢) أى : أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم ، أو أموات كذلك ، حتى ولا يملكون الشفاعة كما قال : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (٣) أى : هو مالكها كلها فليس لمن تدعونهم منها شىء .

قال البيضاوى : لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون ، هى تماثيلهم .

والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ، ولا يستقل بها ، وقوله : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٤) تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دون الله بأنه مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم فى أمره دون إذنه ورضاه ، فاندرج فى ذلك ملك الشفاعة ، فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائن من كان ، وقوله : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ ، أى : فتعلمون أنهم لا يشفعون ، ويخيب سعيكم فى عبادتهم ، بل يكونون عليكم ضداً ويتبرؤون من عبادتكم كما قال تعالى : ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾ (٦) .

(١) الأحقاف : ٢٨ .

(٢) الزمر : ٤٣ .

(٣) الزمر : ٤٤ .

(٤) الحديد : ٢ .

(٥) مريم : ٨٢ .

(٦) يونس : ٢٨ ، ٢٩ .

وقال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: فأفادت الآية فى قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة، اهـ.

[قلت]: وهو كما قال:

حيث تنقسم الشفاعة من حيث الشافع إلى قسمين..

الأول: شفاعة رب العالمين، وهذه شفاعة مباشرة بدون سبب من المخلوقين أذن لهم رب العالمين فى الشفاعة .

وهى شفاعة من الخالق للمخلوق.

الثانية: شفاعة المخلوقين فى المخلوقين بإذن رب العالمين. وهى أنواع:

أولاً: شفاعة الملائكة.

ثانياً شفاعة النبى ﷺ

١- الشفاعة الكبرى.

٢- شفاعته ﷺ لأهل الجنة فى دخولها.

٣- شفاعته ﷺ لقوم من العصاة ممن أمتهم قد استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم ألا يدخلوها.

٤- شفاعته ﷺ فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.

٥- شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفع درجةاتهم.

٦- شفاعته ﷺ فى بعض أهل الكفر من أهل النار حتى يخفف عذابه وهذه خاصة بأبى طالب وحده.

ثالثاً: شفاعة المؤمنين وهى نوعان:

١- فى الدنيا فيما يقدر- عليه المخلوق قدرًا وشرعًا.

٢- شفاعة فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه.

النوع الأول: شفاعة الخالق للمخلوق.

شفاعة رب العالمين، وهذه شفاعة مباشرة بدون سبب من المخلوقين أذن له فى الشفاعة .

(١) القول المفيد (١/٤٢٥-٤٢٩).

مواطن شفاعة الله : بوب ابن أبى عاصم فى كتابه «السنة» فى الشفاعة فى خروج  
الموحدين من النار.

باب: فى ذكر من يخرج الله بفضله من النار

ثم روى بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك  
وتعالى: أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافنى فى مقام»<sup>(١)</sup>.

روى ابن أبى عاصم عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: يكون قوم فى  
النار، ما شاء الله أن يكونوا، ثم يرحمهم الله، فيخرجون منها، فيمكثون فى أدنى الجنة فى  
نهر يقال له الحيوان، لو أضاف أحدهم أهل الدنيا لأطعمهم وسقاهم وحفهم قال  
عطاء: وأحسبه قال: ولزوجهم. [لا ينقصه ذلك شيئاً]<sup>(٢)</sup>.

وعن حذيفة أن رسول الله - ﷺ قال: يخرج قوم من النار بعدما محشتهم النار،  
فيدخلون الجنة، فيسمون الجهنميون.

وأسند عن حذيفة، عن النبى ﷺ قال: «ليخرجن الله من النار قوماً مستئين قد  
محشتهم النار، فيدخلون الجنة بشفاعة الشافعين، يسمون فيها الجهنميون»<sup>(٣)</sup>.

وأسند عن أبى بكره أن رسول الله ﷺ قال: «يحمل الناس على الصراط يوم القيامة،  
فتتقاع»<sup>(٤)</sup> بهم جنباً الصراط تقادع الفراش فى النار، فينجى الله برحمته من يشاء، ثم أنه  
يؤذن فى الشفاعة للملائكة والنبيين والشهداء والصديقين، فيشفعون ويخرجون،  
فيشفعون ويخرجون من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فلقيت<sup>(٥)</sup> أباً بكره فى جنازة  
فسألته عن هذا الحديث فحدثنى كما حدثنى<sup>(٦)</sup>.

وأسند عن عقبة بن صهبان يقول: سمعت أباً بكره، عن النبى ﷺ مثله إلى قوله ذرة  
من إيمان<sup>(٧)</sup>.

وأسند عن جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وأشار بأصابعه  
إلى أذنيه: يخرج ناس فيدخلون الجنة<sup>(٨)</sup>.

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٣).

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٤).

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٦).

(٤) وفى المسند تتقاع والمعنى أن جنبى الصراط تسقطهم فى النار بعضهم فوق بعض قوله: (فلقيت .)

من كلام أبى سليمان البصرى .

(٥) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٣٧)

(٦) فلقيب . . من كلام أبى سليمان البصرى .

(٧) أخرجه ابن أبى حاتم (٨٣٨) وإسناده حسن أو محتمل للتحسين .

(٨) أخرجه فى المصدر السابق (٨٣٩)

وأُسند عن جابر يقول سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله يخرج ناس من النار فيدخلهم الجنة»<sup>(١)</sup>.

وأُسند عن حماد بن زيد قال: سألت عمرو بن دينار: أسمعتم جابر بن عبد الله يحدث عن النبي ﷺ إن الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة؟ فقال: نعم<sup>(٢)</sup>.

وأُسند عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تبارك وتعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحياء أو الحياة، شك مالك، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية<sup>(٣)</sup>؟

وأُسند عن أبي موسى<sup>(٤)</sup> قال: قال رسول الله ﷺ: إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة يقول الكفار: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع ما قالوا، فأمر بمن كان من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك أهل النار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا، قال: وقرأ رسول الله ﷺ: «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رَبِّمَا يُؤَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ»<sup>(٥)</sup>.

وأُسند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إذا أخرج الله أهل النار من النار بشهادة أن لا إله إلا الله تمنى الآخرون لو كانوا مسلمين<sup>(٦)</sup>.

وأُسند عن أنس أن نبي الله ﷺ قال<sup>(٧)</sup>:

لِيُصِيبَنَّ أَقْوَاماً سَفَعٌ مِنَ النَّارِ عَقُوبَةٌ بِذُنُوبِ أَصَابُوهَا ثُمَّ لِيَدْخُلَهُمُ الْجَنَّةُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ. وَأُسند عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تبارك وتعالى: «فِيُؤْفِقُهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ»<sup>(٨)</sup> قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله قال: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا<sup>(٩)</sup>.

وأُسند عن أنس، عن النبي ﷺ مثله<sup>(١٠)</sup>.

(١) [صحيح] لمصدر السابق (٨٤٠) وأخرجه مسلم (١/١٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٨٤١).

(٣) المصدر السابق (٨٤٢). (٤) المصدر السابق (٨٤٣).

(٥) الحجر: ١. (٦) المصدر السابق (٨٤٤). (٧) المصدر السابق (٨٤٥).

(٨) النساء: ١٧٣. (٩) المصدر السابق (٨٤٦) الضمير يعود على أهل النار.

(١٠) [صحيح] المصدر السابق (٨٥٠) ومسلم.

وأُسند عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه ما يزن شعيرة. (١)

وأُسند عن أنس أنه حدث ذلك عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أبصرهم أهل الجنة قال وما هؤلاء؟ فيقال: (٢) هؤلاء الجهنميون» أو كما قال.

وأُسند عن انس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: يدخل قوم جهنم ويخرجون منها ويدخلون الجنة، يعرفون بأسمائهم يقال لهم الجهنميون (٣).

وأُسند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: يخرج من النار أربعة، فيعرضون على الله عز وجل، فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب كنت أرجوك إذا أخرجتني منها أن لاتعيذني فيها، فينجيه الله منها. (٤)

قال الفقير: والشاهد قوله: إذ أخرجتني.

شفاعة كلام رب العالمين:

أخرج الإمام عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي عن ابن عمر قال: يجيء القرآن يشفع لصاحبه يقول: يارب لكل عامل عمالة من عمله، وإنى كنت أمنعه اللذة والنوم فأكرمه، فيقال: أبسط يمينك، فيملاً من رضوان الله، ثم يقال: أبسط شمالك، فيملاً من رضوان الله، ويكسى كسوة الكرامة، ويحلى حلية الكرامة: ويلبس تاج الكرامة.

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهى ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ (٥).  
هذا حديث حسن (٦).

أما حديث جابر الذى تقدمت الإشارة إليه، أخرجه ابن حبان رحمه الله عن جابر

(١) المصدر السابق (٨٥٢).

(٢) المصدر السابق (٨٤٧).

(٣) المصدر السابق (٨٤٨).

(٤) [صحيح] المصدر السابق (٨٥٣)، ومسلم (١/١٢٣).

(٥) الملك: (١).

(٦) أخرجه الترمذى (٢٨٩١) وحسنه.

عن النبي ﷺ قال: «القرآن شافع مشفع، وما حل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار»<sup>(١)</sup>.

الحديث حسن.

وأخرج مسلم رحمه الله عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»<sup>(٢)</sup>.

النوع الثاني:

شفاعة المخلوقين للمخلوقين بإذن رب العالمين.

وهي أربعة أنواع:

أولاً: شفاعة الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾<sup>(٣)</sup>.

تقدم حديث أبي بكر «ثم أنه يؤذن في الشفاعة للملائكة والنبیین والشهداء والصدیقین فيشفعون...» إلخ<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: شفاعة النبيين:

وفيها حديث أبي بكر المتقدم وحديث حذيفة عن أبي بكر عند ابن أبي عاصم في شفاعة العظمى وفيه ثم يقال ادعوا الصديقين فيشفعون ثم يقال ادعوا الأنبياء فيجىء النبي ومعه العصاة.

ثالثاً: شفاعة النبي ﷺ وهي تنقسم إلى قسمين الأول في الدنيا والثاني في الآخرة:

الأول: من شفاعة ﷺ وهي:

تكون في الدنيا فيما يقدر عليه قدرأ و شرعأ.

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١/١٦٧ - الإحسان) وانظر «الإتقان» بتخريخنا.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣/٣٤٩/٢٥٢).

(٣) النجم: ٢٦.

(٤) ابن أبي عاصم (٨٣٧) حسن أو محتمل لذلك.

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إن شئت دعوت لك. وإن شئت أنرت ذلك فهو خير» فقال: ادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجّهت بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهم شفعة في (١).

وأخرج أيضاً عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله ادع الله أن يعافيني فقال: «إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لأخرتك. وإن شئت دعوت لك، قال: بل ادع الله لي: فأمره أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة. يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى وتشفعني فيه، وتشفعه في.

قال: فكان يقول هذا مراراً. ثم قال: أحسب أن فيها: أن تشفعني فيه. قال: ففعل الرجل فبرئ (٢).

أخرج الطبراني - رحمه الله - عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: أنت الميضأة، فتوضأ ثم أتت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قال: اللهم أنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضى حاجتي، وتذكر حاجتك. وروح إلى حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع مثل ما قال له عثمان، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، وقال: حاجتك، فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فائتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلى حتى كلمته في، فقال عثمان بن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأتاه  
ضريير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أفتصبر؟»  
فقال: يارسول الله إنه ليس لى قائد وقد شق على، فقال له النبي صلى الله عليه وعلى  
آله وسلم: «أئت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات».

قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقتنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه  
لم يكن به ضرر قط<sup>(١)</sup>.

قال الفقير: وقد أعل هذه الرواية الشيخ الألبانى بثلاث علل انظرها فى كتابه  
«التوسل»<sup>(٢)</sup>.

قال الفقير: وهذا الحديث أصله صحيح ولكن القصة التى أخرجها الطبرانى: باطلة،  
لأنها تحيز التوسل بالأموات وهو شرك. وقد تقدم الرد على من توسل بجاه النبى ﷺ  
محتجاً بحديث الضريير هذا، فى الباب الخامس، وجعلنا له فصلاً مستقلاً فى الباب  
بعنوان [فصل فى أحكام التوسل والوسيلة] وأيضاً فى الباب الرابع عشر، وقد ضعفه  
على الإطلاق سليمان آل الشيخ فى هذا الموضوع، وهذه المواضع الثلاثة لحديث الضريير  
فى الكتاب، فتأملها حرصاً على الفائدة. والله الموفق للصواب.

الثانى: شفاعة النبى ﷺ فى الآخرة.

مواطن شفاعة الرسول ﷺ

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن أنس قال: سألت النبى صلى الله عليه وعلى آله  
وسلم أن يشفع لى يوم القيامة، قال: قال: «أنا فاعل بهم» قلت: «يارسول الله فأين  
أطلبك؟ قال: «اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط» قال: قلت: فإن لم ألقك على  
الصراط؟ قال: «فأنا عند الميزان، قال: قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «فأنا عند  
الحوض، لا أخطيء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى التى يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتى

(١) تقدم

(٢) (ص ٩٢)

(٣) أخرجه الترمذى ٢٤٣٣ وقال: هذا حديث حسن غريب، لانعرفه إلا من هذا الوجه.



تنتهى إليه ﷺ فيقول: «أنا لها»<sup>(١)</sup> وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف. وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه<sup>(٢)</sup>.

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمتهم قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدعوا من أنكروها، وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم وهذه مما لم ينازع فيها أحد. وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾<sup>(\*)</sup>.

السادس: شفاعته في بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه. وهذه خاصة بأبي طالب وحده<sup>(٣)</sup>.

وهذه أنواع شفاعته ﷺ في الآخرة على وجه العموم وإليك شرح هذه الأنواع.

- النوع الأول من شفاعة الرسول ﷺ: وهي الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتى تنتهى إليه ﷺ فيقول «أنا لها» وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد.

عن أنس رضي الله عنه - قال: قال: النبي ﷺ:

(١) سيأتي

(٢) تقدم تخريجه.

(\*) الأنعام: ٥١.

(٣) تقدم

(\*) «أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون بم ذاك»<sup>(٤)</sup> [يجمع الله]<sup>(٢)</sup> المؤمنين، و[الأولين والآخرين]<sup>(٤)</sup> يوم القيامة [في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنوا الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون]<sup>(٤)</sup> فينهمون بذلك [ويلقى الناس يوم القيامة ما شاء الله أن يلقوا من الحزن]<sup>(٣)</sup> فيقولون: [ألا ترون ما قد بلغكم]<sup>(٤)</sup> لو استشفعنا على ربنا [تبارك وتعالى]<sup>(٢)</sup> عزوجل، فيرحبنا من مقامنا هذا، [انطلقوا بنا إلى آدم فيشفع لنا إلى ربنا]<sup>(١)</sup>.

فيأتون آدم ﷺ فيقولون: [يا آدم]<sup>(١)</sup> أنت أبونا [أبو الخلق]<sup>(٢)</sup> [أبو الناس]<sup>(١)</sup> [أبو البشر]<sup>(٤)</sup> [خلقك الله [تبارك وتعالى]<sup>(٢)</sup> بيده [ونفخ فيك من روحه]<sup>(٤)</sup> وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يرحبنا من مقامنا هذا [ألا ترى إلى ما قد بلغنا]<sup>(٤)</sup>!؟

فيقول: لست هناكم [إن ربي قد غضب غضبة اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله]<sup>(٤)</sup>، ويذكر [لهم ذنبه]<sup>(١)</sup>، وخطيئته التي أصاب: أكله من الشجرة، قد نهاه الله عنها [فيستحي ربه من ذلك]<sup>(١)</sup> ائتوا نوحاً ﷺ فإنه أول نبي أرسله الله تبارك وتعالى [إلى أهل الأرض]<sup>(١)</sup>.

فيأتون نوحاً [فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا]<sup>(٤)</sup>!؟

فيقول: [إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، إنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي]<sup>(٤)</sup> لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب بسؤاله ربه بغير علم [ما ليس له به علم فيستحي ربه من ذلك]<sup>(١)</sup>، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن [الذي اتخذته الله خليلاً فيأتون إبراهيم]<sup>(٢)</sup> [فيقولون: يا إبراهيم: اشفع لنا إلى ربنا]<sup>(٣)</sup> [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا]<sup>(٤)</sup>.

فيقول: لست هناكم [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله]<sup>(٤)</sup>.

فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله حين أتى الملك لامرأته: «قولي: إني أخوك، فإني أخبره أنك أختي» [نفسى نفسي]<sup>(٤)</sup>، ولكن ائتوا موسى عبداً [اصطفاه الله برسالته]<sup>(٣)</sup> [أعطاه الله التوراة وكلمه فيأتون موسى ﷺ [الذي كلمه الله]<sup>(٢)</sup>].

(\*) انظر التعليق على هذه الآيات في آخر الحديث.

فيقولون: [يا موسى<sup>(٤)</sup>]: [اشفع لنا إلى ربك]<sup>(٣)</sup> [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا]<sup>(٤)</sup>؟! .

فيقول: لست هناكم [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله]<sup>(٤)</sup>، ويذكر خطيئته التي أصاب: قتله الرجل [بغير النفس فيستحي ربه من ذلك]<sup>(١)</sup> [نفسى نفسى]<sup>(٤)</sup>، ولكن اتنوا عيسى عبدالله ورسوله، وكلمة الله وروحه، فيأتون عيسى [فيقولون: يا عيسى [أنت رسول الله كلمت الناس فى المهد، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه]<sup>(٤)</sup> اشفع لنا إلى ربك]<sup>(٣)</sup> [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا]<sup>(٤)</sup>؟ .

فيقول: لست هناكم [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله، ولم يذكر له ذنباً - نفسى نفسى]<sup>(٤)</sup>، ولكن اتنوا محمداً عبداً [جاء اليوم مغفوراً له ليس عليه ذنب]<sup>(٣)</sup> [قد]<sup>(٢)</sup> غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، فيأتونى [فيقولون: يا محمد [أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك أما ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا]<sup>(٤)</sup>؟ اشفع لنا إلى ربك .

فيقول: أنا لها، وأنا صاحبها]<sup>(٣)</sup>، [فأناطلق فأمشى بين سماطين من المؤمنين]<sup>(١)</sup> [حتى استفتح باب الجنة فيفتح لى فأدخل وربى على عرشه]<sup>(٣)</sup> [فاستأذن على ربي تبارك وتعالى]<sup>(٢)</sup> فى داره [فيأذن لى]<sup>(١)</sup> فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع محمد، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسى فأحمده بثناء وتحميد يعلمنيه [لم يحمده بها أحد قبلى، ولا يحمده أحد بعدى]<sup>(٣)</sup> فأشفع [فأقول: يارب [أمتى - ثلاث مرات -]<sup>(٤)</sup> فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال حبة شعيرة]<sup>(٣)</sup>، فيحد لى حداً فأخرجهم [من النار]<sup>(٢)</sup> فأدخلهم الجنة [فيقال: يا محمد: ادخل الجنة من أمتك من لاحتساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذى نفسى بيده، إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، وكما بين مكة، وبصرى]<sup>(٤)</sup> ثم [أعود]<sup>(٢)</sup> استأذن على ربي فى داره الثانية، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع رأسك محمد، قل تسمع، واشفع تشفع وسل تعطه فأرفع رأسى فأحمده بثناء وتحميد يعلمنيه [لم يحمده بها أحد قبلى، ولا يحمده أحد بعدى]<sup>(٣)</sup>، ثم اشفع [فأقول: يارب! فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة]<sup>(٣)</sup>، فيحد لى حداً فأخرجهم [من النار]<sup>(٢)</sup> فأدخلهم الجنة فاستأذن على ربي فى داره الثالثة فيؤذن لى عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع محمد [قل تسمع

و[<sup>(١)</sup>اشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسى فأحمده بثناء وتحميد يعلمنيه ]لم يحمده بها أحد قبلى، ولا يحمده بها أحد بعدى][<sup>(٢)</sup>، ثم اشفع [فأقول: يارب: فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة][<sup>(٣)</sup> فيحد لى حداً فأخرجهم، فأدخلهم الجنة ]ثم آتيته الرابعة][<sup>(١)</sup> ]فأخر ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد قبلى، ولا يحمده بها أحد بعدى قال: فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، واشفع تشفع. قال: فأقول: يارب فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة قال: فأخر ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده أحد قبلى، ولم يحمد أحد بها بعدى قال: فيقال: يا محمد: أرفع رأسك، قل تسمع، واشفع تشفع. فأقول: يارب، يارب، فيقول: أخرج من كان فى قلبه أدنى شىء قال: فأخرج أناساً من النار يقال لهم: الجهنميون، وإنهم لفى الجنة][<sup>(٣)</sup> فما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن - أى وجب عليه الخلود - وهو المقام المحمود الذى وعده الله تبارك وتعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ فأخرجهم من النار فأدخلهم الجنة.

قال: [فقال رجل: يا أبا حمزة سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فتغير وجهه، واشتد عليه فقال: ما كل ما نحدثكموه سمعناه من رسول الله ﷺ ولكن لم يكن يكذب بعضنا بعضاً][<sup>(٣)</sup> (\*).

وأخرج ابن أبى عاصم عن حذيفة، عن أبى بكر الصديق قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم فصلى الغداة ثم جلس مكانه، حتى إذا كان من الضحى، ضحك رسول الله ﷺ، ثم جلس مكانه، حتى صلى الأولى والعصر والمغرب، كل ذلك لا يتكلم حتى صلى العشاء الآخرة، ثم قام إلى أهله، فقال الناس لأبى بكر: سل رسول الله ﷺ ما شأنه صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط؟ قال: نعم [فسأله، فقال: ]عرض على ما هو

(\* ) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٠٤) من طريق همام، ثنا قتادة، عن أنس مرفوعاً . . وصححه الألبانى.

(١) زيادات من رواية ابن أبى عدى، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس (السنة ٨٠٨) صححه الألبانى .

(٢) زيادات من رواية محمد بن عبيد بن حساب، ثنا أبو عوانة، ثنا قتادة، عن أنس (٨٠٥)، صححه

الألبانى.

(٣) زيادات من رواية معتمر بن سليمان قال: سمعت حميداً يحدث عن أنس (السنة ٨١٦) صححه

الألبانى.

(٤) زيادات من رواية أبى هريرة (السنة ٨١١) صححه الألبانى.

والروايات جميعها أصلها فى الصحيحين.

كائن إلى يوم القيامة من أمر الدنيا والآخرة، يجمع الأولون والآخرون في صعيد واحد يفظع الناس بذلك، حتى انطلقوا إلى آدم، والعرق يكاد أن يلجمهم، فقالوا: يا آدم! أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله، اشفع لنا إلى ربك، فقال: قد لقيت مثل ما لقيتم، فانطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم نوح: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)، فينطلقون إلى نوح، فيقولون: يا نوح اشفع لنا إلى ربك، فأنت اصطفاك الله واستجاب لك في دعائك، ولم يدع على الأرض من الكافرين دياراً، فيقول: ليس ذاكم عندي، انطلقوا إلى موسى، فإن الله تعالى كلمه تكليماً، فيقول موسى: ليس ذاكم عندي، فانطلقوا إلى عيسى بن مريم فإنه يسرى الأكمة والأبرص، ويحيى الموتى، فيقول عيسى: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة فانطلقوا إلى محمد فليشفع لكم إلى ربكم، قال: فأطلق، فيأتي جبريل عليه السلام ربه تبارك وتعالى فيقول: ائذن له وبشره بالجنة، فأطلق فأخر ساجداً قدر جمعة، ثم يقول الله عز وجل: ارفع رأسك، وقل تسمع، واسمع، وتشفع، قال: فأذهب لأقع ساجداً قال: فأخذ جبريل بضبعيه، قال: فيفتح الله عليه من الدعاء شيئاً لم يفتحه على بشر، فأقول: أي رب جعلتني سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، حتى إنه ليرد على الحوض أكثر من ما بين صنعاء وأيلة. ثم يقال: ادعوا الصديقين فيشفعون، ثم قال: ادعوا الأنبياء، فيجىء النبي معه العصاة، والنبي معه الخمسة، والستة، والنبي ليس معه أحد، حتى يقال: ادعوا الشهداء، فيشفعون لمن أرادوا، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله تبارك وتعالى: أنا أرحم الراحمين، ادخلوا جنتي من كان لا يشرك بى شيئاً. قال: فيدخلون الجنة<sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن أبي عاصم: عن سلمان قال: تعطى الشمس يوم القيامة حرَّ عشر سنين، ثم تُدنى من جماجم الناس حتى يكون قاب قوسين، فيعرقون حتى يرسخ العرق في الأرض قامة، ثم يرتفع الرجل حتى يعرق الرجل قال سلمان: حتى يقول الرجل غِرْ غِرْ، فإذا رأوا ما هم فيه قال بعضهم لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ اتوا أباكم آدم عليه السلام فليشفع لكم إلى ربكم جل وعز، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا أنت الذي

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (٨١٢).

خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، قم فاشفع لنا إلى ربنا، فقد ترى ما نحن فيه، فيقول: لست هناك، ولست بذلك، فأين الفعلة فيقولون: إلى من تأمرنا؟ فيقول: اتوا عبداً شاكراً، فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقولون: يا نبي الله أنت الذي جعلك الله شاكراً، وقد ترى ما نحن فيه، فقم فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناك، ولست بذلك، فأين الفعلة؟ فيقولون: إلى من تأمرنا؟ فيقول: اتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا خليل الرحمن قد ترى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول: لست هناك، ولست بذلك، فأين الفعلة؟ فيقولون: إلى من تأمرنا؟ فيقول: اتوا موسى عبداً، اصطفا الله برسالاته وبكلامه، فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: قد ترى ما نحن فيه، اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناك، ولست بذلك، فأين الفعلة؟ فيقولون: فإلى من تأمرنا فيقول أئتوا كلمة الله وروحه عيسى فيقولون يا كلمة الله، وروحه، قد ترى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناك، ولست بذلك، فأين الفعلة؟ فيقولون: فإلى من تأمرنا؟ فيقول: اتوا عبداً فتح الله به، وختم، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويجيء في هذا اليوم آمنة محمد ﷺ. فيأتون النبي، فيقولون: يا نبي الله أنت الذي فتح الله بك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وجئت في هذا اليوم آمناً، وقد ترى إلى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول: أنا صاحبكم، فيخرج يحوش الناس، حتى ينتهي إلى باب الجنة، فيأخذ بحلقة الباب من ذهب، فيقرع الباب، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد ﷺ، قال: فيفتح الله له، قال: فيجيء حتى يقوم بين يدي الله، فيستأذن في السجود، فيؤذن، فيسجد، فينادي: يا محمد! ارفع رأسك، سل، تعطه، اشفع تشفع، وادع تحب، قال: فيفتح الله عليه من الثناء عليه والتحميد والتمجيد ما لم يفتح لأحد من الخلائق، قال: فيقول: أي رب أمتي أمتي أمتي، ثم يستأذن في السجود، فيؤذن له، فيسجد، فيفتح الله عليه من الثناء عليه والتحميد والتمجيد شيئاً لم يفتح لأحد من الخلائق، وينادي: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، وادع تحب، فيرفع رأسه فيقول: رب أمتي أمتي (مرتين أو ثلاثاً) قال سلمان: فيشفع في كل من كان في قلبه مثقال حبة من حنطة من إيمان، أو مثقال شعيرة من إيمان، أو مثقال حبة خردل من إيمان، فذلك [المقام المحمود] (١).

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (٨١٣)

- النوع الثاني من شفاعته - ﷺ - شفاعته لأهل الجنة في دخولها.

وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه. وفيه: «يقال يا محمد: أدخل الجنة من أمتك من لاحتساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس في ماسوى ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (١).

قال ابن كثير (٢): (حتى إذا جاؤها) أى وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتصر لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقروا أذن لهم فى دخول الجنة.

وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم فى الدخول فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً ﷺ وعليهم أجمعين كما فعلوا فى العرصات عند استشفاعهم إلى الله - عز وجل - أن يأتى لفصل القضاء ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها. أهـ

النوع الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

قال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب «الأهوال» كما فى «النهاية» لابن كثير: وثنا إسماعيل بن عبيد ابن أبى كريمة حدثنى محمد بن سلمة عن أبى عبد الرحيم حدثنى زيد ابن أبى أنيسة عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث عن أبى هريرة وذكر حديثاً عن أبى هريرة، ثم قال زيد بن أبى أنيسة عن المنهال: حدثنى عبد الله بن الحارث أيضاً أن النبى ﷺ قال: «أمر بقوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار، قال: فيقولون: يا محمد نشدك الشفاعة، قال: فأمر الملائكة أن يقفوا بهم، قال: فأنتلق واستأذن على الرب عز وجل فيأذن لى فأسجد وأقول: يارب، قوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار، قال: فيقول لى: انطلق فأخرج منهم، قال: فانطلق وأخرج منهم من شاء الله أن أخرج، ثم ينادى الباقون: يا محمد نشدك الشفاعة فأرجع إلى الرب فاستأذن فيؤذن لى فأسجد، فيقال لى ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع» الحديث (٣).

(١) الزمر (٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦٥/٤.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الأهوال.

قال ابن كثير: وهذا يقتضى تعداد هذه الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات ألا يدخلوها، ويكون معنى قوله: «أخرج»، أى أنقذ، بدليل قوله بعد ذلك: «ويبقى قوم فيدخلون النار»، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. اهـ.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدعوا من أنكروها، وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

#### ● شفاعته ﷺ لأهل الكبائر.

بوب ابن أبي عاصم في كتابه السنّة: (باب في ذكر شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر) تم أخرج بسنده (١) عن ابن عمر قال:

مازلنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من في نبينا ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» قال: فأني أخرجت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا.

وأخرج عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي (٢).

وعن أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي (٣). وفيه عن جابر بن عبد الله.

قال أبو بكر: والأخبار التي روينا عن نبينا ﷺ فيما فضله الله به من الشفاعة وتشفيعه إياه فيما يشفع فيه أخبار ثابتة موجبة بعلم حقيقة ما حوت على ما اقتصصنا، والصادق عن الأخبار الموجبة للعلم المتواترة كافر، وقد ذكرناها ما دل (٤) على عقده من الكتاب، جعلنا الله وكل مؤمن بها مؤملاً لها من أهلها.

النوع الخامس: شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم وهذه مما لا ينزع فيها أحد. وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ (٥).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم (٨٣١).

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (٨٣٠).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم (٨٣٢).

(٤) كذا في المطبوع ونبه محقق الكتاب عل وجود سقط أو تحريف في هذا الموضع

(٥) الأنعام: ٥١



أخرج البخارى رحمه الله عن أبى موسى رضى الله عنه قال: لما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقى دريد بن الصمة، فقتل دريد وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى وبعثنى مع أبى عامر فرمى أبو عامر فى ركبته فانتهيت إليه، فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبى موسى، فقال: ذاك قاتلى الذى رمانى، فقصدت له فلحقته، فلما رآنى ولى فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحى، ألا تثبت فكف. فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبى عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعته، فنزا منه الماء، قال: يا ابن أخى أقرىء النبى ﷺ وقل له: استغفر لى، واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني قد قتلت عليه فراش، قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر وقال: قل له استغفر لى، فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه، فقال: «اللهم اغفر لعبيد أبى عامر» ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس» فقلت: ولى فاستغفر، فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلا كريماً، قال أبو بردة: إحداهما لأبى عامر والأخرى لأبى موسى<sup>(١)</sup>.

وأخرج مسلم عن أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» فضج ناس من أهله فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون» - ثم قال: «اللهم اغفر لأبى سلمة، وارفع درجته فى المهديين، واخلفه فى عقبه فى الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له فى قبره، ونور له فيه»<sup>(٢)</sup>.

النوع السادس: شفاعته ﷺ فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه. وهذه خاصة بأبى طالب وحده.

أخرج البخارى رحمه الله أن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ: «ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال:

«وهو فى ضحضاح من نار، ولو لا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار»<sup>(٣)</sup>.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى: (٢٨٨٨).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٧/٤٩٢/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

وذكر البخارى رحمه الله عن ابن الهاد بن عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ، وذكر عنده عمه، فقال: «لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه» (١).

### اسباب شفاعة الرسول ﷺ

(١) الدعاء له بالمقام المحمود بعد الأذان:

أخرج البخارى رحمه الله: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة» (٢).

(٢) الصلاة على النبى ﷺ ثم طلب الوسيلة له.

أخرج مسلم رحمه الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ، فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرأ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعيد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة» (٣).

(٣) سكنى المدينة والموت فيها:

أخرج الإمام مسلم رحمه الله عن أبى سعيد مولى المهري أنه جاء أبا سعيد الخدرى لىالى الحرة فاستشاره فى الجلاء من المدينة وشكا إليه أسعارها، وكثرة عياله، وأخبره أن لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها، فقال له: ويحك لأمرك بذلك؟! إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصبر أحد على لأوائها فيموت، إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً» (٤).

وأخرج مسلم رحمه الله عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صبر على لأوائها كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة» (٥).

وأخرج مسلم رحمه الله عن يُحَنَس مولى الزبير أخبره أنه كان جالساً عند عبد الله بن عمر فى الفتنة، فأتته مولاة له تسلم عليه، فقالت، إنى أردت الخروج يا أبا.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٨٨٥)، ومسلم فى الإيمان (٢/٨٧/٣٦٠).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى ٦١٤. (٣) [صحيح] أخرجه مسلم (١/٢٨٨).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (فى الحج ٥/١٦١/٤٧٧).

(٥) تقدم تخريجه.

عبد الرحمن اشتد علينا الزمان، فقال لها عبد الله: اقعدى لكاع، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيحاً يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وأخرجه مسلم بسند آخر عن يحيى بن يعقوب، مولى مصعب عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صبر على لأوائها وشدتها كنت له شهيداً أو شفيحاً يوم القيامة» يعنى المدينة.

وأخرج مسلم رحمه الله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيحاً يوم القيامة أو شهيداً»<sup>(٣)</sup>.  
(٤) ومن أسباب الشفاعة كثرة السجود

روى عبد الله بن المبارك فى «الزهد» عن حسين بن على قال: حدثنى فاطمة بنت الحسين أن رجلاً قال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك قال: «أعنى بكثرة السجود»<sup>(٤)</sup>. الحديث مرسل.

فى «أسد الغابة»: وروى شيبان عن جرير عن عبد الملك بن عمير عن مصعب الأسلمى قال: انطلق غلام لنا فأتى النبى ﷺ فقال: أسألك أن تجعلنى ممن تشفع له يوم القيامة، فقال: «من علمك أو أمرك أو ذلك؟» فقال: ما أمرنى إلا نفسى قال: «إنى أشفع لك، ثم رده فقال: «أعنى على نفسك بكثرة السجود»<sup>(٥)</sup>.

روى الإمام أحمد رحمه الله عن خادم للنبى ﷺ رجل أو امرأة قال: كان النبى ﷺ مما يقول للخادم: «ألك حاجة؟» قال: حتى كان ذات يوم فقال: يا رسول الله حاجتى أن تشفع لى يوم القيامة، قال: «ومن ذلك على هذا؟» قال: ربي، قال: «أما لا فأعنى بكثرة السجود»<sup>(٦)</sup>.

● تنبيه عدم ثبوت الشفاعة لزائر قبر الرسول ﷺ:

قال الشيخ مقبل: وردت أحاديث أن زيارة قبر رسول الله ﷺ سبب لشفاعته ﷺ لا يثبت منها شيء، وسأنتل إن شاء الله عن أهل العلم ما يتعلق بهذه الأحاديث من النقد والتجريح لرواياتها<sup>(٧)</sup>. منها «من زار قبرى وجبت له شفاعتى».

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٥/١٦٢/٤٨٢).

(٢) تقدم

(٣) أخرجه مسلم (٥/١٦٣/٤٨٤).

(٤) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص ٤٥٥ (٥) أسد الغابة (٥/١٨٠).

(٦) أحمد (٣/٥٠٠). (٧) الشفاعة (٤).

ثالثاً: شفاعة المؤمنين وهي نوعان:

الأول: في الدنيا فيما يقدر عليه المخلوق قدرًا وشرعًا

الثاني: شفاعة في الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه..

[أولاً]: شفاعة المؤمنين في الدنيا فيما يقدر عليهم قدرًا وشرعًا:

شفاعة المصلين على الميت على التوحيد.

أخرج مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه»<sup>(١)</sup>.

أخرج ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «من صلى عليه مائة من المسلمين غفر له»<sup>(٢)</sup>.

وأخرج مسلم رحمه الله عن كريب مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان، فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته، فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجوه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم فيه»<sup>(٣)</sup>.

شفاعة المؤمنين في الدنيا بالدعاء للأموات والأحياء.

أخرج البزار عن ابن عمر قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ: فذكر الحديث في فضل الحج، وفيه: «إن الله يقول لهم عند وقوفهم بعرفة: أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولن شفعتهم له» الحديث<sup>(٤)</sup>.

وروى الإمام أحمد رحمه الله أن جرير بن عبد الله قام يخطب يوم توفي المغيرة بن شعبة فقال: عليكم باتقاء الله عز وجل والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن.

(١) تقدم . (٢) أخرجه ابن ماجه (١/٤٨٨).

(٣) تقدم.

(٤) وقال الهيثمي في المجمع (٤/٣٧٥) رواه البزار ورجاله موثقون

ثم قال: اشفعوا لأميركم فإنه كان يحب العفو.

وقال: أما بعد، فإنى أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أبايعك على الإسلام، فقال رسول الله ﷺ واشترط على النصح لكل مسلم، فبايعته على هذا. ورب هذا المسجد إنى لكم لناصح جميعاً، ثم استغفر ونزل<sup>(١)</sup>.

الثانية: شفاعة المؤمنين فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه.

قد تقدمت أحاديث فى شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وهذه بقية الأحاديث الواردة فى شفاعة المؤمنين.

أخرج الترمذى رحمه الله عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن من أمتى من يشفع للفتام من الناس، ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة»<sup>(٢)</sup>.

وأخرج مسلم رحمه الله عن الصنابحى عن عبادة بن الصامت، أنه قال: دخلت عليه وهو فى الموت فبكيت فقال: مهلاً لم تبكى؟ فوالله لئن شهدت لأشهدن لك، ولئن شفعت لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك.

ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم لكم فيه خير إلا حدثكموه إلا حديثاً واحداً، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار»<sup>(٣)</sup>.

قال النووى: وأما قوله (عن الصنابحى عن عبادة أنه قال دخلت على) فهذا كثير يقع مثله، وفيه صنعة حسنة، وتقديره (عن الصنابحى) أنه حدث عن عبادة بحديث قال فيه: دخلت عليه.

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عن أبى أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين ربيعة ومضر»، فقال رجل: يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر؟ فقال: «إنما أقول ما أقول»<sup>(٤)</sup>.

وأخرج الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبى برزة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) أخرجه أحمد (٣٦١/٤) الحديث رجاله رجال الصحيح. وأصله فى الصحيحين.

(٢) أخرجه الترمذى (٤٦/٤) وقال: هذا حديث حسن.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٤٧/٢٥١/١).

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٦/٥).

«إن من أمتي لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون ركنًا من أركانها».

وعن الحارث بن أقيش قال: كنا عند أبي برزة ليلة فحدث ليلتئذ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلمين يموت لهما أربعة أفراط إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته» قالوا: يا رسول الله، وثلاثة؟ قال: «وثلاثة» قالوا: واثنان؟ قال: «وإن من من أمتي لمن يدخل الجنة بشفاعته مثل مضر» قال: «واثنان» قال: «وإن من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها»<sup>(١)</sup>.

وأخرج الإمام أحمد - رحمه الله -<sup>(٢)</sup> عن عبد الله بن شقيق قال: جلست إلى رهط أنا رابعهم بإيليا، فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعتي رجل من أمتي أكثر من بني تميم» قلنا: سواك يا رسول الله؟ قال: «سواي» قلت: أنت سمعته؟ قال: نعم، فلما قام قلت: من هذا؟ قالوا: ابن أبي الجعداء.

#### شفاعة المؤمنين الشهداء

روى أبو داود رحمه الله أن عمران بن عتبة الهمداني قال: دخلنا على أم الدرداء ونحن أيتام فقالت: أبشروا فإنني سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»<sup>(٣)</sup>.

روى الترمذي رحمه الله عن المقدم بن معدى كرب قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه».

هذا حديث حسن صحيح غريب<sup>(٤)</sup>.



(١) الحديث أخرجه أيضاً أحمد (١٢/٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٦٩/٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٤/٣).

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩).

قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١)

مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٢): حيث نفت الآية الشفاعة عن المخلوق استقلالاً بدون إذن

الله. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن المخلوق استقلالاً فيكون

طلبها من المخلوق شركاً، ومن ذلك طلبها من الأوثان التي زعموا أنهم يعبدونها من

أجل الشفاعة. اهـ.

الإعراب (٤):

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة للرد على المشركين الذين زعموا أن

الأصنام تشفع لهم. ومن اسم استفهام معناه النفي في محل رفع مبتدأ وذا اسم إشارة في

محل رفع خبر «من» والذي اسم موصول بدل أو «من ذا» كلها اسم استفهام مبتدأ و

«الذي» هو الخبر، واعلم أن «ذا» الواقعة بعد «ما» الاستفهامية يجوز جعلها اسم

موصول، اتفاقاً وأما الواقعة بعد «من» فالأكثر أنها اسم إشارة، و«يشفع» فعل مضارع

وفاعله مستتر تقديره هو، والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول ﴿عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

الظرف متعلق بيشفع أو بمحذوف حال من الضمير في يشفع وإلا أداة حصر وبإذنه الجار

والمجرور متعلقان بمحذوف حال. اهـ.

قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

هي كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ

يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ (٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ (٧).

(١) البقرة/ ٢٥٥.

(٢، ٣) الجديد (١٦٠).

(٤) الإعراب القرآني (١/ ٣٨٢، ٣٨٣). (٥) النجم/ ٢٦.

(٦) البقرة/ ٣٨ (٧) الأنبياء/ ٢٨.

عن ابن عباس: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يريد الملائكة مثل قوله ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ (١).

وعن سعيد بن جبير: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ قال: من يتكلم عنده إلا بإذنه؟ (٢)

وعن أبي العباس الضرير: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يذكر ربه بقلبه، حتى يأذن له (٣). اهـ.

قال ابن جرير (٤): (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ) لماليكه إن أراد عقوبتهم إلا أن يخليه ويأذن له بالشفاعة لهم، وإنما قال ذلك تعالى ذكره، لأن المشركين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فقال الله تعالى ذكره لهم: لى ما فى السموات وما فى الأرض مع السموات والأرض ملكاً فلا ينبغى العبادة لغيرى، فلا تعبدوا الأوثان التى تزعمون أنها تقربكم منى زلفى، فإنها لا تنفعكم عندى، ولا تغنى عنكم شيئاً، ولا يشفع عندى أحد لأحد إلا بتخليتى إياه والشفاعة لمن يشفع له من رسلى، وأوليائى، وأهل طاعتى. اهـ.

وقال البغوى (٥): ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بأمره. اهـ.

وقال ابن الجوزى (٦): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فيه رد على من قال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. اهـ.

وقال الفخر الرازى (٧): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ استفهام معناه الإنكار والنفى أى لا يشفع عنده أحد إلا بأمره. اهـ.

وقال القرطبى (٨): وتقرر فى هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء فى الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم الله وشرفهم الله، ثم لا يشفعون إلا لمن ارتضى.

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥٨٢/١) ونسبه للطبرانى فى «السنن».

(٢، ٣) تفسير ابن أبى حاتم (٤٨٩/٢). (٤) تفسير الطبرى (٧/٣/٣).

(٥) معالم التنزيل (٣/٣٦٠). (٦) زاد المسير (١/٢٥١).

(٧) التفسير الكبير (٤/١١/٧). (٨) تفسير القرطبى (١٠٨٢/٢ - ١٠٨٤).



قال ابن عطية: والذي يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلتين أو وصل، ولكن له أعمال صالحة..

ثم ذكر أحاديث الشفاعة في الصحيحين .

ثم قال تعقيباً على قول ابن عطية: (من لم يصل أو وصل) يحتمل أن يكون أخذه من أحاديث آخر. والله أعلم.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة اهـ.

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ في هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصورة على صور الصالحين، وغيرهم، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه فأنكر ذلك عليهم، وبين عظيم ملكوته وكبريائه وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام كقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾<sup>(٤)</sup> قال ابن جرير في هذه الآية. نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوئاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقال الله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(٥)</sup> وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء وغيرهم، والإذن راجع إلى الأمر فيما نص عليه، كمحمد ﷺ إذ قيل له: «اشفع تُشفع»، وكذلك قاله غير واحد من المفسرين. اهـ.

إشكال وجوابه:

فإن قيل إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: قال ابن عثيمين<sup>(٦)</sup>: إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت وأمره بالدعاء، إذن وزيادة.

وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبودهم، فهي شفاعة باطلة لأن

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٠٦).

(٤) هود، الآية: ١٠٥.

(٦) القول المفيد (١/٤٢٩).

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٩٢).

(٣) النبأ، الآية: ٣٨.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٧١.

وقوله: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (١).

الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم أهد.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي﴾ استفهام استنكارى بمعنى النفس، أى لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.



قوله: [وقوله: ﴿مَن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية

مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن كل مخلوق إلا بشرطين إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد.

قال القرعاوى (٤): حيث دلت الآية على أن الشفاعة لا تتأهل إلا بعد إذن الله ورضاه، فدل على أنها ملك لله، وطلبها من غير الله شرك أكبر، ومن ذلك طلبها من الأوثان التي زعموا أنهم يعبدونها لأجل الشفاعة أهد.

الإعراب (٥): الواو عاطفة، و(كم) خبرية في محل رفع مبتدأ، و(ومن ملك) في محل نصب تمييز (كم) الخبرية، وقد تقدم بحثه، و(فى السموات والأرض) صفة لـ(ملك) وجملة (لا تغنى شفاعتهم) خبر، (شيئاً) مفعول (تغنى) أو مفعول مطلق، أى شيئاً من الإغناء ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (إلا) أداة حصر و(من بعد) متعلق بـ(تغنى) و(أن) وما فى حيزها فى تأويل مصدر مجرور بالإضافة لبعده، و(الله) فاعل (يشاء) و(يرضى) معطوف على (يشاء). اهـ.

وقال ابن عثيمين (٦): (كم) خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين فى السماء ومع ذلك لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد إذن الله ورضاه. اهـ.

ما جاء فى الآية من كلام المفسرين

(١) [النجم: ٢٦]

(٢) القول المفيد (١/٤٢٩)

(٣، ٤) الجلايد (١٦٢).

(٥) إعراب القرآن الكريم لمحيى الدين درويش (٩/٣٥٧).

(٦) القول المفيد (١/٤٣١)

كقوله تعالى ﴿ولا يقبل منها الشفاعة﴾ ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة، ولكنه بين في مواضع أخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض.

فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وقد قال ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ وقال تعالى عنهم مقررأ لهم ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وقال ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وأما الشفاعة بدون إذنه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ والآية التي نحن بصدها - وقال: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً﴾ إلى غير ذلك من الآيات وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه من أنواع الكفر به جل وعلا، كما صرح بذلك في قوله ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا الذى قررنا من أن الشفاعة للكفار مستحيلة مطلقاً، يستثنى منه شفاعة ﷺ لعمه - كما تقدم - فهذه الصورة التى ذكرنا من تخصيص الكتاب بالسنة. اهـ (١).

وأخرج (٢) ابن المنذر، عن ابن جريج فى قوله (وكم من ملك . . .) الآية قال: لقلولهم الغرانقة ليشفعونا.

قال ابن جرير (٣). يقول تعالى ذكره ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَةُ اللَّهِ﴾ لانفع شفاعتهم عند الله لمن شفعاوا له (شيئا) إلا أن يشفعوا له (من بعد أن يأذن الله) لهم بالشفاعة (لمن يشاء) منهم أن يشفعوا له (ويرضى) يقول: ومن بعد أن يرضى للملائكة الذين يشفعون له أن يشفعوا له فتففعهم حينئذ شفاعتهم، وإنما هذا توبيخ من الله تعالى ذكره لعبدة الأوثان والمؤمن قريش وغيرهم الذين كانوا يقولون (مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فقال الله جل ذكره لهم ما تنفع شفاعة ملائكتى الذين هم عندى لمن شفعاوا له إلا من بعد إذنى لهم بالشفاعة له، ورضائى، فكيف بشفاعة من دونهم فأعلمهم أن شفاعة مايعبدون من دونه غير نافعتهم. أهـ.

وقال البغوى (٤) ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ويرجون

(٢) الدر المنثور (٦/١٦٤).

(٤) معالم التنزيل (٥/٢٥١).

(١) أضواء البيان (١/٦٢، ٦١).

(٣) تفسير الطبرى (١١/٢٧/٣٧).

شفاعتهم عند الله ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ في الشفاعة، ﴿لمن يشاء ويرضى﴾ يعني من أهل التوحيد.

قال ابن عباس : يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضى الله عنه .  
وجمع الكناية قوله ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ والمملك واحد ؛ لأن المراد من قوله ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ الكثرة فهو كقوله ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ . أهـ .

- وقال الزمخشري (١): يعني أن أمر الشفاعة ضيق وذلك أن الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم، واغتصاص السموات بجموعهم لوشفعوا بأجمعهم لأحد، لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً قط، ولم تنفع إلا إذا شفَعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له، ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم؟! أهـ .

وقال ابن الجوزي (٢) بنحو ما تقدم  
وقال الفخر الرازي (٣).

قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ .

وقد علم وجه تعلقها بما قبلها في الوجوه المتقدمة في قوله تعالى ﴿فَاللَّهُ الْآخِرَةُ﴾ إن قلنا إن معناه أن اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الأمر شيء ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ فلا يجوز إشراكهم فيقولون نحن لانشرك بالله شيئاً، وإنما نقول هؤلاء شفعاؤنا. فقال كيف تشفع هذه ومن في السموات لا يملك الشفاعة، وفيه مسائل .

المسألة الأولى : كم كلمة تستعمل في المقادير، إما لاستبانها فتكون استفهامية كقولك كم ذراعاً طولك وكم رجلاً جاءك أى كم عدد الجائين تستبين المقدار وهى مثل كيف لاستبانة الأحوال وأى لاستبانة الأفراد، وما لاستبانة الحقائق، وإما لبيانها على الإجمال فتكون خبرية كقولك كم رجل أكرمنى أى كثير منهم أكرمنى غير أن عليه أسئلة (الأول) لِمَ لَمْ يَجْزْ إِدْخَالُ مَنْ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِيَةِ وَجَازَ عَلَى الْخَبَرِيَةِ .

(١) الكشف (٤/ ٤٠) .

(٢) زاد المسير (٧/ ٢٨٠) .

(٣) التفسير الكبير (١٤/ ٢٨٦ - ٣ - ٨ ٣)

(الثانى) لم نصب مميز الاستفهامية وجر الذى للخبرية -

(الثالث) هى تستعمل فى الخبرية فى مقابلة رب فلم جعل اسماً مع أن رب حرف .  
أما الجواب عن الأول فهو أن من تستعمل فى الموضع المتعين بالإضافة تقول خاتم من  
فضة كما تقول خاتم فضة، وللمام تضاف فى الاستفهامية لم يجز استعمال ما يضاويه  
وسنين هذا الجواب .

والجواب عن السؤال الثانى: هو أن نقول إن الأصل فى المميز الإضافة .

وعن الثالث: هو أن كم يدخل عليه حرف الجر فتقول إلى كم تصبر، وفى كم يوم  
جئت، وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى إن كم إذا قرن بها من وجعل مميزه جمعاً  
كما فى قول القائل كم من رجال خدمتهم ويكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب  
وإن كانت للتقليل لكن لا تقوم مقام القليل، فلا يمكن أن يقال فى رب إنها عبارة عن  
قليل كما قلنا فى كم إنه عبارة عن كثير .

المسألة الثانية: قال شفاعتهم على عود الضمير إلى المعنى، ولو قال شفاعته لكان  
العود إلى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيت، وكم من رجل رأيتهم، فإن قلت  
هل بينهما فرق معنوى؟

قلت نعم، وهو أنه تعالى لما قال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ يعنى شفاعة الكل، ولو قال  
شفاعته لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لا تغنى شفاعته فربما كان يخطر ببال أحد  
أن شفاعتهم تغنى إذا جمعت، وعلى هذا ففى الكلام أمور كلها تشير إلى عظم الأمر  
(أحدها) كم فإنه للتكثير .

(ثانياً) لفظ الملك فإنه أشرف أجناس المخلوقات .

(ثالثها) فى السموات فإنها إشارة إلى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة .  
(رابعها) اجتماعهم على الأمر فى قوله ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ وكل ذلك لبيان فساد قولهم إن  
الأصنام يشفعون أى كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فإن الجماد أحسن  
الأجناس والملائكة أشرفها وهم فى أعلى السموات ولا تقبل شفاعة الملائكة فكيف تقبل  
شفاعة الجمادات؟! .

المسألة الثالثة: ما الفائدة فى قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ بمعنى كثير من الملائكة مع  
أن كل من فى السموات منهم لا يملك الشفاعة؟

تقول المقصود الرد عليهم في قولهم هذه الأصنام تشفع، وذلك لا يحصل بيان أن ملكا من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثيرة، ولم يقل ما منهم أحد يملك الشفاعة لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله كثير مع أن المقصود حاصل به، ثم ههنا بحث وهو أن في بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير، وفي البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلاهما على طريقة واحدة، وهو استقلال الباقي وعدم الاعتداد، ففي قوله تعالى ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه، وفي قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ﴾ وقوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله ﴿أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يجعل المخرج غير ملتفت إليه فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام، فإن كان الكلام مذكوراً لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل.

مثاله: يقال للملك كل الناس يدعون لك إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير، وإن كان الكلام مذكوراً لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه لأن المقصود غيره فلا يستعمل الكل.

مثاله: إذا قال الملك لمن قال له اغتتم دعائي كثير من الناس يدعون لي، إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له، فكذلك ههنا.

المسألة الرابعة: قال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ولم يقل لا يشفعون مع أن دعواهم أن هؤلاء شفاعونا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغني وقال تعالى في مواضع أخرى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ففي الشفاعة بدون الإذن وقال ﴿مَالِهِمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ نفى الشفيع وههنا نفى الإغناء؟

نقول هم كانوا يقولون هؤلاء شفاعونا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم، كما قال تعالى ﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ثم نقول نفى دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة، أما نفى دعواهم لأنهم قالوا الأصنام تشفع لنا شفاعاة مقربة مغنية فقال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ بدليل أن شفاعاة الملائكة لا تغني، وأما الفائدة فلا أنه لما استثنى بقوله ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ أى فيشنع ولكن لا يكون فيه بيان أنها تقبل وتغني أولاً تقبل، فإذا قال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ثم قال ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ فيكون معناه تغني فيحصل البشارة،

لأنه تعالى قال ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقال تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ والاستغفار شفاعه .  
 وأما قوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ليس المراد نفى الشفاعه وقبولها كما فى هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وإنما المراد عظمة الله تعالى ، وأنه لا ينطق فى حضرته أحد ولا يتكلم كما فى قوله تعالى ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

المسألة الخامسة: اللام فى قوله ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ تحتل وجهين:

(أحدهما) أن تتعلق بالإذن وهو على طريقين .

(أحدهما) أن يقال ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من الملائكة فى الشفاعه لمن يشاء الشفاعه ويرضى .

(الثانى) أن يكون الإذن فى المشفوع له لأن الإذن حاصل للكل فى الشفاعه للمؤمنين لأنهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص ، ويمكن أن ينزع فيه .

(وثانيهما) أن تتعلق بالإغناء يعنى إلا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعه فتعنى شفاعتهم لمن يشاء ويمكن أن يقال بأن هذا بعيد ، لأن ذلك يقتضى أن تشفع الملائكة ، والإغناء لا يحصل إلا لمن يشاء ، فيجاب عنه بأن التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فإن الملك إذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء .

المسألة السادسة: ما الفائدة فى قوله تعالى ﴿وَيَرْضَى﴾؟

نقول فيه فائدة الإرشاد ، وذلك لأنه لما قال ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كان المكلف متردداً لا يعلم مشيئته فقال ﴿وَيَرْضَى﴾ ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر ، فإنه تعالى قال ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فكأنه قال ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ثم قال ﴿وَيَرْضَى﴾ بياناً لمن يشاء ، وجواب آخر على قولنا: لا تعنى شفاعتهم شيئاً ممن يشاء ، هو أن فاعل يرضى المدلول عليه لمن يشاء كأنه قال ويرضى هو أى تغنيه الشفاعه شيئاً صالحاً فيحصل به رضاه كما قال ﴿وَيَرْضَى﴾ هو أن تغنيه الشفاعه وحيثئذ يكون يرضى للبيان لأنه لما قال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتَهُمْ﴾ إشارة إلى نفى كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء ، أن شفاعتهم تغنى شيئاً ولو كان قليلاً ويرضى

المشفوع له ليعلم أنها تغنى أكثر من اللازم بالاستثناء ويمكن أن يقال ﴿وَيَرْضَى﴾ لتبين أن قوله ﴿يَشَاءُ﴾ ليس المراد المشيئة التى هى الرضا، فإن الله تعالى إذا شاء الضلالة بعد لم يرض به، وإذا شاء الهداية رضى فقال ﴿لَمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ليعلم أن المشيئة ليست هى المشيئة العامة، إنما هى الخاصة. اهـ.

[قلت] وقوله ﴿يَشَاءُ﴾ ليس المراد المشيئة. . إلخ

وهذا فيه شيء من التأويل، والإخبار بالمشيئة على ظاهره فلا تؤول ولا تعطل ولا تكيف. والله الهادى إلى سواء السبيل

- وقال القرطبي<sup>(١)</sup>: بنحو مما تقدم، وقال، (كم) تدل على الجمع. اهـ

وقال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله وهو تعالى لم يشرع عبادتها، ولا أذن فيها بل قد نهى عنها على ألسنة جميع الرسل، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟! اهـ.

- وقال الشوكانى<sup>(٣)</sup> بنحو من الأقوال السابقة

ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

- قال سليمان آل الشيخ<sup>(٤)</sup>:-

قال أبو حيان: كم خيرية ومعناها التكثير وهى فى موضع رفع بالابتداء والخبر لا تغنى. والغناء جلب النفع ودفع الضرر بحسب الأمر الذى يكون فيه الغنى. وكم: لفظها مفرد، ومعناها جمع. وإذا كانت الملائكة المقربون لا تغنى شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه أن يرضاه أهلاً للشفاعة، فكيف تشفع الأصنام لمن عبدها!؟

قلت - سليمان الشيخ -: فى هذه الآيات من الرد على من عبد الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها ما لا يخفى، لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بإذن من الله ابتداء، فلا معنى يدعون ويعبدون؟ وأيضاً فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضى قوله وعمله، وهو الموحد لا المشرك كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ والله لا يرضى إلا التوحيد كما قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. اهـ.

(١) تفسير القرطبي (٦٢٧٤/٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٤٦/٤).

(٣) فتح القدير (١٠٩/٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٠٦).



- وتابعه على ذلك باقى الشراح

- وقال ابن باز<sup>(١)</sup>: فيين سبحانه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنهم لا يشفعون إلا لمن أرتضى، وأن الملائكة لا تملك إذناً فى الشفاعة بل يملكها الله وحده، فإذا كان هذا حال الملائكة والأنبياء والرسل لا يشفعون إلا بعد الإذن والرضا عن المشفوع بغيرهم من الصالحين والأطفال والأفراد من باب أولى . أهـ.

- وقال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: فللشفاعة شرطان هما:

(١) الإذن من الله (٢) رضاه عن الشافع والمشفوع له . إلى أن قال: وهذه الآية فى سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى وقال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي ﷺ فيه (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى العلامات الدالة عليه عز وجل، فكيف به سبحانه؟! فهو أكبر وأعظم ثم قال: فإذا كانت الملائكة وهى فى السماوات فى العلو لا تغنى شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه فكيف باللات والعزى وهى فى الأرض؟! ولهذا قال ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ مع أن الملائكة تكون فى السماوات وفى الأرض، ولكن أراد الملائكة التى فى السماوات العلى وهى عند الله سبحانه، فحتى الملائكة المقربون حملة العرش لا تغنى شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . أهـ.

قلت: وهذا القول قريب من قول الزمخشري المتقدم

- فبينت الآية شرطية الشفاعة، فما هى موانعها؟

موانع الشفاعة

[١] عدم الرضى عن الشافع

فقد يكون الشافع موحداً لكن لا يرضى الله بعض قوله أو عمله كما ثبت فى صحيح مسلم رحمه الله عن أبى الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

لذلك قال ابن القيم: ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله كما قال فى الفصل الأول «من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه» الآية وفى الثانى «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» الآية.

(١) التعليق (١٠٤، ١٠٥)

(٢) القول المفيد (١/٤٣١، ٤٣٢).

(٣) سيأتى

وقوله: ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ \* وَلَا تَتَفَعَّلُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (١).

[٢] عدم الإذن له

فقد يكون العبد موحداً مرضياً عنه لكن لا يؤذن له.  
يستدل لذلك بأن الصحابة جميعاً رضى الله عنهم ورضوا عنه.  
ولم يثبت أنهم جميعاً شفعا.  
(من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه).  
ومن الموانع العامة للشفاعة أيضاً

[٣]- التكذيب بالشفاعة

أخرج الإمام الأجرى رحمه الله فى الشريعة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: من كذب بالشفاعة فليس له فيها نصيب (٢).  
وتقدم فى النوع الرابع من شفاعته ﷺ قول أبى بكر - ابن أبى عاصم - أن منكر الشفاعة كافر

الموانع الخاصة وهى ترك الأسباب الخاصة للشفاعة الخاصة.

قوله: [وقوله: ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾].

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على نفي الشفاعة عن كل مخلوق إلا بشرطين: إذن الله للشافع. ورضاه عن المشفوع له. أ.هـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٤): حيث دلت الآية على أن الشفاعة لا تنال إلا بعد إذن الله ورضاه فدل على أنها ملك لله وطلبها من غير الله شرك أكبر ومن ذلك طلبها من الأوثان التى زعموا أنهم يعبدونها لأجل الشفاعة. أ.هـ.

الإعراب (٥): ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قل فعل أمر مبنى على

(١) سبأ (٢٢-٢٣)

(٢) قال الحافظ فى الفتح ١١ / ٤٢٦: وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن أنس فذكره.

(٣) (٤) الجديد (١٦٢، ١٦٣). (٥) إعراب القرآن (٨/٨٦-٨٨).

السكون وحرك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين وجملة (ادعوا الذين) مقول القول وجملة (زعمتم) صلة (ومن دون الله) صفة للمفعول الثانى المحذوف والمفعول الأول محذوف أيضاً تقديره زعمتمهم آلهة فحذف الأول لطول الموصول بصلته وحذف الثانى لقيام صفته، أعنى من دون الله مقامه. وهذا من أعجب الكلام وأركده ونحن نقل لك عبارة الزمخشري بنصها فى هذا الصدد قال: «فإن قلت أين مفعولاً زعم؟

قلت: أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول وأما الثانى فلا يخلو إما أن يكون من دون الله أو لا يملكون أو محذوفاً فلا يصح الأول لأن قولك هم من دون الله لا يلتزم كلاماً ولا الثانى لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد فبقى أن يكون محذوفاً تقديره: زعمتمهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف فى قوله: (أهدا الذى بعث الله رسولاً) استخفافاً لطول الموصول بصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون الله والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً فإذا مفعولاً زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين».

﴿لا يملكون مثقال ذرة فى السموت ولا فى الأرض﴾ الجملة حال من الذين زعمتمهم آلهة ولك أن تجعلها مستأنفة مسوقة لبيان حالهم (ولا) نافية (ويملكون) فعل مضارع وفاعل (ومثقال ذرة) مفعول به (وفى السموات والأرض) متعلقان (ببملكون) أو بمحذوف حال. ﴿وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير﴾ (الواو) عاطفة (وما) نافية (ولهم) خير مقدم (وفيهما) حال (ومن) حرف جر زائد (وشرك) مجروراً لفظاً مرفوعاً محلاً على أنه مبتدأ مؤخر أو اسم على رأى من يجيز تقدم خبرها على اسمها (والواو) عاطفة أيضاً (وما) نافية (وله) خبر مقدم (ومنهم) حال (ومن ظهير) مبتدأ مؤخر.

(ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الكلام مستأنف مسوق لبيان المصير الذى لاتنفع فيه شفاعة الشافعين إلا لمن سبق القلم بالإذن له، ولا نافية، (وتنفع الشفاعة) فعل مضارع وفاعل (وعنده) ظرف متعلق (بتنفع) أو بمحذوف حال، وإلا أداة حصر ولن متعلقان بالشفاعة إذ يقال شفعت له أو بتنفع.

وللزمخشري بحث لطيف فى متعلق هذه اللام نوره بنصه قال: «تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول: الكرم لزيد على معنى أنه المشفوع له كما تقول: القيام لزيد فاحتمل قوله: ولاتنفع الشفاعة إلا لمن أذن له أن يكون على أحد هذين الوجهين أى لاتنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أولاً تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أى لشفيعه أو هى اللام الثانية فى قولك: أذن لزيد لعمرى أى لأجله،

وكأنه قيل: إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله، وهذا وجه لطيف وهو الوجه». (وأذن) فعل ماض مبنى للمعلوم والفاعل مستتر يعود على الله، وله متعلقان بأذن وقرئ أذن بالبناء للمجهول. اهـ.

● ما جاء من كلام المفسرين فى الآية:

- قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: يقول تعالى ذكره: ولاتنفع شفاعة شافع كائناً من كان لمن شفيع له إلا أن يشفع لمن أذن الله فى الشفاعة يقول تعالى فإذا كانت الشفاعات لاتنفع عند الله أحداً إلا لمن أذن الله فى الشفاعة له، والله لا يأذن لأحد من أوليائه فى الشفاعة لأحد من الكفرة به، وأنتم أهل كفر به أيها المشركون، فكيف تعبدون من تعبدونه من دون الله زعماً منكم أنكم تعبدونه ليقربونكم إلى الله زلفى، وليشفع لكم عند ربكم فمن إذ كان هذا معنى الكلام فى قوله إلا لمن أذن له المشفوع له. اهـ.

- قال البغوى<sup>(٢)</sup>: (ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الله فى الشفاعة، قاله تكذيباً لهم حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن الله له أن يشفع له، وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائى (أذن) بضم الهمزة. اهـ.

- وقال القرطبى<sup>(٣)</sup>: (ولاتنفع الشفاعة) أى شفاعة الملائكة وغيرهم. اهـ.  
وبنحو مما تقدم قال به باقى المفسرين. والله المستعان.

قال سليمان آل الشيخ: هذه الآية هى التى قال فيها بعض العلماء: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها.

قال ابن القيم فى الكلام عليها: وقد قطع الله الأسباب التى يتعلق بها المشركون جميعها قطعاً، يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً فمثله: ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن يكون فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معنياً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً متقللاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التى يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهى الشفاعة بإذنه،

(٢) معالم التنزيل (٤/٥٠٦).

(١) تفسير الطبرى (١٠/٢١/٦٢).

(٣) تفسير القرطبى (٨/٥٣٧٧).

قال: فهو الذى يأذن للشافع، وإن لم يأذن له لم يتقدم فى الشفاعة بين يديه كما يكون فى حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها، وأما كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغنى بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟

فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاةً وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحتها، وتضمنه له ويظنه فى نوع، وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا الذى يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما دعا به القرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه الذى كان عليه الجاهلية، أو نظيره أو شر منه أو دونه، فتتنقض بذلك عرى الإسلام، ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والبدعة سنةً والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حى يرى ذلك عياناً، فالله المستعان.

وقال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (١) فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى. وما أعز من يخلص من هذا بل ما أعز من يعادى من أنكره. والذى فى قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن ألتهتم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكره الله عليهم فى كتابه، وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد. إلا لمن أذن الله تعالى أن يشفع له فيه، ورضى قوله وعمله. وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء، فإنه سبحانه وتعالى يأذن فى الشفاعة فيهم لمن يشاء، حيث لم يتخذوهم شفعاء من دونه؛ فيكون أسعد الناس بشفاعته من يأذن الله

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

تعالى له، صاحب التوحيد الذى لم يتخذ شفيعاً من دون الله. والشفاعة التى أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ هى الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده والتى نفاها الله تعالى هى الشفاعة الشركية التى فى قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض مقصودهم من شفاعتهم، ويفوز بها الموحدون. انتهى. أى كلام ابن القيم.

ولكن تأمل الآية كيف أمرهم تعالى بدعاء الملائكة أمر تعجيز، والمراد بيان أنهم لا يملكون شيئاً، فلا يدعون لا لشفاعة ولا غيرها، ثم أخبر أنهم هم الذين اتخذوهم بزعمهم شفعاء فنسبه إلى زعمهم وإفكهم الذى ابتدعوه من غير برهان ولا حجة من الله.

وهذه الآية نزلت فى دعوة الملائكة، ودخول غيرهم فيها من باب الأولى، كما روى ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾<sup>(١)</sup> يقول: من عون من الملائكة. وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> فإذا كان اتخاذ الملائكة شفعاء من دون الله شركاً، فكيف باتخاذ الأموات كما يفعله عباد القبور؟ أم كيف باتخاذ الفجار والفساق إخوان الشياطين من المجازيب الذين جذبهم إبليس إلى جانبه وطاعته شفعاء؟

وأعظم من ذلك اعتقاد الربوبية فى هؤلاء الملعين مع ما يشاهده الناس منهم من الفجور، وأنواع الفسوق، وترك الصلوات، وفعل المنكرات، والمشى فى الأسواق عراة.

كما قال بعض المتأخرين:

كقوم عراة فى ذرى مضر ما	على عورة منهم هناك ثياب
يدورون فيها كاشفين لعورة	تواتر هذا لا يقال كذاب
يعدونهم فى مصر هم فضلاءهم	دعاؤهم فيما يرون مجاب

ومن العجب أنهم لم يأتوا بشيء يدل على كون هؤلاء الشياطين من جملة المسلمين، فضلاً عن كونهم أولياء، فضلاً عن كونهم يدعون ويستغاث بهم، إلا بشيء من المخاريق والسحر والشعبذة، يدعون أن لهم كرامات، وأنهم أولياء لما يظهره من المخاريق.

(١) سورة سبأ : ٢٢

قال أبو العباس: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب؛ كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (١). فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة؛ كما نفاها القرآن.

وأخبر النبي ﷺ: «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده - لا يبدأ بالشفاعة أولاً - ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع» (\*).

واعلم أن الضلال والكفر إنما استولى على أكثر المتأخرين بسبب نهبهم كتاب الله وراء ظهورهم، وإحسان الظن بمن سحرهم، ودعا إلى نفسه، واقتصارهم على القوانين والدعاوى والأوضاع التي وضعوها لأنفسهم، وإلا فلو قرأوا كتاب الله، وعلموا بما فيه، ورجعوا عند الاختلاف إليه لوجدوا فيه الهدى والشفاء والنور ولكن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون وتقدم الكلام على بقية الآية اهـ.



قوله: قال أبو العباس: «نفى الله عما سواه... الخ»

قال سليمان آل الشيخ (\*\*): قوله: (قال أبو العباس) هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية، الإمام المشهور، صاحب «المصنفات» شهرته وإمامته في علوم الإسلام وتفننه تغنى عن الإطناب في وصفه. قال الذهبي: لم يأت قبله بخمس مائة سنة مثله، وفي رواية: بأربع مائة. وقال أيضاً: لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى لم أر مثله، وما رأى بعينه مثل نفسه رحمه الله.

وقال ابن دقيق العيد: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه، يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء. وبالجملة فما أتى بعد عصر الإمام أحمد له نظير، وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وسبعمئة).

قوله: (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون) أى أن الله تعالى نفى في الآية المذكورة كل ما يتعلق به المشركون من الاعتقاد في غير الله من الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة؛ فهذه الأمور الأربعة هي التي يتعلق بها المشركون.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(\*) جزء من حديث طويل.

(\*\*) تيسير العزيز الحميد (١١٢ - ٢١٩).

قوله: (فنفى أن يكون لغيره ملك)، وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١) ومن لا يملك هذا المقدار فليس بأهل أن يدعى .

قوله: (أو قسط منه). أى من الملك، والقسط - بكسر القاف - هو النصيب من الشىء، وذلك فى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ﴾ أى ما لمن تدعون من الملائكة وغيرهم فيها، أى فى السموات والأرض من شرك ومن ليس بملك ولاشريك للمالك فكيف يدعى من دون الله؟

قوله: (أو أن يكون عوناً لله) وذلك فى قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ أى ما لله ممن تدعونهم معين .

قوله: (ولم يبق إلا الشفاعة، فتبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب.. إلخ) جملة الشروط التى لا بد وأن يكون أحدها فى المدعو، أربعة حتى يقدر على إجابة من دعاه .

الأول: الملك، فنفاه بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

الثانى: إذا لم يكن مالكاً فيكون شريكاً للمالك، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ﴾ .

الثالث: إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك فيكون عوناً ووزيراً فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ .

الرابع: إذا لم يكن مالكاً ولاشريكاً ولا عوناً فيكون شقيقاً، فنفى سبحانه وتعالى الشفاعة إلا بإذنه، فهو الذى يأذن للشافع ابتداءً فيشفع .

فبنفى هذه الأمور بطلت دعوة غير الله، إذ ليس عند غيره من النفع والضرر ما يوجب قصده بشىء من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٢) .

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ \* لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ (٣) .

(١) سورة سبأ الآية: ٢٢ . (٢) الفرقان: ١٣

(٣) يس: ٧٤



وقال تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (١).

قال ابن عثيمين (٢): فيبين أنها لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ وقال ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ومعلوم أنه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحيثئذ فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أن شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن، فهو في طاعة المخلوق في المعصية، فإن هؤلاء يقصدون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنهم بشر مثلكم، خرجوا من مخرج البول والحیض، وليس لهم شرك في السماوات ولا في الأرض، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله، إذاً، فكيف تتعلقون بهم؟! حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين. والواجب علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله، وليست استقلالاً، أما عبادتهم كعبادة الله، فهذه جاهلية وكفر.

قوله: (فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون. هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن).  
يعنى أن الشفاعة التي يطلبها المشركون من الشفعاء والأنداد من دون الله منتفية دنيا وأخرى، كما قال تعالى عن مؤمن يس: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرِّهِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَذُونَ﴾ \* إني إذا لفي ضلال مبين (٣) وقال تعالى: عن مؤمن آل فرعون: ﴿لَا جرمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (٦).

(٢) القول المفيد (١/٤٣٦، ٤٣٧).

(١) الفرقان: ٥٥

(٣) سورة يس، الآيات: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة غافر الآية: ٤٣.

(٥) سورة الأحقاف الآية: ٢٨.

(٦) سورة هود، الآية: ١٠١.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) فهذه حال كل من دعى من دون الله لشفاعته أو غيرها في الدنيا والآخرة.

قوله: (وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً.. إلى آخره).

هذا ثابت في «الصحيحين» (\*) وغيرهما من حديث أنس وغيره عنه ﷺ في حديث الشفاعة قال: « فَأَقُومُ فَأَمْشِي بَيْنَ سَمَاطَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى أَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ لَهُ، أَوْ خَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدْعَنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ قَالَ: أَرْفَعُ مُحَمَّدًا، قُلْ تَسْمَعُ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَهُ فَأَرْفَعُ رَأْسَ فَأَحْمَدُ بِتَحْمِيدِ يَعْلَمَنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ، أَوْ خَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدْعَنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: أَرْفَعُ مُحَمَّدًا، قُلْ يَسْمَعُ [وَسَلْ] فَتُعْطَهُ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يَعْلَمَنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ الثَّلَاثَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ، أَوْ خَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي، فَيَدْعَنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ يَقَالُ: أَرْفَعُ مُحَمَّدًا، قُلْ يَسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يَعْلَمَنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مَا بَقِيَ إِلَّا مِنْ حِسْبَةِ الْقُرْآنِ... الحديث.

فبين ﷺ أنه لا يشفع إلا بعد الإذن في الشفاعة وفي المشفوع فيهم، كما قال: «فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ».

قوله: (وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك إلى آخره). هذا الحديث رواه البخارى ومسلم والنسائى.

وعن أبى هريرة قال: قلت: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَّ مِنْكَ، لِمَا

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٤.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(\*) تقدم وهو فى الصحيحين، بغير هذا اللفظ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُ ﷺ: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ» (١) فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَأَسْطَةِ دُعَاءٍ مِنْ أَدْنَى لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِكُرْمِهِ، وَيُنَالُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ. فَالْشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَّاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أُثْبِتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ.

رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ»

وفى رواية: «خَالِصاً مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ» رواه أحمد من طريق آخر، وصححه ابن حبان، وفيه: «وَشَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً، يُصَدِّقُ قَلْبُهُ لِسَانَهُ وَلِسَانُهُ قَلْبُهُ» قال شيخ الإسلام: فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم إخلاصاً.

قال ابن القيم رحمه الله فى معنى حديث أبى هريرة: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التى تُنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم [أولياءهم] شفعاء وعبادتهم وموالاتهم [من دون الله]، فقلب النبى ﷺ ما فى زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحيثذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتَّخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الولاية والمملوك تنفع من والاهم، ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فى الشفاعة، ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله، كما قال فى الفصل الأول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وفى الفصل الثانى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ وبقى فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيداً واتباع رسول الله ﷺ، فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ووعاها. اهـ.

قوله: «من أسعد الناس بشفاعتك» لعل أبى هريرة سئل عن ذلك عند تحديته له - ﷺ - وأريد أن اختبئى دعوتى شفاعته لامتى فى الآخرة.

(١) تقدم.

وقوله: «أسعد».

قال ابن حجر: ومعنى قوله فى معنى «أسعد» الفعل لا أنها أفعل التفضيل أى سعيد الناس، كقوله تعالى: «وأحسن مقيلاً» ويحتمل أن يكون أفعل التفضيل على بابها، وأن كل أحد يحصل له سعد بشفاعته، لكن المؤمن المخلص أكثر سعادة بها، فإنه - ﷺ - يشفع فى الخلق لإراحتهم من هول الموقف، ويشفع فى بعض الكفار بتخفيف العذاب كما صح فى حق أبى طالب، ويشفع فى بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها، وفى بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها، وفى بعضهم بدخول الجنة بغير حساب، وفى بعضهم برفع الدرجات فيها، فظهر الاشتراك فى السعادة بالشفاعة وأن أسعدهم بها المؤمن المخلص<sup>(١)</sup>: والله أعلم. اهـ.

[قلت] وتقدم تقسيم شفاعته ﷺ إلى أقسام فراجعها.

وقال فى موضع آخر<sup>(٢)</sup>: والحاصل أن فى قوله: «أسعد» إشارة إلى اختلاف مراتبهم فى السبق إلى الدخول باختلاف مراتبهم فى الإخلاص، ولذلك أكده بقوله: «من قلبه» مع أن الإخلاص محله القلب، لكن إسناد الفعل إلى الجارحة أبلغ فى التأكيد، وبهذا التقرير يظهر موقع قوله: «أسعد» وأنها على بابها من التفضيل، ولا حاجة إلى قول بعض الشراح الأسعد هنا بمعنى السعيد لكون الكل يشتركون فى شرطية الإخلاص، لأننا نقول يشتركون فيه لكن مراتبهم فيه متفاوتة.

وقال البيضاوى: يحتمل أن يكون المراد من ليس له عمل يستحق به الرحمة والإخلاص، لأن احتياجه إلى الشفاعة أكثر وانتفاعه بها أوفى والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ: وقال فى الحديث الصحيح: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ لى الوَسِيلَةِ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتى يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup> ولم يقل: كان أسعد الناس بشفاعتى، فعلم أننا يحصل للعبد بالتوحيد والإخلاص من شفاعته الرسول ﷺ وغيرها ما لا يحصل بغيره من الأعمال، وإن كان صالحاً لسؤال الوسيلة للرسول ﷺ، فكيف بما لم يأمر به من الأعمال، بل نهى عنه، فذلك لا ينال به خير لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، مثل غلو النصارى فى المسيح، فإنه يضرهم ولا ينفعهم.

ونظير هذا فى «الصحيح» عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِ اخْتَبَأْتُ دَعْوَتى شَفَاعَةٌ لِأُمَّتى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتى لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً» وكذلك فى أحاديث الشفاعة كلها إنما يشفع فى أهل التوحيد،

(٢) فتح البارى (١١/٤٥١).

(١) الفتح ١/٢٣٤/ح ٩٩.

(٣) تقدم.

فبحسب توحيد العبد لربه، وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها وقال ابن القيم ما معناه: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التى تنال به شفاعته تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعباداتهم وموالاتهم من دون الله فقلب النبي ﷺ ما فى زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

قوله: وحقيقته. أى حقيقة الأمر، أى أمر الشفاعة أن الله سبحانه هو الذى يفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود. فهذا هو حقيقة الشفاعة لا كما يظن المشكون والجهال أن الشفاعة هى كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء فيدخله الجنة وينجيه من النار ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم إذا زاروهم وذلك أنهم قالوا: إن الميت المعظم الذى لروحه قرب ومزية عند الله لاتزال تأتيه الألفاظ من الله وتفيض على روحه الخيرات فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألفاظ بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له. قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره وكل ما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به وشفاعته له.

**قال ابن القيم:** وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابى وغيرهما وصرح بها عباد الكواكب فى عبادتها وقالوا: إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور. وبهذا السر عُبِدَت الكواكب واتخذت لها الهياكل وصنفت لها الدعوات واتخذت الأصنام المجسدة لها، وهذا بعينه هو الذى أوجب لعباد القبور اتخاذ أعياد وتعليق الستور عليها، وإيقاد السرج عليها، وبناء المساجد عليها، وهو الذى قصد الرسول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية، وسد الذرائع المفضية إليه؛ فوقف المشركون فى طريقه وناقضوه فى قصده وكان ﷺ فى شق وهؤلاء فى شق.

وهذا الذى ذكره هؤلاء المشركون فى زيارة القبور هو الشفاعة التى ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله.

قالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله، وتوجه بهمته إليه، وعكف بقلبه عليه، صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله، وشبهوا ذلك بمن يخدم دأ جاه وحظوة وقرب من السلطان؛ فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به. فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذى بعث الله رسله، وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه،

ولعنهم، وأباح دماءهم، وأموالهم، وسبى ذراريهم، وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره، مملوء من الرد على أهمه وإبطال مذهبهم. انتهى (١).

قوله: «بشفاعتك».

المراد بها بعض أنواع الشفاعة وهي التي يقول - ﷺ - «أمتى أمتى، فيقال له أخرج من النار من كان في قلبه وزن كذا من الإيمان»، وأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه، وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من قلب الموقف فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة، وهم الذين يدخلونها بغير حساب ثم الذين يلونهم وهو من يدخلها بغير عذاب، بعد أن يحاسب ويستحق العذاب. ثم من يصيبه لفتح من النار ولا يسقط.

قوله: «من قال لا إله إلا الله».

احتراز من المشرك، والمراد مع قوله «محمد رسول الله» لكن قد يكتفى بالجزء الأول من كلمتي الشهادة لأنه صار شعاراً لمجموعهما.

قوله: «خالصاً» احتراز من المنافق، لأن المنافق يقولها. ولكنها ليست بإخلاص ولا صدق، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

### الحكمة من الشفاعة

(١) تفضل من الله على المشفع فيه.

أسند ابن أبي عاصم عن أنس أن نبى الله ﷺ قال: «لِيُصِيبَنَّ أَقْوَاماً سَفَعَ مِنَ النَّارِ عَقُوبَةٌ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا ثُمَّ لِيَدْخُلَهُمُ الْجَنَّةُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ» (٢).

وأسند أيضاً عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فِيؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (\*) قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله قال: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا (٣).

(١) تقدم

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم (٨٤٥)، البخارى (٤/٤٦٨).

(\*) النساء: ١٧٣.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم (٨٤٦).

(٢) كرامة يظهرها الله للشافع سواء كان نبى أو ملك من الملائكة أو صديق أو شهيد أو حافظ للقرآن أو مؤمن من المؤمنين.  
والأحاديث فى ذلك تقدمت.

وأسند ابن أبى عاصم عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يقال: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة» (١).

وأسند عن أبى سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه ما يزن شعيرة» فيه كلام طويل» (٢).  
قوله: (وينال المقام المحمود). أى المقام الذى يحمده فيه الخلاق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل ذلك المقام الذى يقومه ﷺ الشفاعة للناس ليريحهم ربهم مما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وقال ابن عباس: المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد.  
وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود.

قوله: (فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك). يعنى أن الشفاعة التى نفاها الله فى القرآن هى الشفاعة التى فيها شرك بالله من دعاء غير الله وعبادته ليشفع له عند الله، فإن الله سبحانه تفى هذه الشفاعة وأخبر أنها لا تكون أبداً، بل أخبر أن ذلك شرك، ونزه نفسه عنه، ونفى أن يكون للمؤمنين ولى أو شفيع من دونه، مع أن الشفاعة يوم القيامة لهم بإذنه، لا للمشركين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ فنفى سبحانه أن تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن ورضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص. وأما الشرك الداعى لغير الله ليشفع له فلا تنفعه الشفاعة، ولا يؤذن لأحد فى الشفاعة فيه. كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

(١) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٤٩)، وهو فى مسلم.

(٢) المصدر السابق (٨٥٢)، وهو فى مسلم أيضاً.

## فيه مسائل

- الأولى: تفسير الآيات.  
الثانية: صفة الشفاعة المنفية.  
الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.  
الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.  
الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له، شفّع.

● تنبيه: مسأله الاستشفاع بالله على خلقه ستأتى وأدلتها وحكمها فى الباب الرابع والستين والله المستعان.

قوله: (وقد بين النبي ﷺ إلى آخره.) تقدم ما يتعلق بذلك والله أعلم.

قوله: [فيه مسائل]:

قال ابن عثيمين:

● الأولى: تفسير الآيات.

وهى خمس، وسبق تفسيرها فى محالها.

● الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

وهى ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك؛ فإنها منفية.

[قلت]: والادلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى عن الظلمة المشركين ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يَطَاعُ﴾.

وقوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾

● الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

وهى شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع.

● الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهى المقام المحمود.

وهى الشفاعة فى أهل الموقف أن يقضى بينهم، وقول الشيخ: «وهى المقام المحمود»؛

أى منه.

● الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له؛ شفّع.



السادسة: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِهَا؟

السابعة: أَنَّهُ لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، وهو ظاهر، وهذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي ﷺ.

[قلت]: فبين أن الشفاعة لا بد له من عمل هو شرطها فإذا وفى بالشرط بقى الإذن فإذا كان فى حق الرسول فهى حق غيره من باب أولى.

● السادسة: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِهَا؟

هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه. ولا إله إلا الله معناه: لا معبود حق إلا الله، وليس المعنى: لا معبود إلا الله؛ لأنه لو كان كذلك؛ لكان الواقع يكذب هذا، إذ إنَّ هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمى آلهة، ولكنها باطلة، وحيث يتعين أن يكون المراد لا إله حق إلا الله.

ولا إله إلا الله تتضمن نفيًا وإثباتًا، هذا هو التوحيد؛ لأنَّ الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، والنفى المجرد تعطيل محض، فلو قلت: لا إله معناه عطَّلت كل إله، ولو قلت: الله إله ما وحدت؛ لأن مثل هذه الصيغة لاتممع المشاركة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ﴾ (١) لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

قلت: ولما كانت مراتب الناس فى التوحيد متفاوتة - كما تقدم - فى باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب كانت أيضاً الشفاعة مراتب متفاوتة بتفاوت مراتب الموحدين فمن أتى بالتوحيد المطلق له الشفاعة المطلقة وهو أسعد الناس بهما ومن فقد حصة من توحيدده فقد قدرها حصة من الشفاعة فهو وإن كان سيسعد بها إلا أن الأول أسعد منه فالحصة للحصة والمطلق للمطلق.

● السابعة: أَنَّهُ لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، وغير ذلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «خالصاً من قلبه».

● الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود أ هـ.

[قلت]: وتقدم أدلة ذلك والله الموفق.



## باب (١٧)

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

- مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال ناصر السعدي (٢): وهذه الباب أيضاً نظير الباب الذي قبله؛ وذلك أنه إذا كان ﷺ وهو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاهاً وأقربهم إليه وسيلة لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق. وإنما الهداية كلها بيد الله. فهو الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات فتبين بأنه الإله الحق.

قال ابن عثيمين (٣): مناسبة أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحداً بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحداً، فيقوم بما أمر الله به. اهـ.

قلت: وأيضاً لأن طلب الهداية من غير الله كطلب الشفاعة والسفح - الذي لا يرجى إلا من الله - من غير الله، وهذا شرك، والتوحيد طلب ذلك من الله، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ولأن طواغيت العالم ادعت ذلك لنفسها وشاركت الله - رب العالمين - فى ذلك، قال فرعون: ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ورد الله عليه بقوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾.

فكان لزاماً على المصنف لهذا وغيره، أن يبين التوحيد بدلائله الذى منها نفى الهداية عن من سوى الله، وطلبها منه سبحانه وتعالى.

- ماذا أراد المصنف بهذا الباب؟

قال حامد بن محمد بن حسن (٤): باب بيان ما يدل على أنه لا يهدى الهداية الجامعة للعلم والعمل والتعليم والصبر إلا الله من الكتاب والسنة.

أما من الكتاب فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. وستأتى أدلة ذلك.

قال سليمان آل الشيخ (٥): أراد المصنف - رحمه الله - الرد على عباد القبور الذين

(٢) القول السديد ٥٩ و ٦٠.

(١) القصص ٥٦.

(٤) فتح الله الحميد المجيد ٢٧٥.

(٣) القول المفيد ١/٤٤٧.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢١٩.

يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكرب وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية:

ثم قال: فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه، تبين، له بطلان قولهم وفساد شركهم، لأن رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأقربهم من الله، وأعظمهم جاهاً عنده، ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبي طالب في حياة أبي طالب وعند موته. فلم يتيسر له ذلك ولم يقدر عليه. اهـ.

- مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى<sup>(١)</sup>: حيث دلت الآية على نفي هداية التوفيق عن النبي ﷺ وهو أكرم الخلق فإذا انتفت عنه وهو بهذه المنزلة ففيها عن غيره أولى.

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى<sup>(١)</sup>: حيث دلت الآية على أن هداية التوفيق مختصة بالله فيكون طلبها من غير الله شركاً.

الإعراب<sup>(٢)</sup>: كلام مستأنف مسوق لبيان حرصه على إيمان عمه أبي طالب وأن واسمها وجملة (لاتهدى) خبرها والفاعل مستتر تقديره أنت مفعول به وجملة (أحييت) صلة (ولكن الله) الواو عاطفة أو حالية (ولكن) واسمها وجملة (يهدى) خبرها (ومن يشاء) مفعول به (وهو) مبتدأ و(أعلم) خبر و(بالمهتدين) متعلقان بـ (أعلم).

التفسير بالقرآن:

قال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَيْنَا هَدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٧) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾<sup>(٤)</sup>.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾<sup>(٥)</sup>.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

(٣) الحديد ١٦٨.

(٢) اعراب القرآن ٣٥٢/٧.

(٣) النحل / ٣٧. (٤) الليل / ١٢.

(٥) البقرة / ١٢٠. (٦) آل عمران / ١٢٨.

قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢).

وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

وقال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (٤).

التفسير بالسنة:

قال ﷺ في خطبة الحاجة: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره... إنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.. الحديث (٥).

وكان ﷺ يستفتح صلاة الليل بأدعية منها: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (٦).

«اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت» (٧).

مسألة

قوله «إنك لاتهدي من أحببت».

تقدم أنها نزلت في عم النبي ﷺ وهو كافر. فكيف كان يحبه!؟

قال ابن الجوزي (٨).

فيها قولان:

أحدهما: من أحببت هدايته وكذا قال القرطبي من أحببت أن يهتدى

قلت: تقدير الكلام «من أحببت هدايته»

(١) الفاتحة / ٦. (٢) يونس / ٣٥.

(٣) يوسف / ١٠٣. (٤) الكهف / ١٧.

(٥) تقدم تخريجه وانظر تخريجنا «السلسيل» ح (٢٠٠٨).

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣/٣٠٨/٢٠٠).

(٧) [حسن] أخرجه أحمد (١/١٩٩، ٢٠٠) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذي (٤٦٤) والنسائي (٣/٢٤٨).

وابن ماجه (١١٧٨) من حديث الحسن بن علي، وانظر تخريجنا على «منار السبيل» ح ٤٧٨.

(٨) زاد المسير ابن الجوزي ٦٠ / ص ١١٢ ط المكتبة العلمية والقرطبي ٧ / ص ٥١٥ ط (الريان).

الثانى: من أحببته لقرابته.

قال ابن كثير: نزلت فى أبى طالب. عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطه وينصره ويقوم فى صفه ويحبه حباً شديداً طبيعياً لاشريعياً.

قلت: وكذلك كان النبى ﷺ يحبه حباً طبيعياً لاشريعياً.

كما ثبت عنه - ﷺ قال: «إن بنى فلان ليسوا لى بأولياء ولكن لهم عندى رحم أبلها ببلالها» (١).

وكما روى ابن إسحاق فى السيرة عن عبدالله بن عبدالله بن أبى بن سلول أنه كان أبر الناس بأبىة ولما سمع أن النبى ﷺ هم بقتله أستاذن النبى ﷺ فى قتله حتى لا يقتله غيره فيقتله عبدالله، فيقتل مسلماً بكافر (٢).

مسألة التوفيق بين قوله الله تعالى ﴿نَكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

المنفى هنا هداية التوفيق والقبول. فإن أمر ذلك إلى الله، وهو القادر عليه، وأما الهداية المذكورة فى قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبين عن الله، والدال على دينه وشرعه (٣).  
ويؤيده ماجاء فى القرطبي.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ أى تدعو وترشد إلى ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه.

وقال على: إلى كتاب مستقيم: وقرأ عاصم الجحدري وحوشب ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ غير مسمى الفاعل؛ أى لتدعى والباقون ﴿لَتَهْدِي﴾ مسمى الفاعل وفى قراءة أبى ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُو﴾. اهـ (٤).

احتمل ابن عثيمين احتمالاً ثالثاً فقال:

يقال: إن ذلك قبل النهى عن محبة المشركين، والأول الأقرب؛ أى من أحببت هدايته لا عينه وهذا عام لأبى طالب وغيره.

(١) تقدم تخريجه فى مبحث الولاء والبراء.

(٢) تقدم تخريجه انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى: «لئن رجعنا إلى المدينة...»

(٣) فتح المجدد ٢٦٩. (٤) القرطبي ٩/ ٥٨٨٠.

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، ولا ينافي هذا المحبة الشرعية، وقد أحبُّ أن يهتدى هذا الإنسان، وإن كنت أبغضه شخصياً لكفره، ولكن لأني أحب أن الناس يسلكون دين الله (١). اهـ.

### فصل: مراتب الهداية

#### قال ابن القيم

مراتب الهدية الخاصة والعامّة عشر مراتب.

**المرتبة الأولى:** مرتبة تكليم الله - عزوجل - لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه ، وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (٢) فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأى طريق وصل. ولكن لا تحققه بالمصدر. فإذا حققت بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ (٤) أى بتكليمى لك بإجماع السلف، ولو كان التكليم الذى حصل من الله من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به فى الآيات معنى.

#### المرتبة الثانية:

مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (٦) الآية الوحي فى اللغة: هو الإعلام السريع الخفى وهو أقسام .

(١) القول المفيد ١/٤٤٩.

(٢) النساء ١٦٤

(٣) الأعراف: ١٤٣.

(٤) الأعراف: ١٤٤

(٥) النساء ١٦٣

(٦) الشورى ٥١.

**المرتبة الثالثة:** إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه .

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم .

ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلاً، يراه عياناً ويخاطبه . وقد يراه على صورته التى خلق عليها . وقد يدخل فيه الملك، ويوحى إليه ما يوحىه . ثم يفصم عنه، أى يقلع . والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ .

قلت: كما ثبت فى الصحيح<sup>(١)</sup> فى بدء الوحى .

**المرتبة الرابعة:** مرتبة التحديث . وهذه دون مرتبة الوحى الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب . رضى الله عنه - كما قال ﷺ: «إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن فى هذه الأمة فعمرو بن الخطاب»<sup>(٢)</sup> .

والمحدث: هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشىء، فيكون كما حدث به .

قال شيخنا - أى ابن تيمية: والصديق أكمل من المحدث؛ لأنه استغنى بكمال صديقيته و متابعتة عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ .

قال «وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول . فإن وافقه قبله وإلا رده فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث .

قال «وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: حدثنى قلبى عن ربي فصحيح أن قلبه حدثه . ولكن عمّن؟! عن شيطانه أو عن ربه الذى يعبد من دون الله، فإذا قال: (حدثنى قلبى عن ربي) كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدث به . وذلك كذب .

قال: ومحدث الأمة لم يكن ليقول ذلك، ولا تفوه به يوماً من الدهر . وقد أعاده الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يوماً: «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: لا أمحه وكتب هذا ما رأى عمر بن الخطاب . فإن كان صواباً فمن الله . وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برىء» وقال فى الكلاله: «أقول فيها برأى فإن يكن صواباً فمن الله . وإن يكن خطأ فمنى و من الشيطان»

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢)، ومسلم فى الفضائل (٨/٩٧/٨٧) .

(٢) أخرجه الترمذى (٣٦٩٣) عن عائشة . قال الترمذى: حديث صحيح

فانظر إلى مابين القائلين والمرتبين والقولين والحالين وأعط كل ذى حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.

**المرتبة الخامسة:** مرتبة الإفهام. قال الله تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (١) فذكر هذين النبيين الكريمين ، وأثنى عليهما بالعلم والحكمة وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة.

وقال على ابن أبى طالب وقد سُئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء من دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتیه الله عبداً فى كتابه وما فى هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر (\*).

وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعري - رضى الله عنهما - والفهم الفهم فيما أدلى إليك».

فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله فى قلبه. ويعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه. فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما فى حفظه وفهم أصل معناه.

قلت: كما فى قصة أبى بكر وعمر فى حروب الردة وحديث ابن عمر فى الصحيح حينما سئل عن الشجرة التى مثل المؤمن

### المرتبة السادسة:

مرتبة البيان العام وهو تبين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهد وأعلامه. بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمرئيات

وهذه المرتبة هى حجة الله على خلقه التى لا يعذب أحداً ولا يضل إلا بعد وصوله إليها الله قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ (٢) وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات فى هذا الباب وعلمت حكمة الله فى إضلاله من يضل من عباده، والقرآن يصرح بهذا فى غير موضع كقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ (٤) فالأول كفر عناد والثانى كفر طبع.

(٢) التوبة: ١١٥.

(١) الأنبياء: ٧٩.

(\*) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١) وانظر «جزء سعدان» بتخریجتنا.

(٤) البقرة: ٨٨.

(٣) الصف: ٥.



وقال تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (١). فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا موجب فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء.

وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكر في هذه وهذه.

وهذا البيان هو الذى بعث به الرسل. وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، و بعد ذلك يضل الله من يشاء، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) فالرسل تبين. والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته.

### المرتبة السابعة:

البيان الخاص.. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء. وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية البتة. قال تعالى فى هذه المرتبة ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فالبيان الأول شرط وهذا موجب. وهذه المرتبة لله خاصة.

### المرتبة الثامنة

مرتبة الإسماع قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٣)، وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن

(١) فصلت: ١٧.

(٣) فاطر/ ١٩: ٢٣.

(٢) ابراهيم/ ٤.

الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما: فسمع لفظه حظ الأذن، وسمع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذى هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَقْبِضُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ﴾ (١) وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه. أو تمكنه منها وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه ﴿مَاذَا قَالَ أَنْفًا أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (٢) الآية.

فسمع القبول ثلاث: مراتب سماع الأذن، وسمع القلب، وسمع القبول والإجابة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (٣).

### المرتبة التاسعة:

مرتبة الإلهام: قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٤). وقال النبى ﷺ «قل اللهم الهمنى رشدى وقتى شر نفسى» (٥).

والإلهام أعم من التحديث، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبى ﷺ قال فيه «إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر» (\*) يعنى من المحدثين، فالتحديث إلهام خاص.

وصورته الشائعة أن يكون خطاباً يلقي فى قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه، كما فى الحديث المشهور «إن للملك لمة بقلب ابن آدم. وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد. ولة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ (٦) وقال تعالى ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٧) قيل فى تفسيرها: قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر.

وقيل: احضروا معهم القتال.

والقولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم.

(٢) محمد: ١٦.

(٤) الشمس (٧، ٨).

(٥) أخرجه الترمذى (٣٤٨٣) وانظر «الأذكار» للنووى (١٠٣١- بتخریجنا).

(\*) تقدم قريباً.

(٧) الأنفال: ١٢.

(٦) البقرة: ٢٦٨.

ومن هذا الخطاب. واعظ الله - عزوجل - في قلوب عباده المؤمنين. كما في «جامع الترمذى» و«مسند أحمد» من حديث النّوأس بن سمعان عن النّبي ﷺ قال: «إن الله تعالى ضرب مثلاً: صراطاً مستقيماً. على كنفتى الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو على رأس الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران حدود الله. والأبواب المفتحة، محارم الله فلا يقع أحد في حدّ من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله والداعى من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن»<sup>(١)</sup> الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة.

**المرتبة العاشرة: الرؤيا الصادقة**، وهى من أجزاء النبوة كما ثبت عن النّبي ﷺ أنه قال «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»<sup>(٢)</sup> والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي..

وأصدق الناس رؤيا: أصدقهم حديثاً. وهى عند اقتراب الزمان لاتكاد تخطيء. كما قال النّبي ﷺ وذلك لبعده العهد بالنبوة وآثارها فيتعوض المؤمنون بالرؤيا، وأما فى زمن قوة نور النبوة: ففى ظهور نورها قوته ما يغنى عن الرؤيا.

وقد قال النّبي ﷺ «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قيل: ما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له»<sup>(٣)</sup> إذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النّبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر فى العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر فمن كان منكم متحريراً فليتحرها فى العشر الأواخر فى رمضان»<sup>(٤)</sup>.

والرؤيا كالكشف، منها روحانى، ومنها نفسانى ومنها شيطانى. وقال النّبي ﷺ: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام»<sup>(٥)</sup> والذى هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التى من الله خاصة أهـ<sup>(٦)</sup>.

(١) تقدم.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٧ - ٧٠)، ومسلم فى الرؤيا (١٥ / ٢٠ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٨٤٠ - بتخریجنا).

(٣) أخرجه البخارى (٦٩٩٠) وانظر «رياض الصالحين» (٨٣٩ - بتخریجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٠١٥)، ومسلم فى الصيام (٨ / ٥٧ - النووى) عن ابن عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١١٩٣ - بتخریجنا).

(٥) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة فى «الكبرى» (١٠٧٣٩) عن أبى هريرة به.

(٦) تهذيب مدارج السالكين (بتصرف).

## حاجة الإنسان لطلب الهداية ضرورية.

قال ابن تيمية:

والإنسان خلق ظلوماً جهولاً، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشيء . فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله . وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه واعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته ، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافى جهله، وعدل ينافى ظلمه، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَمُتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ ﴾ (١) فإذا كان هذا حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره .

فحاجة العبد إلى سؤاله هذه الهداية ضرورية فى سعاداته ونجاته وفلاحه ؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه ، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه .

قلت: ففى المستدرک «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وتستكمل أجلها». فلا أحد يموت وهو ناقص رزق أو عمر . فإذا قطع رزقه أنقضى أجله لكن الهداية ربما يقطع الله عنه الهداية وهو حى كما قال الله عز وجل فى بعض الأحياء ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وقال ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأِىُّهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ فهم أحياء يسمعون لكن فى لهو يسمعون سماع الأذان أما سماع القلب والعمل فلا يسمعون كما نقلنا فى مرتبة الإسماع كلام ابن القيم - رحمه الله - فكأنه يقول إن العبد إلى سؤاله هذه الهداية فى ضرورة وقد يرزق وهو كافر فالرزق ليس علم على الهداية لكن الهداية بإذن الله سبب من أسباب الرزق لكن الرزق ليس سبب من أسباب الهداية بل الله عز وجل قال: ﴿ وَلَوْ لَأَنَّ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ (٣٣) ولبيوتهم أبواباً وسروراً عليها يتكئون (٣٤) وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴿ وكان من المهتدين المتقين باهتدائه وتقواه كان ممن ينصر الله ورسوله وقال تعالى ﴿ وَلِيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ يعنى كانت الهداية سبب من أسباب النصر وأيضاً التقوى

(١) الفتح: ٢، ١.

كانت سبب من أسباب النصر لأن النصر يتخلف بقدر المعصية ويأتي على قدر الطاعة فكان هنا بيان على عدم وجود نسبة بين الهداية وبين طلب الرزق والنصر لذلك الله عزوجل لم يقل فى سورة الفاتحة إهدنا النصر المبين ولا إهدنا الرزق المبين قال ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن بهذه الهداية فيها فلاح وصلاح الدنيا والآخرة ونحن بالفعل مضطرون إليها أكثر من اضطررنا للأكل والشرب بل إنك لا تستطيع أن تستمتع بطعام وشراب - إن كان فيك حس وحياة - إلا بهداية ولا تستمتع بجماع ولا بزوجة ولا بدنيا إلا بما فيها من هداية فإن هداك الله - عز وجل - فهى المتعة وهى النعيم وفى ذلك قال تعالى: ﴿تُمْ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ومن أنعم النعيم محمد ﷺ فبالله عليك هل تستمتع بالنبي إلا بهداية ؟ وتنعم بهذا النعيم إلا بهداية وهل تنعم بمجالس العلم إلا بذلك ، تأتى المجلس فى ضيق وهم وعشى وأنت سعيد فهل تنعم بهذه المجالس إلا بهداية وتقوى، بل إذا ذهبت إلى البيت وأنت على معصية هل ستجد صدود عن الطعام أم ستجد إقبال ؟ لو كنت على إيمان الله عز وجل؛ لن تجد إلا الصدود وعدم الإقبال، فتجد صدود عن الأكل وعن الجماع وعن الأولاد. أما عندما تذهب إلى البيت وقد فهمت مسألة أو حفظت مسألة أو امتحنت أو اخترت فى مسائل شرعية وأجزت فيها ستذهب إلى البيت فى غاية السعادة والدنيا أمامك جميلة تريد أن تأكل وتشرب و... و... لأن هذه من أمتع المتع وأنعم النعيم وألذ اللذات فى الدنيا.

«لذا كان معاذ بن جبل حينما أشرف على الموت يبكى ويقول إنما أبكى على ظمأ الهواجر وقال فيما قال وعلى مزاحمة العلماء بالركب» فهذه كانت أمتع المتع لمعاذ بن جبل لما كان على هداية وصلاح وتقوى، وبالله عليكم لولا هذه الدروس التى تأتىها وهذه العلوم التى تتعلمها هل كانت الدنيا لها لذة؟! .

والله ليس لها لذة ولا سعادة ولا عزة إلا فى هداية الله لنا للإسلام والعمل بطاعته وفى طاعته فالأمر كما قال عمر: لقد أعزنا الله بالإسلام فهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله. أخرجه الحاكم.

فمن هنا نعلم أننا مضطرون إلى طلب الهداية أكثر من اضطرارنا إلى طلب الطعام والشراب والرزق والزوجة والسنكاح وسائر المتع واللذات بل والنصر كذلك إذا كان هذا النصر على أعداءنا أيضاً لا يكون إلا بهداية ولا يكون إلا بتقوى.

وقال ابن تيمية فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده، وكان الموت موصلاً إلى السعادة الأبدية، وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فإنه يموت شهيداً

وفى «الصحيح» عن ابن المسيب، عن أبيه؛ قال: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبِ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمَّ قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحْجَاجٌ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ لَهُ: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْهَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ (١). وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢) (٣)

وكان القتل من تمام النعمة، فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق، بل لانسبة بينهما؛ لأنه إذا هدى كان من المتقين ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وكان ممن ينصر الله ورسوله، ومن نصر الله نصره الله وكان من جند الله، وهم الغالبون، ولهذا كان هذا الدعاء هو المفروض.

وأيضاً فإنه يتضمن الرزق والنصر فتبين أن هذا الدعاء جامع لكل مطلوب ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا مما يبين لك أن غير الفاتحة لا يقوم مقامها، وإن فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع، فإذا تعينت الأفعال فهذا القول أولى والله أعلم.

وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليماً كثيراً (٤)



قوله: [وفى الصحيح...].

وهذا الحديث ذكره البخارى فى خمس مواضع:

ذكره فى كتاب الجنائز فى باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله

وذكره فى كتاب مناقب الأنصار فى باب قصة - أبى طالب.

(١) التوبة / ١١٣.

(٢) القصص / ٥٦.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (٨/ ٣٦٥/ ٤٧٧٢) ومسلم فى الإيمان / باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت وباقى مواضع الحديث فى البخارى ذكرناها فى الشرح. وانظر تخريجه فى كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٧١٣) وفتح المجيد (ح ٣٤١) بتخريجنا.

(٤) مجموع الفتاوى ١٤/ ٣٩، ٣٨، ٤٠ بتصرف.

وذكره فى كتاب التفسير فى باب ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾  
وذكره فى كتاب التفسير أيضاً فى باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدَى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وذكره فى كتاب الأيمان والنذور فى باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو  
سبح أو كبر أو حمد أو هلى فهو على نيته .

وقال النبى ﷺ أفضل الكلام أربع . سبحان الله . والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله  
أكبر .

واللفظ الذى ذكره المصنف هو لفظ مسلم فى كتاب الإيمان فى باب: الدليل على  
صحة إسلام من حضره الموت .

مناسبة الحديث للباب .

قال القرعاوى<sup>(١)</sup> . حيث دل الحديث على نفي هداية التوفيق عن النبى ﷺ فإذا  
انتفت عنه وهو أكرم الخلق فنيها عن غيره أولى .

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى<sup>(٢)</sup> حيث دل الحديث على أن هداية التوفيق خاصة بالله سبحانه  
فيكون طلبها من غير الله شركاً .

قوله فى «الصحيح»

سبق الكلام عليه والمقصود به هنا الصحيحين

قوله «عن ابن المسيب عن أبيه»

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٣)</sup>: هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن عمرو  
ابن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المخزومى أحد العلماء الأثبات ، الفقهاء الكبار  
الحفاظ العباد اتفقوا على أن مراسلاته أصح المراسيل .

وقال ابن المدينى: لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه . مات بعد التسعين وقد ناهز  
الثمانين ، وأبوه المسيب صحابى بقى إلى خلافة عثمان رضى الله عنه وكذلك جده حزن  
صحابى ، استشهد باليمامة أ.هـ .

[قلت]: وقد حاول النبى ﷺ تغيير اسم جده حزن إلى سهل فقال النبى ﷺ بل  
أنت سهل فقال حزن: لا أغير اسماً سمانيه أبى قال سعيد فما زالت فى تلك الحزونة

(١) -٢- الجديد ١٧١ .

(٢) -٣- تيسير العزيز الحميد ٢٢١

أى الشدة واستدل بذلك ابن القيم فى «الزاد» على أن هناك علاقة بين الاسم والمسمى فالأسماء قوالب للمسميات اهـ.

قوله «لما حضرت أبا طالب الوفاة»

قال ابن عثيمين (١): قوله «أباً» بالألف مفعول به منصوب بالألف، لأنه من الأسماء الخمسة.

(الوفاة) يعنى الموت، فاعل حضرت.

قال ابن حجر (٢)

قوله «لما حضرت أبا طالب الوفاة» قال الكرماني: المراد حضرت علامات الوفاة، وإلا فلو كان انتهى إلى المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن، ويدل على الأول ما وقع من المراجعة بينه وبينهم انتهى.

ويحتمل أن يكون انتهى إلى تلك الحالة لكن رجا النبى ﷺ أنه إذا أقر بالتوحيد ولو فى تلك الحالة أن ذلك ينفعه بخصوصه وتسوغ شفاعته ﷺ لمكانه منه، ولهذا قال: «أجادل لك بها وأشفع لك» وسيأتى بيانه. ويؤيد الخصوصية أنه بعد أن امتنع من الإقرار بالتوحيد وقال هو «على ملة عبدالمطلب» ومات على ذلك أن النبى ﷺ لم يترك الشفاعة له، بل شفع له حتى خفف عنه العذاب بالنسبة لغيره، وكان ذلك من الخصائص فى حقه.

[قلت]: وقد تقدمت الرواية بذلك فى الشفاعة فى الباب الماضى اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ نحو ذلك أو مثله.

قوله «جاءه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبى أمية»

قال ابن حجر (٣).

يحتمل أن يكون المسيب حضر هذه القصة، فإن المذكورين من بنى مخزوم وهو من بنى مخزوم أيضاً، وكان الثلاثة يومئذ كفاراً فمات أبو جهل على كفره وأسلم الآخرون. وأما قول بعض الشراح: هذا الحديث من مراسيل الصحابة فمردود، لأنه استدل بأن المسيب على قول امصعب من مسلمة الفتح، وعلى قول العسكرى: ممن بايع تحت

(١) القول المفيد ١/٤٤٩.

(٢) الفتح ٨/٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) الفتح ٨/٣٦٦.



الشجرة، قال: فأيا ما كان فلم يشهد وفاة أبي طالب لأنه توفي هو وخديجة في أيام متقاربة في عام واحد، والنبى ﷺ يومئذ نحو الحسين انتهى.

وجه الرد أنه لا يلزم من كون المسيب تأخر إسلامه أن لا يشهد وفاة أبي طالب كما شهدا عبد الله بن أبي أمية وهو يومئذ كافر ثم أسلم بعد ذلك، وعجب من هذا القائل كيف يعزو كون المسيب كان ممن بايع تحت الشجرة إلى العسكرى ويغفل عن كون ذلك ثابتاً فى الصحيح الذى شرحه كما جاء فى المغازى واضحاً.

قوله فقال: «ياعم»

قال ابن حجر (١): وأما «عم» فهو منادى مضاف، ويجوز فيه إثبات الياء، وحذفها. هنا قال ابن عثيمين (٢): أتى ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف لان العم صنو الأب، أى كالغصن معه.

والصنو الغصن الذى أصله واحد فكأنه معه كالغصن.

[قلت]: ومنه قوله تعالى: «صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ».

قوله «ياعم» فيها وجهان: يا عم، بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء وياعم بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله «قل لا إله إلا الله»

قال سليمان آل الشيخ (٣) أى قل هذه الكلمة عارفاً لمعناها معتقداً له فى هذه الحال وإن لم تعمل به، إذ لا يمكن عند الموت إلا ذلك ولا بد مع ذلك من شهادة أن محمد رسول الله

قال ابن عثيمين (٤): يجوز أنه قاله على سبيل الأمر والإلزام، لأنه يجب أن يأمل كل أحد أن يقول: لا إله إلا الله

ويجوز أنه قالها على سبيل الترجى والتلطف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهذا بادر بالإنكار.

قوله: (قل لا إله إلا الله).

قال الفقير: فيها فائدة: إن الكافر لو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ومات

(٢) القول المفيد ١/٤٤٩

(١) الفتح ٨/٣٦٦

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢١، ٢٢٢

(٤) القول المفيد ١/٤٥٠

تنفعه، وهذه فيها شاهد لقول الرسول ﷺ «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» فهل دخل الجنة ابتداءً أم دخل الجنة في نهاية أمره؟ على اختلاف بين أهل العلم محلها القائل نفسه فإن كان القائل نفسه من أهل الصلاح وختم له بذلك يدخل الجنة ابتداءً أما إن كان من أهل الفساد وقال لا إله إلا الله فهو تحت خطر المشيئة إن شاء الله عذبه ويدخل الجنة وإن شاء الله عفى عنه ويدخل الجنة ابتداءً أما إن كان من أهل الكفر وقالها فهي أيضاً تنفعه ويكون مصيره للجنة إن شاء الله كما قال النبي «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» إن لم تكن تنفعه فما فائدة عرض لا إله إلا الله عليه فليس لها فائدة إلا أنها تنفعه إذا قالها.

وفيها رد على من ادعى أو زعم من الخوارج إن حد الإسلام ليس الإقرار بلا إله إلا الله مع عدم المناقض فقط ويشترطوا شروط أكثر من ذلك في الإسلام الحكمي مثل اشتراطهم شروط الإسلام الحقيقي في الإسلام الحكمي.

فما هو الإسلام الحكمي؟ هو الذي تجرى عليه الأحكام في الدنيا يكون مسلم بيننا ولكن لن ينفعه ذلك في الآخرة إلا إذا أتى بشروط الإسلام الحقيقي.

والإسلام الحقيقي: هو الإسلام النافع في الآخرة المنجي من النار المدخل الجنة فلا تغتر بقول الناس لك في الدنيا: «مسلم» وأنت في الحقيقة متناقف فهذه الكلمة لن تنفعك في الآخرة إلا إذا أتيت معها بالشروط فما هي شروط الإسلام الحقيقي؟

كما قلنا أن الإسلام الحكمي هو الإقرار مع عدم المناقض فإن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ولم نر عليه مناقض لهذه الكلمة فهو عندنا مسلم تجرى عليه أحكام الإسلام لكن هل ينفعه في الآخرة؟ لا ينفعه في الآخرة إلا إذا أتى بالشروط السبعة أو أكثر التي وضعها العلماء شروطاً للا إله إلا الله كالعلم والانقياد واليقين والمحبة والإخلاص إلى آخر هذه الشروط التي هي أكثر من سبعة لكن هذه أهمها.

فهنا النبي ﷺ كان سيجرى عليه أحكام الإسلام في الدنيا بمجرد النطق كما أجرى الأحكام على الغلام اليهودي الذي أقر بالإسلام ثم مات فأجرى عليه أحكام الإسلام فما هي الأحكام بعد موته؟ كالصلاة عليه فقد قال ﷺ في بعض الروايات التي ذكرها الشيخ الألباني في كتاب أحكام الجنائز «صلوا على صاحبكم» لأنه بذلك أسلم إسلام حكمي فهذا ليس بكلام المرجئة ولا كلام الخوارج. والله الموافق للصواب

قوله: «كلمة»

قال ابن حجر<sup>(١)</sup> بالنصب على البدل من لا إله إلا الله أو الاختصاص. ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

قال القرطبي<sup>(٢)</sup> أحسن ما تقيد (كلمة) بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله، ويجوز رفعها على احتمال المبتدأ.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: ولكنَّ النَّصْبُ أَوْضَحُ.  
قوله: «أحاج».

قال ابن حجر<sup>(٤)</sup>: قوله: (أحاج) بتشديد الجيم من المحاجة وهي مفاعلة من الحججة والجيم مفتوحة على الجزم جواب الأمر، والتقدير أن تقل أحاج، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، ووقع في رواية معمر عن الزهري بهذا الإسناد في الجنائز «أشهد» بدل «أحاج» وفي رواية مجاهد عند الطبري «أجادل عنك بها» زاد الطبري من طريق سفيان بن حسين عن الزهري قال «أى عم، إنك أعظم الناس على حقاً، وأحسنهم عندي يداً»، فقل كلمة تجب لى بها الشفاعة فيك يوم القيامة».

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٥)</sup>: وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته، وإن مات على التوحيد نفعته الشفاعة، وإن لم يعمل شيئاً غير ذلك، وأن من كان كافراً يجحدها إذا قالها عند الموت أجريت عليه أحكام الإسلام، فإن كان صادقاً من قلبه نفعته عند الله وإلا فليس لنا إلا الظاهر، بخلاف من كان يتكلم بها في حال كفره [قلت]: لعل يقصد بذلك المرتد.

قال ابن عثيمين<sup>(٦)</sup>: والمعنى أذكرها حجة لك عند الله وليس أحاصم وأجادل لك بها عند الله، وإن كان بعض أهل العلم قال (إن) معناها أجادل الله بها ولكن الذى يظهر لى أن المعنى: أحاج لك بها عند الله ، أى: أذكرها حجة لك كما جاء فى بعض الروايات «أشهد لك بها عند الله».

قلت: وقد مر من كلام ابن حجر عزوها إلى الجنائز فى الصحيح من رواية معمر عن الزهري فقولوه: قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند ربى: فلولا أنها تنفعه ما كانت تنفع حجة فى الآخرة فهى إن شاء الله مع عدم المناقض مع باقى الشروط تنفع فى الدنيا والآخرة فإذا أتى بها فى الظاهر مع عدم المناقض فقط فلا تنفعه فى الآخرة وإن نفعته فى الدنيا.

(١) الفتح ٣٦٦/٨

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٢٢٢.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٢٠

(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢

(٥) الفتح ٣٦٦/٨

(٦) القول المفيد ١/ ٤٥١

قوله: «فقال له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟»

قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: قوله: «فقال له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟» ذكره الحجة الملعونة التي يتعلق بها المشركون من الأولين والآخرين، ويردون بها على الرسل، وهى تقليد الآباء والكبراء، وأخرجا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة فى الإنكار لعظمة هذه الحجة فى قلوب الضالين، وكذلك اكتفيا بها فى المجادلة مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصرنا عليها.

قال المصنف: وفيه تفسير لا إله إلا الله بخلاف ما عليه أكثر من يدعى العلم، وفيه أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال الرجل: قل لا إله إلا الله. فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

قال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: القائلان هما عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه، لأنهم عرفوا أنه إذا قالها- كلمة الإخلاص- وحّد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكر له ما تهيج به نعرته وهى ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملة آبائه.

وقد مات أبو جهل على ملة عبد المطلب، أما عبد الله بن أمية والمسيب الذى روى الحديث فأسلما، فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضى الله عنهما.

[قلت]: الإشارة إلى ذلك وتقدمت من كلام ابن حجر ووقع التصريح بذلك فى رواية البخارى وفى لفظ المصنف.

وأبو جهل اسمه عمرو بن هشام والذى كناه بأبى جهل الرسول ﷺ كما سُمى أبى لهب بذلك وهذا علم من أعلام النبوة كما هو الحال فى الآية التى نزلت فى أبى لهب «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» ومات على الكفر وأيضاً أبو جهل النبى سماه بذلك ومات على الكفر ولماذا أذكر اسمه الآن؟ عمرو بن هشام لأنه فى إحدى القرى المصرية فى القليوبية فى منطقة اسمها نوى والقرية اسمها «الأشيش» أو القشيش هذه القرية فيها شارع إلى الآن اسمه عمرو بن هشام - ولو سألت أحدهم يقول لك شارع عمرو بن هشام رضى الله عنه؟! ويمكن بعضهم يقول شارع سيدنا عمرو بن هشام لأنه اختلط الحابل بالنابل.

وكنت ذات مرة أتحدث مع أحد الصوفية فقلت له كلمة أداعبه فيها فذكرت له اسم شخص ماجن فى بعض الأفلام البذيئة وذكرت له اسم الفيلم فخلع عليه اسم صحابى فقلت له فهذا ابن سهيل، فقال: رضى الله عنه، ومولانا ابن سهيل!! وابن سهيل

(٢) القول المفيد ١/ ٤٥١

(١) تفسير العزيز الحميد ٢٢٢.

شخصية رجل عاصى فاسق خاسر، ولا تستبعد أن تقول له عم النبي ﷺ ويقول لك رضى الله عنه، فسبحان الله والحمد لله على نعمة الإسلام.

قوله: «فأعاد عليه النبي ﷺ فأعاداً»

قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: قوله: (فأعاد عليه النبي ﷺ فأعاداً)، أى أعاد عليه النبي ﷺ مقالته، وأعادا عليه مقالتهما، مبالغة منه ﷺ، وحرصاً على إسلام عمه، ومع ذلك لم يقدر النبي ﷺ على ذلك، ولا على تخليصه من عذاب الله، بل سبق فيه القضاء المحتوم، واستمر على كفره، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فلو كان عند النبي ﷺ من هداية القلوب، وتفريج الكرب شىء، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم عمه الذى فعل معه ما فعل، وفيه الحرص فى الدعوة إلى الله، والصبر على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإن رد ذلك على صاحبه، وتكريره وعدم الاكتفاء بمرة واحدة اهـ.

[قلت]: وفيه حرص الكفار على دعوتهم حتى الموت عليها وهى غايتهم ففیه معنى قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

قوله: «فكان آخر ما قال»

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: قوله: فكان آخر ما قال- هو بنصب آخر على الظرفية- أى آخر زمن تكليمه إياهم، ويجوز رفعه اهـ.

قوله: «هو على ملة عبد المطلب».

[قلت]: فى الصحيح بلفظ: «آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب».

قال ابن حجر<sup>(٣)</sup>: وفى رواية معمر «هو على ملة عبد المطلب» وأراد بذلك نفسه، ويحتمل أن يكون قال: «أنا فغيرها الراوى أنفة أن يحكى كلام أبى طالب استقباحاً للفظ المذكور، وهى من التصرفات الحسنة.

ووقع فى رواية مجاهد قال: «يا ابن أخى ملة الأشياخ».

ووقع فى حديث أبى حازم عن أبى هريرة عند مسلم والترمذى والطبرى «قال لولا أن تعيرنى قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك» وفى رواية

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢.

(٣) الفتح ٣٦٦/٨ - ٣٦٧.

الشعبي عند الطبراني «قال لولا أن يكون عليك عار لم أبال أن أفعل» وضبط «جزع»  
بالجيم والزاي، ولبعض رواة مسلم بالخاء المعجمة والراء. (أ.هـ).

قوله: «وأبى أن يقول: لا إله إلا الله».

قال ابن حجر (١): هو تأكيد من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب، وكأنه  
استند فى ذلك إلى عدم سماعه ذلك منه فى تلك الحال، وهذا القدر هو الذى يمكن  
اطلاعه عليه، ويحتمل أن يكون أطلعه النبى ﷺ على ذلك.

قال المصنّف (٢): وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه، ومضرة  
أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف والأكابر، أى زيادة على المشروع  
بحيث يجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: فقال النبى ﷺ «لاستغفرن لك ما لم أنه عنك».

قال ابن حجر (٣): قال الزين بن المنير: ليس المراد طلب المغفرة العامة والمسامحة  
بذنب الشرك، وإنما المراد تخفيف العذاب عنه كما جاء مبيناً فى حديث آخر.

قلت: هى غفلة شديدة منه فإن الشفاعة لأبى طالب فى تخفيف العذاب لم ترد،  
وطلبها لم يته عنه، وإنما وقع النهى عن طلب المغفرة العامة، وإنما ساغ ذلك للنبى ﷺ  
اقتداءً بإبراهيم فى ذلك، ثم ورد نسخ ذلك كما سيأتى بيانه واضحاً أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ (٤): قوله: فقال النبى ﷺ: «لاستغفرن لك ما لم أنه  
عنك». أقسم ﷺ ليستغفرن له إلا أن ينهى عن ذلك، كما فى رواية مسلم: «أما والله  
لاستغفرن لك».

قال النووى: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، وكان الحلف هنا لتأكيد العزم  
على الاستغفار، تطيباً لنفس أبى طالب، وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة  
بقليل.

قال ابن فارس: مات أبو طالب، ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر  
وأحد عشر يوماً، وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بعد موت أبى طالب  
بثمانية أيام.

(١) الفتح / ٨ / ٣٦٧.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٢٢٣.

(٣) الفتح / ٨ / ٣٦٧.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٢٣.

قال ابن عثيمين (١): جملة «لاستغفرنَّ لك» مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، والام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة، وكان النبي ﷺ في نفسه شيء من القلق.

[قلت]: وهذا واضح من قوله بعد ذلك: «ما لم أنه عنك».

قوله: (ما لم أنه عنك)

فعل مضارع مبنى للمجهول، والناهى عنه هو الله.

قوله: فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ

كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾ وأنزل الله في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ﴾.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: ﴿مَا كَانَ﴾.

ما: نافية وكان: فعل ماض ناقص.

قوله: ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾.

(أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾

خبرٌ مقدّم، أى: ما كان استغفاره.

واعلم أنَّ ما كان أو ما ينبغى أو لا ينبغى ونحوها إذا جاءت في القرآن. والحديث،

فالمراد أنَّ ذلك ممتنع غاية الامتناع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَّلَدٍ﴾ (٣).

وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وُلْدًا﴾ (٤).

وقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (٥).

وقوله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام» (٦).

(١) القول المفيد ١/٤٥٢.

(٢) القول المفيد ١/٤٥٢.

(٣) مريم: ٣٥.

(٤) مريم (٩٢).

(٥) يس: ٤٠.

(٦) [صحيح] مسلم في الإيمان (٢/١٧/٢٩٥) عن أبي موسى به..

وقوله: ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾، أى يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾

أى: حتى ولو كانوا أقرب لهم، ولهذا لما اعتصر النبي ﷺ ومراً بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له، فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة (١).

فإنه ممنوع من طلب المغفرة للمشركين، لأن هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً للمغفرة لأنك إذا دعوت الله أن يفعل مالا يليق، فهو اعتداء في الدعاء. أ.هـ.

[قلت]: فلكى لا يحتج المشركون، بقول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك أو بقوله ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فلكى لا يحتج المشرك بذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

وفيه جواز - كما سيأتينا - الإستغفار للمشرك أو طلب الهداية والمغفرة للمشرك حتى إذا مات على الشرك توقفنا عن الإستغفار له.

قوله: «وأنزل الله في أبي طالب».

أى: فى شأنه.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

الخطاب للرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى، فهو مقرون بالحكمة، أى: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنه يهتدى، ومن اقتضت حكمته أن يضلّه أضله.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره، فالذين يلجؤون إليه ﷺ ويستجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنه قد قام معه قياماً عظيماً، ناصره وأزره فى دعوته، فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!.

قال ابن حجر (٢): قوله: «فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أى ما ينبغى لهم ذلك، وهو خبر بمعنى النهى هكذا وقع فى هذه الرواية.

(٢) الفتح ٨/٣٦٧، ٣٦٨.

(١) [صحيح] رواه مسلم (٢/٦٧١).



وروى الطبرى من طريق شبل عن عمرو بن دينار قال قال النبي ﷺ «استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فلا أزال أستغفر لأبى طالب حتى ينهاني عنه ربي». فقال أصحابه: لنستغفرن لأبائنا كما استغفر نبينا لعمه، فنزلت<sup>(١)</sup> وهذا فيه إشكال، لأن وفاة أبى طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقاً، وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية، والأصل عدم تكرار النزول، وقد أخرج الحاكم وابن أبى حاتم من طريق أيوب بن هانئ عن مسروق عن ابن مسعود قال «خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى، فبكينا لبكائه، فقال: إن القبر الذى جلست عنده قبر أمى، واستأذنت ربي فى الدعاء لها فلم يأذن لى، فأنزل على: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وأخرج أحمد من حديث ابن بريدة عن أبيه نحوه وفيه «نزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب» ولم يذكر نزول الآية.

وفى رواية الطبرى من هذا الوجه «لما قدم مكة أتى رسم قبر».

ومن طريق فضيل بن مرزوق عن عطية «لما قدم مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت».

وللطبرانى من طريق عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس نحو حديث ابن مسعود وفيه «لما هبط من ثنية عسفان»<sup>(٣)</sup> وفيه نزول الآية فى ذلك.

فهذه طرق يعضد بعضها بعضاً، وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة أبى طالب.

ويؤيده أيضاً أنه ﷺ قال يوم أحد بعد أن شج وجهه «رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»<sup>(٤)</sup> لكن يحتمل فى هذا أن يكون الاستغفار خاصاً بالأحياء وليس البحث فيه، ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم، ويكون لنزولها سببان: متقدم: وهو أمر أبى طالب ومتأخر: وهو أمر أمة.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٠٥/٣) ونسبه لابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٠٥١) وذكره السيوطى فى «الدر» (٥٠٧/٣) وزاد نسبه

الحاكم، وابن مردويه، والبيهقى فى «الدلائل».

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٠٦/٣) ونسبه للطبرانى، وابن مردويه.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٧٧)، ومسلم فى الجهاد (١٢/١٤٩ - النووى) وانظر كتابنا «فتح

ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٢٥).

ويؤيد تأخير النزول ما تقدم: في تفسير براءة من استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهى عن ذلك، فإن ذلك يقتضى تأخير النزول وإن تقدم السبب ويشير إلى ذلك أيضاً قوله في حديث الباب «وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لأنه يشعر بأن الآية الأولى نزلت في أبي طالب وفي غيره والثانية نزلت فيه وحده.

ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد من طريق أبي إسحق عن أبى الخليل عن على قال «سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ (١) الآية وروى الطبرى من طريق ابن أبى نجیح عن مجاهد قال «قال المؤمنون ألا نستغفر لأبائنا كما استغفر إبراهيم لأبيه ؟ فنزلت. ومن طريق قتادة قال «ذكرنا له أن رجلاً» فذكر نحوه.

#### فائدة:

في الحديث أن من لم يعمل خيراً قط إذا ختم عمره بشهادة أن لا إله إلا الله حكم بإسلامه وأجريت عليه أحكام المسلمين، فإن قارن نطق لسانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى، بشرط أن [لا] (\*) يكون وصل إلى حد انقطاع الأمل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب ورد الجواب وهو وقت المعاينة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ والله أعلم.

قال ابن عثيمين (٢): الإشكالات الواردة في الحديث:

الإشكال الأول: الإثبات والنفي في الهداية ، وقد سبق بيان ذلك.

الإشكال الثانى: قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكّل مع قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ وظاهر الحديث قبول توبته.

قلت: وتقدم جواب ذلك من كلام الحافظ فى أول شرح الحديث وفى الموضع قبل هذا مباشرة.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٩٩/١)، والترمذى (٣١٠١)، والنسائى فى «الكبرى» (٢١٦٣).

وانظر «الاتقان» للسيوطى (٢٨١ - بتخریجنا).

(\*) ما بين القوسين ليست من الفتح والسياق يقتضيه.

(٢) القول المفيد ١/٤٥٤ - ٤٥٦.

## وقال ابن عثيمين:

والجواب عن ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أى ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا، فالوصف لا ينافى الآية.

الثانى: أن هذا خاص بأبى طالب مع النبى ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

أ- أنه قال: «كلمة أحاج لك بها عند الله» ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

ب- أنه سبحانه أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليُخَفَّفَ عنه العذاب.

ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت: بأن قوله: «لما حضرت أبا طالب الوفاة» مطابقاً تماماً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ (١) وعلى هذا يكون الأوضح فى الجواب أن هذا خاص بالنبى ﷺ مع أبى طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ فى سورة التوبة، وهى متأخرة مدنية، وقصة أبى طالب مكية، وهذا يدل على تأخر النهى عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبى ﷺ للاستغفار لأُمَّه وهو ذاهب للعمرة.

ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهى، فدل على تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٢)، وليس المعنى أنها نزلت فى ذلك الوقت.

وقيل: إن سبب نزول الآية هو استئذانه ربه فى الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

[قلت]: ولا مانع من تأخر نزول الآية عن سببها كما تقدم من كلام الحافظ وتقرر ذلك فى كتب علوم القرآن وضربوا لذلك أمثلة منها حكم اللعان وآية النور التى نزلت

(١) النساء: ١٨.

(٢) التوبة: ١١٣.

## فيه مسائل

الأولى: تفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية.

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ الآية.

بعد حادثتين الأولى قذف هلال ابن أمية بشريك من سحماء<sup>(١)</sup> والثانية قذف عويمر العجلاني امرأته<sup>(٢)</sup> والرويتان في الصحيح.

الإشكال الرابع: أن أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول قل، لأنه ربما مع الضجر يقول: لا، لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: «قل».

والجواب: إن أباطالب كان كافراً، فإذا قيل له: قل وأبى؛ فهو باق على كفره، لم يضره التلقين بهذا؛ فإما أن يبقى على كفره ولا ضرر عليه، وإما أن يهديه الله، بخلاف المسلم، فهو على خطر لأنه ربما يضره التلقين على هذا الوجه.

[قلت]: بل ثبت عن الرسول ﷺ أنه لقن المسلمين كذلك بلفظ «قل» كما في المسند من حديث أنس: أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من الانصار فقال: يا خال! قل: لا إله إلا الله، فقال: أخاك أم عم فقال: بل خال... الحديث(\*)

## فيه مسائل

● الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: أى: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبيناً أن الرسول ﷺ إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحداً وهو حي، فكيف يستطيع أن يهدي أحداً وهو ميت؟! وأنه كما قال الله تعالى فى حقه: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾<sup>(٤)</sup>.

● الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية.

وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولى قربي.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى اللعان (١١/٣٨٢/٥) عن أنس به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى اللعان (١/٣٧٧/٥) عن سهل بن سعد به.

(\*) أخرجه أحمد فى المسند (٣/١٥٢، ١٥٤، ٢٦٨) وصححه الالبانى فى «أحكام الجنائز» على شرط

مسلم.

(٣) القول المفيد ١/٤٥٧ - ٤٦٤.

(٤) الجن/ ٢١

الثالثة: وهى المسألة الكبيرة، تفسير قوله: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ بخلاف ما عليه من يدعى العلم.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: (المرحوم)، فإنه حرام لأن هذا مضادة لله - سبحانه وتعالى - وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره، لأن المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلهم حتى يكون الدين كله لله أهـ.

[قلت]: لأن الكافر لو عنده القدرة والإستطاعة لقتل المسلمين قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ فإن استطاعوا سيفعلون ذلك.

● الثالثة: وهى المسألة الكبيرة: تفسير قوله «قل لا إله إلا الله»

أى: الكبيرة من هذا الباب، وقوله: (أى قول النبى ﷺ) لعمه: «قل لا إله إلا الله» وعمه عرف المعنى أنه التبرؤ من كل إله سوى الله، ولهذا أبى أن يقولها لأنه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: «بخلاف ما عليه من يدعى العلم» كأنه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى لا إله إلا الله، حيث يقولون: إن الإله هو القادر على الاختراع، وأنه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلا الله، وهذا تفسير باطل.

نعم، هو حق لا قادر على الاختراع إلا الله، لكن ليس هذا معنى لا إله إلا الله، ولكن المعنى: لا معبود حق إلا الله، لأننا لو قلنا: إن معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، صار المشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين، فالظاهر من كلامه رحمه الله أنه أراد أهل الكلام الذين يفسرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبية، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إله إلا الله.

[قلت]: أو لعله يقصد دعاة الضلالة من أهل البدع والاهواء ومن غيرهم الذين يشار إليهم بالبنان فى هذه الأيام يزينون للعوام أنه من قال لا إله إلا الله وإذا نذر لغير الله أو ذبح لغير الله فى ذروة الإسلام وقد قال عليه الصلاة والسلام فيهم «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»<sup>(١)</sup> والسلام..

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٨٤) عن حذيفة به.

الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَالَ لِلرَّجُلِ: قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ فَقَبَّحَ اللَّهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمَ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ.

الخامسة: جَدُّهُ ﷺ وَمَبَالِغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

● الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ.

أبو جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ بقول: لا إله إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» وهو أيضاً أبى أن يقولها لأنه يعرف مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلَهُنَّ لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿١﴾.

فالحاصل أَنَّ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَيْ: لَا قَادِرَ عَلَى الْإِخْتِرَاعِ إِلَّا هُوَ، أَوْ يَقُولُونَهَا، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ كَالْأَوْلِيَاءِ هُمْ أَجْهَلُ مِنْ أَبِي جَهْلٍ. واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل لأنهم أسلموا، وبذلك صاروا أعلم من بعدهم، خاصة من هم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف رحمه الله أ.هـ. [قلت]: فأبو جهل يعرف مراد النبي ﷺ ونحن لا نعرف مراد النبي ﷺ نسأل الله العفو والعافية. وعرف أن مجرد لا إله إلا الله أنها الرغبة عن ملة عبدالمطلب وعن دين عبدالمطلب.

● وفيها أن من يتمسك بدين الآباء إنما يتمسك بشبهة أبي جهل.

من يتمسك بدين الأجداد وبخالف به دين الله ورسله إنما يتمسك بشبه أبي جهل ويكفى في تقبيحها أن يعرف أن سلفه في ذلك هو أبو جهل أيضاً من كان من أسلاف أبي جهل من جهله الكفار قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.

● الخامسة: جَدُّهُ وَمَبَالِغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

حرصه ﷺ وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث، لسببين هما:

١- القرابة.

٢- لما أسدى للرسول ﷺ والإسلام من المعروف، فهو على هذا مشكور، وإن كان

على كفره مأزوراً وفي النار، ومن مناصرة أبى طالب أنه هجر قومه من أجل معارضة النبي ﷺ مناصرته، وكان يعلن على الملأ صدقه، ويقول قصائد في ذلك ويمدحه، ويصبر على الأذى من أجله، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته، لكن الأمر بيد مقرب القلوب كما في الحديث: «إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء» ثم قال ﷺ في نفس الحديث: «اللهم! مصرف القلوب! صرف قلوبنا على طاعتك»<sup>(١)</sup>.

[قلت]: ولواقف عمه مع الإسلام ومع المسلمين ومع الرسول ﷺ ولقربته للنبي ﷺ.

كان حريص على إسلامه.

لكن المصنف لم يرد ذلك فقط إنما هو يقول أنه برغم حرصه على إسلام عمه إلا إن الأمر لم يكن بيديه ﷺ بل كان بيدي الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

إنك لا تهدي من أحببت برغم حرصك على هدايته.

وتقدم معنا أن النبي ﷺ يش من إسلام قوم حتى لعنهم ودعا عليهم وقال اللهم العن فلاناً وفلاناً.. فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ فأسلموا وطمع في إسلام قوم وحرص على إسلامهم فماتوا على الكفر فالحقيقة أن: - ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ﴾ وكما أن الله الشفاعة جميعاً أيضاً فله الهداية جميعاً وفعلاً هذه القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. وليس بيدك بل حتى قلب النبي ﷺ بيدي الله. وإن صح الأثر الذي في السن وغيره «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلومني فيما لا أملك وتملك»<sup>(٢)</sup> حينما كان يعدل بين نساء فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. لذلك كان النبي يدعوا بهذا الدعاء «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» وقال: «اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

والحديث في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

فبدل من أن تطمع في الهداية من شخص حتى لو كان الرسول، فالرسول لا يملك

(١) رواه مسلم. وانظر كتابي فقه الخطابة خطبة «تجديد الايمان».

(٢) سيأتي تخريجه.

السادسة: الردُّ على مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ وَأَسْلَافِهِ.  
السابعة: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنِ ذَلِكَ.

لنفسه شيئاً فضلاً على أن يملك ذلك لغيره ولمن أحب ذلك له وحرص على ذلك له لعمه أبى طالب أطمع فى الهداية من الله نسال الله أن يثبت قلوبنا على طاعته.

● السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب.

بدليل قولهما: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» حين أمره النبي ﷺ أن يقول لا إله إلا الله، فدل على أن ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

وفى الحديث رد على من قال بإلاسلام أبى طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قَبَّحَهُمُ اللهُ، لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قلت: ولعلمهم زعموا ذلك الزعم؛ لأن عبدالمطلب أظهر إسلام فى مواقف منها فى غزوة أبرهة للكعبة دعى الله عز وجل فقال

اللهم أن العبد يمنع رحلة فأمنع رحالك  
لا يغلبنا صليبيهم ومحالهم أبداً محالك  
فإن كنت تاركهم وقبلتنا فافعل ما بدالك

فظنوا أن هذا إسلام منه لكن الأمر كما قال الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يعنى هذا فعلاً إسلام لكن هو على شركه. وأيضاً هذا كان إسلامهم فى حالة الشدة ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة لكن هذا ليس معناه أنهم عند الرخاء ظلوا على إسلامهم لكن عند الرخاء رجعوا إلى دين آبائهم. وهو وضع كفره فى هذا الحديث حينما قال أبو جهل «أترغب عن ملة عبدالمطلب» إذأ فملة عبدالمطلب غير ما يدعوا إليه الرسول ﷺ وكذلك أيضاً فيه الرد على من زعم إسلام أبو طالب نفسه لأنه مات فكان آخر كلامه «على ملة عبدالمطلب» فلم يقل لا إله إلا الله بل أبى أن يقول لا إله إلا الله.

● السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يُغفر له.

الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يُجيب دعاءه لعمه أبى طالب، لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى:



## الثامنة: مَضْرَةٌ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (٢) ليس لأحد تصرف في هذا الكون إلا رب الكون.

وكذا أمه ﷺ لم يؤذن له في الاستغفار لها، فدلَّ على أن أهل الكفر ليسوا أهلاً للمغفرة بأى حال، ولا يُجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنما يُدعى لهم بالهداية وهم أحياء أ.هـ.

[قلت]: لهذا كان إبراهيم عليه السلام يدعو لأبيه وهو حي فلما مات تبين له أنه عدو لله فبئراً منه وهذا مؤدى ما جاء عن ابن عباس، وانظر متأماً النبي ﷺ مع جلالة قدره وأنه أعظمنا وأخشانا وأتقانا أعظم الخلق على الإطلاق واستغفر له فعلاً ومع ذلك لم يغفر الله له.

وهو أقرب الناس للإستجابة والإجابة ويدعوا لأقرب الناس إليه ومع ذلك لم يستجيب الله له وهذا يؤكد على معنى قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وعلى قوله ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وعلى قوله تعالى ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فليس لأحد تصرف في الكون إلا بعد أمره. وإلا بعد إذنه أياً كان هذا التصرف. لا إستغفار ولا شفاعة ولا هداية ولا شيء وحقيقة هذا من كمال الألهية وكمال الربوبية، والذي يقر بذلك قولاً وعملاً بالفعل هو من كان على كمال العبودية وكمال الذل والطاعة لله عز وجل أما من ظن غير ذلك في ربوبية الله فهو يقدر في كمال ربوبية الله عز وجل وهو لم يكمل عبوديته لله سبحانه وتعالى.

### ● الثامنة: مَضْرَةٌ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

المعنى أنه لولا هذان الرجلان، لربما وفق أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبي ﷺ لكن هؤلاء - والعياذ بالله - ذكَّراه نعمة الجاهلية ومضرة رفقاء السوء، ليس خاصاً بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة (٣)، وقال ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (٤) وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روى عن

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) هود: ١٢٣.

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري: (٢١٠١).

(٤) سبق.

## التاسعة: مَضْرَةٌ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

النبي ﷺ بسند لا بأس به: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»<sup>(١)</sup> فالمهم أنه يجب على الإنسان العاقل أن يفكر في أصحابه: هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم لأنهم أشد عداً من الجرب، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير، فعليه بهم.

[قلت]: لذلك قال ﷺ: «لا تصاحب لا مؤمناً ولا يأكل طعامك الا تقياً»<sup>(٢)</sup> وأيضاً لعل في معنى الصاحب الأب والأم والزوجة كذلك. ففى تفسير قول الله تعالى «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ» أنها الزوجة «وَالْجَارِ الْجُنْبِ» أنها الزوجة أيضاً.

### ● التاسعة: مَضْرَةٌ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

لأن أبا طالب اختار أن يكون على ملة عبد المطلب حين ذكروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه، فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذلك فلا يضر، بل هو خير، فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه. وإن كان تعظيم الأكاير لما هم عليه من العلم والسن، فليس فيه مضرّة وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل، فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً: من يعظم أبا جهل لأنه سيد أهل الوادى، وكذلك عبد المطلب وغيره، فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسان فى نفسه لهؤلاء أى قدر، لأنهم أعداء الله - عز وجل - وكذلك لا يعظم الرؤساء من الكفار فى زمانه، فإن فيه مضرّة لأنه قد يورث ما يصاد الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلة من الكتاب والسنة.

قلت: ومن ذلك تعظيم الفراعين وجعل آلهتهم شعاراً على كل الهيئات والاعتزاز والافتخار بذلك لهذا قال ﷺ: «من انتسب الى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وفخراً فهو عاشرهم فى النار».

(١) تقدم.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٨/٣)، وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذى (٢٣٩٥) وانظر «رياض الصالحين» (٣٦٧ - بتخريننا).

## العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك؛ لاستدلال أبي جهل بذلك.

قال الحافظ: رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن (\*).

◉ العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك.

شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (١).

فالمبطلون يقولون في شبهتهم: إن أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفهم أحلامهم، ونضل ما هم عليه؟

وهذا يوجد في المتعصبين لمشايعهم وكبرائهم ومذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآناً ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إن بعضهم يجعلهم معصومين، كالرافضة، والتيجانية، والقاديانية، وغيرهم، فهم يرون أن إمامهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا.

والواجب على المرء أن يكون تابعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

[قلت]: والواجب على المرء أن يكون متعصب فقط لله ولشرعة ولرسوله وسنته وأما من نصب شخصاً غير الرسول ووالى عليه وعادى عليه فهذا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وأيضاً قال ﷺ للمهاجرين والأنصار: حينما تعصب مهاجرينهم للمهاجرين وأنصارهم للأنصار قال: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) (٢) فهذه العصبية إذا لم تكن لله وللرسول فهي جاهلية. إذا لم تكن مضبوطة بضابط شرعى فهي جاهلية وهي منتنة وهي خبيثة كما قال النبي ﷺ للمهاجرين والأنصار (أبدعوى الجاهلية وأنا بينس أظهركم؟! ذروها فإنها منتنة ذروها فإنها خبيثة) ونسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين أجمعين ويوحد صفهم وينصرنا على عدونا أ.هـ.

(\*) الفتح (٦/٦٣٧) وتقدم الحديث في مبحث الولاء والبراء.

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) تقدم تخريجه.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها لنفعتها.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره؛ فلاجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصرُوا عليها.

وأما من خالفه من الكبراء والأئمة، فإنهم لا يحتج بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنة إن كانوا أهلاً للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيعتذر لهم بما ذكره أهل العلم، ومن أحسن ما أُلّف في ذلك كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له.

● الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم.

وهذا مبنى على القول بأن معنى حضرته الوفاة، أي: ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.

[قلت]: أي الشاهد لقول: النبي ﷺ «الأعمال بالخواتيم» الحديث وفيه ان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينها وبينه لا ذراعاً فيسبق عليه الكتاب فيعمل أهل النار فيدخلها.

● الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين... إلخ

وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.

[قلت]: يعني مسألة شبهة دين الأباء هذه عظيمة في صدورهم وكبيرة في نفوسهم، لأنهم كما قال الشيخ محمد بن الوهاب لما ذكر القصة بين أنهم لم يجادلوه إلا بها فقط، يعني لم يأتوا بأدلة من كتاب ولا من سنة ولا كذ أو كذا... بل قالوا له فقط «أترغب عن ملة عبدالمطلب» فقط وكان هذا كفيلاً أن يرده عن كل حق، ويرده عن كل خير، فهذا بيان لهذه الشبهة الكبيرة في نفوس المبتلين. نسأل الله العفو والعافية بهذا انتهى هذا الباب بما فيه ولله الحمد والمنة.



## باب (١٨)

### ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

- مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: لما ذكر المصنف - رحمه الله - بعض ما فعله عبّاد القبور مع الأموات من الشرك.

قلت: كالذبح لهم وطلب الشفاعة منهم والإستغاثة بهم والتبرك بهم وطلب النفع ودفع الضر من جهتهم.

ثم قال سليمان آل الشيخ: أراد أن يبين السبب في ذلك ليحذر، وهو الغلو مطلقاً لاسيما في الصالحين فإنه أصل الشرك قديماً وحديثاً لقرب الشرك بالصالحين من النفوس فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم. اهـ.

- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب

قال حامد بن محمد بن حسن<sup>(٢)</sup>: باب ما جاء في بيان ما يدل من الكتاب والسنة أن سبب كفر بني آدم بربهم الذي خلقهم من ماء مهين الذي يخرج من بين الصلب والترائب خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة القميص ثم دبره بأحسن التدبير وهم أجنّة في بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم أذن له بالخروج بالرفق واللين فأدر عليه ثدي أمه بالحليب السائغ إلى حد الفطام ثم أخرج له أسنان منها للقطع ومنها للتغيم والتطحين، فأنعم عليه من كل نعمة كما قال تعالى: ﴿وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾<sup>(٣)</sup>. وجعل عليه حفظة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) «تيسير العزيز الحميد» ٢٢٤.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٢٨٣.

(٣) إبراهيم ٣٤.

(٤) الأعراف (٢)

ومع ذلك كله إنهم اتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دون الله وأطاعوهم في المعاصي حتى آلت بهم المعاصي إلى الكفر وتركهم دينهم الذى فطرهم الله عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فزين لهم الشيطان أعمالهم واجتهادهم.

بالغلو فى الصالحين قديماً وحديثاً، فأحدث عليهم ذلك الشرك بالله فى حقه الذى لا يستحقه إلا هو لا إله إلا هو، وقد نهى الله تعالى عن الغلو فى كتابه الذى أمر الله عباده باتباعه قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ (١). أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢): أراد المصنف - رحمه الله تعالى - بيان ما يؤول إليه الغلو فى الصالحين من الشرك بالله فى الإلهية الذى هو أعظم ذنب عصى الله به، وهو ينافى التوحيد الذى دلّت عليه كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلا الله أ.هـ.

قال ابن باز (٣): بين المؤلف سبب كفرهم وأغلبه هو الغلو فى الصالحين فهناك أسباب أخرى كالحسد والبغى والغالب أنهم أحبوا الأنبياء والصالحين حتى غلوا فيهم فكفروا ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ هذا النصارى وكذلك اليهود لكن النصارى أكثر غلوا.

والمقصود من الباب التحذير من الغلو فى حب الصالحين والأنبياء، وحبهم دين حيث قال ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ والحب والبغض فى الله من الدين كما قال ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يكون لله ورسوله أحب إليه مما سواهما» (\*) لكن هذا الحب لا يكون بالغلو بل باتباعهم وعدم عصيانهم وطاعتهم لابعادتهم من دون الله عز وجل وهكذا العلماء والصالحين يكون حبهم بالترضى عنهم والسير على منهجهم فيجب أن تكون محبة شرعية. اهـ.

قلت: ويؤيد هذا أيضاً ما جاء فى الصحيح عنه ﷺ.

(١) الرعد: ١١. (٢) فتح المجيد ٢٧٧.

(٣) التعليق المفيد ١١٣.

(\*) ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم فى السنة وأخرجه غيره واستغربه ابن عساکر وضعفه الألبانى انظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٢/١٠٦١/١ ح ٧٢٥ ب).

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان». وفي الحديث الضعيف: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». وسيأتي في متن كتاب التوحيد.

قال ناصر السعدى<sup>(١)</sup>: والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام:

أهل الجفاء الذين يهضمون حقوقهم ولا يقومون بحقوقهم من الحب والموالة لهم والتوقير والتبجيل.

وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها.

وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرؤون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم.

والصالحون أيضاً يتبرؤون من أن يدعوا لأنفسهم حقاً من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

● حق خاص لله لا يشاركه فيه مشارك وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة، والإنابة إليه حباً وخوفاً ورجاءً.

● وحق خاص للرسل وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

● وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله ومحبة رسله، ولكن هذه لله أصلاً وللرسل تبعاً لحق الله.

فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على إختلاف منازلهم ومراتبهم والله أعلم أهـ.  
قوله: (سبب).

قال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: السبب في اللغة: ما يتوصل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى:

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) القول السديد ٦٢ و٦٣.

(٢) القول المفيد ١/٤٦٥.

(٣) الحج: ١٥.

أى: بشيء يوصله إلى السماء ومنه أيضاً سُمى الحبلُ سبباً، لأنه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

[قلت]: واصطلاحاً: وصف ظاهر منضبط جعله الشارع سبباً لأمر ما بحيث يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم كروية الهلال سبب لصيام رمضان.

قوله: (بنى آدم)<sup>(١)</sup>:

قال ابن عثيمين: - يشمل الرجال والنساء.

قلت كما فى قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية يعنى استروا عوراتكم وكقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾<sup>(٢)</sup> الآية.

ثم قال ابن عثيمين: ولأنه إذا قيل: بنو فلان وهم قبيلة؛ شمل ذكورهم وإناثهم، أما إذا قيل: بنو فلان، أى رجل معين: فالمراد بهم الذكور ا. هـ.

قوله: (وتركهم)

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٣)</sup>: أما تركهم فهو مجرور عطفاً على المضاف إليه. اهـ.

قال ابن عثيمين: <sup>(٤)</sup> يعنى سبب تركهم.

قوله: (دينهم).

قال ابن عثيمين: مفعول ترك، لأن ترك مصدر ومضاف إلى فاعله و«دينهم» يكون مفعولاً به<sup>(٥)</sup>.

قوله: «الغلو»:

قال ناصر السعدى<sup>(٦)</sup>: والغلو هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإن حق الله الذى لا يشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والتصرف المطلق، من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيباً من هذه الأشياء فقد ساوى به رباً

(١) المصدر السابق فى القول المفيد.

(٢) الأعراف: ٢٧.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢٤.

(٤) القول المفيد (١/٤٦٦).

(٥) المصدر السابق.

(٦) القول السديد ٦٠ و٦١.



العالمين، وذلك أعظم الشرك، ومن رفع أحداً من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين اهـ.

قال ابن عثيمين: (١) هو مجاوزة الحد بالثناء قدحاً أو مدحاً.

قلت: والدليل على أن الثناء يأتي بالقدح أو بالمدح ما ثبت في الصحيح عن أنس بن مالك - يقول: «مروا بجنابة فأتوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ «وجبت»، ثم مروا بأخرى فأتوا عليها شراً، فقال: وجبت، فقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ما وجبت قال: «هذا أنثيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أنثيتم عليه شراً فوجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض» (٢). ولقد حدث الأمران فى من قبلنا، فميسى عليه السلام حصل فيه الغلو بالمدح فرفعه قوم إلى درجة الألوهية، وحصل فيه الغلو بالقدح فجعله اليهود ولد زنى.

والغالب من مراد المصنف فى هذا الباب أنه أراد مجاوزة الحد فى الثناء بالمدح كما تقدم، ولا استبعد الأخرى لأن من أسباب كفر اليهود أنهم تجاوزوا الحد فى عيسى بالقدح فكفروا بذلك.

وكما حدث الغلو بنوعيه فى من قبلنا كذلك حدث فى هذه الأمة، فنرى شخصاً واحداً يرفعه الناس تارة ويدنوه أخرى وخير الأمور كما قال عبدالله بن مطرف أوسطها وتلك الحسنه بين السيتين، وهذه هى الوسطية التى بعث بها النبى ﷺ وهذا هو شرعنا شرع وسط الذى من تخلف عنه فهو مُتطرف. والله أعلم.

قوله (الصالحين):

قال ابن عثيمين: (٣) الصالح هو الذى قام بحق الله وحق العباد.

قلت: كما فى الحديث عن ابن عمر مرفوعاً «نعم الرجل عبدالله لو كان يصلى من الليل» (٤) أو عبدالله رجل صالح وكما فى الصحيح من حديث جابر مرفوعاً لما توفى

(١) المصدر السابق.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٦٧)، ومسلم فى الجنائز (١٨/٧ - النوى) عن أنس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٥٢ - بتخريجه).

(٣) «القول المفيد» (٤٤٦/١). (٤) تقدم تخريجه.

النجاشى قال ﷺ: «قد توفى اليوم رجل صالح من الحبش»<sup>(١)</sup> وعند مسلم «مات اليوم عبدالله صالح أصحمة»<sup>(٢)</sup>.

والصالح أيضاً هو من قام بحق الله الواجب عليه وزيادة أى قام بالواجبات والمستحبات ويدل عليه حديث ابن عمر المتقدم الذى قال فيه «عبدالله رجل صالح لو كان يقوم الليل»<sup>(٣)</sup>. وهو كان يقوم بالواجب فورصفه بالصلاح إذا قام بما هو زائد عن ذلك وهو المستحبات كقيام الليل.

ثم قال ابن عثيمين: وفى هذه الترجمة إضافة الشيء إلى سببه بدون أن يُنسب إلى الله بقوله «أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين»، هذا جائز إذا كان السبب حقيقةً وصحيحاً، وذلك إذا كان السبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسول ﷺ: «لولا أنا؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار»<sup>(٤)</sup> يعنى: عمه أبا طالب اهـ.

قلت: وإضافة الشيء إلى سببه بدون أن ينسب إلى الله عزوجل - جائز فى حالتين. الأولى: ألا ينسب إل تادياً معه وإن كان هو منه سبحانه كما قال: ﴿قل كل من عند الله﴾ وكما جاء فى الأثر «والشر ليس إليك» وكذلك قول أيوب ﴿إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب﴾ وقول إبراهيم ﴿وإذا مرضت فهو يشفينى﴾ ومثال ذلك أيضاً ترجمة الصنف فى هذا الباب.

الثانية: أن يكون هذا السبب ثبت شرعاً أو حساً أو واقعاً فجائز أن يضاف الشيء إلى سببه الثابت بتلك الثلاثة، ويستدل عليه بقوله ﷺ: «لولا أنا، لكان فى الدرك الأسفل فى النار»<sup>(٥)</sup> وقد تقدم كلام ابن عثيمين فى ذلك.



(١) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٢٠) عن جابر به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجناز (٦٦/٢٦/٤) عن جابر أيضاً.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) سأتى تخريجه.

(٥) سأتى تخريجه.

وقول الله - عزوجل - : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (١)

قوله: وقول الله عزوجل: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ الآية.

- مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله (٢): أن من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلهاً وشابه النصارى في شركهم واليهود في تفریطهم أ.هـ.

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على أن سبب خروج أهل الكتاب من دينهم هو غلو النصارى في تعظيم عيسى وغلو اليهود في ذمه أ.هـ.

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٣): وإنما اعتبر مثل هذا شركاً لأن النصارى نزّلوا عيسى منزلة الله فعبده معه. اهـ.

قوله: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾.

الإعراب:-

قال محيي الدين درويش (٤): كلام مستأنف مسوق لتحذير أهل الكتاب من المغالاة.

ويا حرف نداء وأهل الكتاب منادى مضاف نداء وهم اليهود والنصارى، والكتاب: التوراة لليهود: والإنجيل للنصارى (٥). ولا نهاية وتغلوا فعل مضارع مجزوم بلا، وفي دينكم متعلقان بتغلوا. اهـ.

التفسير بالقرآن

قال الشنقيطي (٦): هذا الغلو الذي نهوا عنه هو وقول غير الحق هو قول بعضهم إن عيسى ابن الله، وقول بعضهم هو الله، وقول بعضهم هو إله مع الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً كما بينه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (٧).

(٢) «الجامع الفريد» ٧٩.

(١) النساء: ١٧.

(٤) إعراب القرآن ٢/٣٨٩.

(٣) «الجديد» ١٧٤.

(٦) أضواء البيان ١/٣٤٠.

(٥) القول المفيد ١/٤٦٧.

(٧) التوبة: ٣٠.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (١).

وقوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (٢) وأشار هنا إلى إبطال هذه المقتريات بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ (٣).

وقوله: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ (٤).

وقوله ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. وقوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أ.هـ.

قال ابن كثير (٥): ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصرارى فإنهم تجاوزوا هذا التصديق بعيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة... بل قد غلوا في اتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فأدعوا فيهم العصمة واتبعوه في كل ما قالوا، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً. ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. اهـ.

ويفسر الآية الأحاديث التي بعده في الباب.

روى أحمد بسنده عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لاتطرونى كما أطرت النصرارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبدالله ورسوله» (٦).

ورواه البخارى بسنده عن الزهرى به بلفظ «فإنما أنا عبدالله ورسوله» (٧).

وروى أحمد بسنده عن أنس بن مالك، أن رجلاً قال: يا محمد ياسيدنا، وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله، عبدالله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله - عزوجل -» (٨).

وروى مسلم عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها

(٢) المائة: ٧٣.

(١) المائة: ١٧.

(٤) النساء: ١٧٢.

(٣) النساء: ١٧١.

(٦) سياتى تخريجه.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٥٨٢/٢.

(٨) سياتى تخريجه.

(٧) سياتى تخريجه.

إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية، من أيها شاء على ما كان من عمل»<sup>(٣)</sup>.

عن قتادة في قوله ﴿لَا تَغْلُوا﴾<sup>(٤)</sup>. قالوا: لا تبتدعوا.

وروى عن الحسن: أنه خطاب لليهود والنصارى، لأن النصارى غلوا في المسيح فجاوزوا به منزلة الأنبياء حتى اتخذوه إلهاً، واليهود غالت فيه فجعلوه لغير رِشدة فعلا الفريقان جميعاً في أمره<sup>(٣)</sup>.

وروى ابن جرير عن الربيع بن أنس قال: صاروا فريقين فريق غلوا في الدين فكان غلوهم فيه الشك فيه الرغبة عنه وفريق منهم قصروا عنه ففسقوا عن أمر ربهم<sup>(٤)</sup>.

قلت: أما [الدين] فإنه يطلق ويراد به الجزء كما قال ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ويطلق ويراد به الطريقة كما قال الله ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ويطلق ويراد به العبادة وهو المقصود هنا والمعنى لا تغلوا في عبادتكم وأعمالكم ولا تجعلوها غلواً في الصالحين وسيأتي.

قال الطبري<sup>(٥)</sup>: يعني جل ثناؤه بقوله ﴿يا أهل الكتاب﴾ يا أهل الإنجيل من النصارى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يقول لا تجاوزوا الحق في دينكم ففترطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى ﴿غير الحق﴾ فإن قيلكم في عيسى أنه ابن الله قول منكم على الله غير الحق؛ لأن الله لم يتخذ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابناً ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَهُ إِبْنٌ الْحَقِّ﴾.

وأصل الغلو في كل شيء: مجاوزة حده الذي هو حده.

يقال منه في الدين قد غلا فهو يغلو غلواً، وغلا بالجارية عظمها ولحمها: إذا أسرع الشباب فجاوزت لداتها. يغلو بها غلواً وغلاءً ومن ذلك قول الحرث بن خالد المخزومي:

رؤد الشباب غلا بها عظم. أهـ

خمصانة قلق موشحها

(١) تقدم في أول الكتاب.

(٢) ذكره في الدر المنثور (٤٣٩/٢). ونسبه لابن المنذر.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٤١٢/٢.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣٤/٦).

(٥) المصدر السابق.

قال الجصاص<sup>(١)</sup>: والغلو في الدين هو مجاوزة حد الحق فيه... ولذلك قيل: دين الله بين المقصر والمغالي أ.هـ.

قال البغوي<sup>(٢)</sup>: نزلت في النصارى وهم أصناف أربعة: اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية، والمرقسية.

فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية.

وقالت النسطورية: عيسى هو ابن الله.

وقالت المرقسية: ثالث ثلاثة.

فأنزل الله تعالى هذه الآية. ويقال الملكانية يقولون: عيسى هو الله. واليعقوبية يقولون ابن الله، والنسطورية يقولون: ثالث ثلاثة: علمهم رجل من اليهود يقال له بولص اهـ.

قال ابن الجوزي<sup>(٣)</sup>: قال مقاتل: نزلت في نصارى نجران السيد والعاقب، ومن معهما، والجمهور على أن المراد بهذه الآية النصارى.

وقال الحسن: نزلت في اليهود والنصارى.

والغلو: الإفراط ومجاوزة الحد، وفيه غلا السعير. وقال الزجاج الغلو: مجاوزة القدر في الظلم.

وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم هو ابن الله، وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة.

وعلى قول الحسن غلو اليهود فيه قولهم: إنه لغير رِشْدَةٍ.

وقال بعض العلماء: لا تغلوا في دينكم بالزيادة في التشدد فيه أهـ.

قال الرازي<sup>(٤)</sup>: وأعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات اليهود تكلم بعد ذلك مع النصارى في هذه الآية، والتقدير، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من النصارى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أى لا تفرطوا في تعظيم المسيح، وذلك لأنه تعالى حكى عن اليهود أنهم يبالغون في الطعن في المسيح، وهؤلاء النصارى يبالغون في تعظيمه وكلا طرفي قصدهم ذميم، فلهذا قال للنصارى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. اهـ.

(٢) معالم التنزيل ١٩٢/٢.

(٤) التفسير الكبير ١١٧/١١/٦.

(١) أحكام القرآن ٤١٢/٢.

(٣) زاد المسير ١٥٦/٢.

قال القرطبي<sup>(١)</sup>: قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ نهي عن الغلو. والغلو التجاوز في الحد؛ ومنه غلا السعر يغلو غلاء؛ وغلا الرجل في الأمر غلوا، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لِدَاتِهَا؛ ويعنى بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه رباً؛ فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر؛ ولذلك قال مطرف بن عبد الله: الحسنه بين سيئين؛ وقال الشاعر:

وأوفٍ ولا تسوفٍ حَقَّكَ كَلَّهُ      وصافح فلم يستوفٍ قَطُّ كَرِيمُ  
ولا تَغْلُ في شَيْءٍ من الأُمورِ واقتصد      كَلَّا طَرَفِي قَصْدِ الأُمورِ ذَمِيمُ

وقال آخر:

عليك بأوساطِ الأُمورِ فإنها      نَجاةٌ ولا تَرْكَبُ ذُلُولاً ولا صَعْباً اهـ

قال الشوكاني<sup>(٢)</sup>: والمراد بالآية: النهي لهم عن الإفراط تارة، والتفريط أخرى، فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى حتى جعلوه رباً، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة أهـ.

قال ابن تيمية<sup>(٣)</sup>: ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط وضاهاهم في ذلك فقد شابههم كالخوارج المارقين من الإسلام، والذين خرجوا في خلافة علي بن أبي طالب رضى الله عنه وقاتلهم حين خرجوا على المسلمين بأمر النبي ﷺ كما ثبت ذلك من عشرة أوجه في (الصحيح) و (المسانيد) وغير ذلك.

وكذلك من غلا في دينه من الرافضة والقدرية، والجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وقال أيضاً: فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام وقد مرق عنه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المستناب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب: منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. اهـ.

قال ناصر السعدى<sup>(٤)</sup>: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو:

(١) تفسير القرطبي ٣/١٧٠٢٠.

(٢) فتح القدير ١/٦٣٣.

(٣) الوصية الكبرى نقلاً عن تيسير العزيز الحميد.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١/٤٣٢.

مجاوزه الحد، والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى، فى غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذى لا يلىق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط، من المنهيات، فالغلو كذلك. اهـ.

قال الشنقيطى (١): وقال بعض العلماء: يدخل فى الغلو وغير الحق المنهى عنه فى هذه الآية ما قالوا من البهتان على مريم أيضاً واعتمده القرطبى وعليه فىكون الغلو المنهى عنه شاملاً للتفريط والإفراط.

وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط وهو معنى قول مطرف بن عبدالله: الحسنة بين سيئين وبه تعلم أن من جَانَبَ التفريط والإفراط فقد اهتدى ولقد أجاد من قال:

ولاتغل فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم. أ.هـ

قال مقبل بن هادى الوداعى (٢): فى هذه الآية الكريمة وفى الحديثين السليدين بعدهما رد على المبتدعة الذين يعملون الموالد ويحتفلون بها سواء أكان باسم النبى ﷺ أم باسم غيره من الصالحين ولو أنهم شغلوا أنفسهم بالقيام بما أوجب الله عليهم من الجهاد فى سبيل الله وبال دعوة إلى الله وبالعبادة المشروعة لما وجدوا الفراغ الذى جعلهم يتخبطون تائبين عن النور الإلهى إلى خزعات ما أنزل الله بها من سلطان، وأعداء الإسلام يوردون الشبهات على عوام المسلمين وعلى أشباه العوام ويشككونهم فى دينهم وهؤلاء المخذولون يشغلون المسلمين بالاحتفال بالموالد المبتدعة نسأل الله لنا ولهم الهداية أمين أهـ.

قال صاحب الظلال (٣): وفى هذا الدرس يتجه السياق إلى إنصاف الحق والعقيدة، وإنصاف عيسى بن مريم كذلك من غلو النصارى فى شأن المسيح - عليه السلام - ومن الأساطير الوثنية التى تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام، وشتى الملل، التى احتكت بها النصرانية؛ سواء فى ذلك أساطير الإغريق والرومان، وأساطير قدماء المصريين، وأساطير الهند!

(٢) تحقيق تفسير ابن كثير ٥٨٣/٢.

(١) أضواء البيان ١/٣٤٠ و٣٤١.

(٣) ٨١٥ و٨١٦.



ولقد تولى القرآن الكريم تصحيح عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين، المتخلفة من بقايا الخيفية دين إبراهيم عليه السلام في الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترهات الجاهلية!

لابل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة في الله للبشر أجمعين؛ وينقدها من كل إنحراف وكل اختلال، وكل غلو، وكل تفریط، في تفكير البشر أجمعين فصحح - فيما صحح - اختلالات تصور التوحيد في آراء أرسطو في أئينا قبل الميلاد، وأفلاطون في الإسكندرية بعد الميلاد؛ وما بينهما وما تلاهما من شتى التصورات في شتى الفلسفات التي كانت تخبط في التيه، معتمدة على زبالة العقل البشري، الذي لا بد أن تعينه الرسالة، ليهتدى في هذا التيه.

والقضية التي يعرض لها السياق في هذه الآيات. هي قضية «التثليث» وما تتضمنه من أسطورة «بنوة المسيح» لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح.

ولقد جاء الإسلام والعقيدة التي يعتنقها النصارى - على اختلاف المذاهب - هي عقيدة أن الإله واحد في أفانيم ثلاثة: الأب. والابن، والروح القدس. والمسيح هو «الابن».. ثم تختلف المذاهب بعد ذلك في المسيح. هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط. وهل هو ذو مشيئة واحدة مع إختلاف الطبيعتين؟ وهل هو قديم كالآب أو مخلوق.. إلى آخر ما تفرقت به المذاهب، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة.

والثابت من التسبغ التاريخي لأطوار العقيدة النصرانية، أن عقيدة التثليث، كذلك عقيدة بنوة المسيح لله - سبحانه - (ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم، ودخولها في التثليات المتعددة الأشكال) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى. إنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التاريخ، مع الوثنيين الذين دخلوا في النصرانية، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة.. والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الديانات المصرية القديمة، من تثليث «أوزوريس وإيزيس، وحوريس» والتثليات المتعددة في هذه الديانة.

قلت: ولقد سمعت من بعض قساوسة الشرق بل هو أبوهم الأول على الإطلاق أنه يُنزَلُ قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ على إيزيس وأوزوريس

وحوريس، ويقول: نعم إنهم كفروا لأن هذا فى الثالث الوثنى أما الثالث المقدس أى الذى يعبدونه الآن فلا تعنيه الآية، وفات هذا القس العرض التاريخى الذى يبين أن فكرة التثليث الذى قالوا به إنما هى وثنية أصلاً وكان الأولى به أن يرجع عنها لهذا التشابه الوثنى أو يستحى من ذكرها لولا أن القوم أضل من الحمر كما قال ابن القيم وتقدم معنا الرد على هذه الشبهة من وجوه:

**أولها:** أنه على هذا الفهم يبقى أن تكون الآية (لقد كفر الذين قالوا إن الله رابع أربعة) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ذلك لأنه إذا ضم إلى إزيس وأوزوريس وحوريس كان رابعهم وليس ثالثهم.

**ثانياً:** أن الوثنيين لم يقولوا إن الله ثالث ثلاثة إنما قالوا بالوهية الثلاثة وهناك فارق ولم يثبت هذا العرض التاريخى ولا غيره أن أحداً قال هذا القول إلا النصارى. وتقدم كثير من الرد على هذه الشبهة فى شرح حديث عبادة بن الصامت فى باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب. والله الموفق لا رب سواه.

**ثم قال صاحب الظلال:** وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التى أنزلها بهم الأباطرة الرومان. والمجامع المقدسة الموالية للدولة (الملوكانيون) إلى ما بعد القرن السادس الميلادى على الرغم من كل ما لاقوه من اضطهاد وتغرب وتشرد بعيداً عن أيدى السلطات الرومانية!

وما تزال فكرة «التثليث» تصدم عقول المثقفين من النصارى، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لاينكشف سرها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل ما فى السماوات وما فى الأرض!

يقول القس بوطر صاحب رسالة: «الأصول والفروع» أحد شراح العقيدة النصرانية، فى هذه القضية: «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء فى المستقبل، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السماوات والأرض». اهـ.

ولانريد هنا أن ندخل فى سرد تاريخى للأطوار وللطريقة التى تسلت بها هذه الفكرة إلى النصرانية. وهى إحدى ديانات التوحيد الأساسية. اهـ.

والحاصل من السرد التاريخى عرض غلو النصارى التدريجى حتى وصلوا إلى هذه الدركة. نسأل الله لهم الهداية للإسلام وللتوحيد الحق. اهـ.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

قال محيي الدين درويش<sup>(١)</sup>: الواو عاطفة، ﴿وَلَا﴾ ناهية ﴿تَقُولُوا﴾ فعل مضارع مجزوم، و﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلقان بتقولوا، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، و﴿الْحَقَّ﴾ مفعول مطلق على أنه نعت لمصدر محذوف، أى: إلا القول الحق، أو مفعول به لأنه تضمن معنى القول، نحو: قلت قصيدة اهـ.

### ● أقوال أهل التفسير

قال البغوي<sup>(٢)</sup>: لا تقولوا إن له شريكاً وولداً أـهـ.

قال ابن الجوزي<sup>(٣)</sup>: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

أى: لا تقولوا: إن الله له شريك أو ابن أو زوجة اهـ.

قال القرطبي<sup>(٤)</sup>: أى لا تقولوا إن له شريكاً أو أبناء اهـ.

قال ابن كثير<sup>(٥)</sup>: وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

أى لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عزوجل عن ذلك علواً كبيراً وتنزهه وتقدس وتوحد فى سؤدده وكبريائه وعظمته فلا إله إلا هو ولا رب سواه ولهذا قال ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ اهـ.

قال الشوكاني<sup>(٦)</sup>: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته

به رسله، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزيز ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله اهـ.

قال السعدى<sup>(٧)</sup>: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهذا الكلام، يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهى عنهما، وهما: قول الكذب على الله والقول بلا علم، فى أسمائه وصفاته، وأفعاله، وشرعه، ورساله، والثالث: مأمور وهو: قول الحق فى هذه الأمور. ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق فى شأن عيسى عليه السلام، نصاً على قول الحق فيه، المخالف للطريقة اليهودية والنصرانية قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ اهـ.

(١) معالم التنزيل ١٩٣/٢.

(٤) تفسير القرطبي ٢٠١٧/٣.

(٦) فتح القدير ٦٣٣/١.

(١) إعراب القرآن ٣٩٠/٢.

(٣) زاد المسير ١٥٦/٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٥٦٠/١.

(٧) تفسير ابن كثير ٤٣٢/١ و٤٣٣.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾.

قال محيي الدين درويش<sup>(١)</sup>: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ كلام مستأنف مسوق للتعريف بالسيد المسيح عليه السلام. و﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، و﴿الْمَسِيحُ﴾ مبتدأ و﴿عِيسَى﴾ بدل منه، و﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بدل أيضاً أو صفة. و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبر المبتدأ أه.

وذكر ذلك القرطبي أيضاً في تفسيره لهذه الآية أ. هـ.

### ● أقوال أهل التفسير

قال الطبري<sup>(٢)</sup>: يعني جل ثناؤه بقوله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ما المسيح أيها الغالون في دينهم من أهل الكتاب بآسن الله كما تزعمون ولكنه عيسى بن مريم دون غيرها من الخلق لانسب له غير ذلك.

ثم نعته الله جل ثناؤه بنعته ووصفه بصفته فقال هو ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسله الله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه وأصل المسيح الممسوح صرف من مفعول إلى فاعيل وسماه الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب، وقيل: مسح من الذنوب والأدناس التي تكون في الآدميين كما يمسح الشيء من الأذى الذي يكون فيه فيطهر منه. ولذلك قال مجاهد ومن قال مثل قوله: المسيح الصديق.

وقد زعم بعض الناس أن أصل هذه الكلمة عبرانية أو سريانية (مشيحا) فعربت فقيل المسيح كما عرب سائر أسماء الأنبياء التي في القرآن مثل إسماعيل وإسحق وموسى وعيسى.

قال أبو جعفر: وليس ما مثل به من ذلك للمسيح بنظير وذلك أن إسماعيل وإسحاق وما أشبه ذلك أسماء لصفات والمسيح صفة وغير جائز أن تخاطب العرب وغيرها من أجناس الخلق في صفة شيء إلا بمثل ما يفهم عن مخاطبها ولو كان المسيح من غير كلام العرب ولم تكن العرب تعقل معناه ما خوطبت به.

وأما المسيح الدجال فإنه أيضاً بمعنى الممسوح العين صرف من مفعول إلى فاعيل فمعنى المسيح في عيسى ﷺ الممسوح البدن من الأدناس والآثام ومعنى المسيح في الدجال: الممسوح العين اليمنى أو اليسرى كالذي روى عن رسول ﷺ في ذلك أه.

(١) إعراب القرآن ٢ / ٣٩٠.

(٢) تفسير الطبري ٤ / ٦ / ٢٤ و ٢٥.

قال القرطبي<sup>(١)</sup>: الأولى: ودلّ بقوله: ﴿عيسى ابنُ مريمَ﴾ على أن من كان منسوباً بوالدته كيف يكون إلهاً!! وحق الإله أن يكون قديماً لا مُحدثاً، ويكون «رسولُ الله» خبراً بعد خبر.

الثانية: لم يذكر الله عزوجل امرأة وسمّاها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران؛ فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياخ؛ فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ، ولا يبتذلون أسماءهن؛ بل يكونون عن الزوجة بالعرس والأهل والعِيال ونحو ذلك، فإن ذكروا الإماء لم يكنوا عنهنّ ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها؛ فلما قالت النصارى في مريم ما قالت، وفي ابنها صرح الله باسمها، ولم يكن عنها بالأُمّة والعبودية التي هي صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمائها.

الثالثة: اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرر اسمه منسوباً للأُم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفى الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله. والله أعلم أ هـ.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: أي إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه قال له: كن. فكان، رسول من رسله أ هـ.

قال السعدي<sup>(٣)</sup>: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة، التي هي أعلى الدرجات، وأجل المثوبات أ هـ.

قال صاحب الظلال<sup>(٤)</sup>: فهو على وجه القصد والتحديد: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾.. شأنه في هذا شأن بقية الرسل، شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان أ هـ.

قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهاَ إِلَى مَرْيَمَ﴾

قال محيي الدين درويش<sup>(٥)</sup>: ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطف على رسول، وجملة ﴿أَلْفَاهاَ﴾ حالية، ولا بد من تقدير «قد» معها، والعامل في الحال معنى «كلمته»، لأن معنى الكلمة أنه مكون بها من غير أب. ﴿إِلَى مَرْيَمَ﴾ جار ومجرور متعلقان بألفاها أ هـ.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٠.

(٤) ١١٦/٢ و ٨١٧.

(١) تفسير القرطبي ٣/ ٢٠١٧ و ٢٠١٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٣٣.

(٥) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠.

عن قتادة في قوله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ قال: كلمته أن قال: كن فكان (١).

قال الطبري (٢): وأما قوله ألقاها إلى مريم يعني بالكلمة الرسالة التي أمر الله ملائكته أن تأتي مريم بها بشارة من الله لها التي ذكر الله جل ثناؤه في قوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ﴾ يعني برسالة منه وبشارة من عنده.

قال الرازي (٣): والمعنى أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولانطفة كما قال ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أهـ.

قال القرطبي (٤): قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أى هو مكون بكلمة «كن» فكان بشراً من غير أب، والعرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه. وقيل: «كلمته» بشارة الله تعالى مريم عليها السلام، ورسالته إليها على لسان جبريل [عليه السلام]؛ وذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ وقيل: «الكلمة» ههنا بمعنى الآية؛ قال الله تعالى: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ و ﴿مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾. وكان لعيسى أربعة أسماء؛ المسيح وعيسى وكلمة وروح، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن. ومعنى ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أمر بها مريم أهـ.

قال ابن كثير (٥): وكلمته ألقاها إلى مريم أى خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم ففتح فيها من روحه بإذن ربه - عز وجل - فكان عيسى بإذنه عز وجل وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، والروح التي أرسل بها جبريل. قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

(١) ذكره السيوطي في «الدرر» (٢/٤٣٩) ونسبه لعبدالرزاق، وابن جرير، وابن المنذر وانظر تفسير ابن

أبي حاتم بتخریجنا

(٢) تفسير الطبري ٢٥/٦/٤.

(٣) التفسير الكبير ١١٧/١١/٦.

(٤) تفسير القرطبي ٢٠١٨/٣.

(٥) تفسير ابن كثير ٥٦٠/١ و٥٦١.

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ إلى آخر السورة.

وقال تعالى إخباراً عن المسيح ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ الآية

وقال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هو كقوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال سمعت شاذان بن يحيى يقول في قول الله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى (٢).

وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أى أعلمها بها كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أى يعلمك بكلمة منه ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

بل الصحيح أنها الكلمة التى جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام. وقال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعي حدثنى عمير بن هانىء حدثنا جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على كان من العمل» (٣) وقال الوليد فحدثنى عبدالرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير بن هانىء عن جنادة زاد «من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» (٤) وكذا رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن ابن جابر به، ومن وجه آخر عن الأوزاعي به ف قوله فى الآية والحديث أ هـ.

قال صاحب الظلال (٥): «وأقرب تفسير لهذه العبارة، أنه سبحانه، خلق عيسى بالأمر الكونى المباشر، الذى يقول عنه فى مواضع من القرآن: إنه «كن.. فيكون».. فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى فى بطنها من غير نطفة أب - كما هو المؤلف فى حياة البشر غير آدم - والكلمة التى تخلق كل شىء من العدم، لا عجب فى أن تخلق عيسى - عليه السلام - فى بطن مريم من النطفة التى يعبر عنها بقوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أ هـ.

(١) تقدم تخريجه

(٢) انظر تخريجه فى تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا فى تفسير هذه الآية.

(٥) ٨١٧/٢

(٤) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

قال محيي الدين درويش<sup>(١)</sup>: وروح عطف على كلمته، ومنه متعلقان بمحذوف صفة لروح. ومن لا ابتداء الغاية أ.هـ.

قال ابن الجوزي<sup>(٢)</sup>: في معنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ سبعة أقوال:

أحدها: أنه روح من أرواح الأبدان. قال أبي بن كعب: لما أخذ الله الميثاق على بني آدم كان عيسى روحاً من تلك الأرواح، فأرسله إلى مريم، فحملت به.  
والثاني: أن الروح النفخ، فسُمي روحاً، لأنه حدث عن نفخة جبريل في درع مريم، ومنه قول ذى الرمة.

وَقَلْتُ لَهُ أَرْفَعَهَا إِلَيْكَ وَأَحْيَاهَا  
بِرُوحِكَ وَأَقْتَنَتْ لَهَا قَيْتَةً قَدْرًا

هذا قول أبي روق.

والثالث: أن معنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ إنسان حيّ بإحياء الله له.

والرابع: أن الروح: الرحمة، فمعناه: ورحمة منه، ومثله ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾<sup>(٣)</sup> والخامس: أن الروح هاهنا جبريل. فالمعنى: ألقاها الله إلى مريم، والذي ألقاها روح منه، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو سليمان الدمشقي.

والسادس: أنه سمّاه روحاً، لأنه يحيى به الناس كما يحيون بالأرواح، ولهذا المعنى: سمي القرآن روحاً، ذكره القاضي أبو يعلى.

والسابع: أن الروح: الوحي أوحى الله إلى مريم يبشرها به، وأوحى إلى جبريل بالنفخ في درعها، وأوحى إلى ذات عيسى أن: كن فكان. ومثله ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾<sup>(٤)</sup> أى: بالوحي، ذكره الثعلبي.

فأما قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ فإنه إضافة تشريف، كما تقول: بيت الله، والمعنى من أمره، وبما يقاربها قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾<sup>(٥)</sup> أ.هـ.

وينحو هذا ذكر جلّ المفسرين كالطبري وغيره وأذكر تعليقاتهم على هذه الأقوال.

قال الطبري<sup>(٦)</sup>: ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيد من الصواب أ.هـ.

(٢) زاد المسير ١٥٦/٢ و ١٥٧.

(١) إعراب القرآن ٢/ ٣٩.

(٤) النحل: ٢.

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٦) تفسير الطبري ٢٥/٦/٤.

(٥) الجاثية: ١٣.



قال القرطبي<sup>(١)</sup>: قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هذا الذى أوقع النصرارى فى الإضلال فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا وعنه أجوبة ثمانية.. ثم ذكر بنحو ما ذكره ابن الجوزى أ هـ.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: وليست من للتبعيض كما تقوله النصرارى عليهم لعائن الله المتتابعة بل هى لإبتداء الغاية كما فى الآية الأخرى.

وقد قال مجاهد فى قوله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى ورسول منه: وقال غيره: ومجبة منه. والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله فى قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ وفى قوله ﴿وَوَطَّهَرْتُ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ وكما روى فى الحديث الصحيح «فأدخل على ربي فى داره»<sup>(٣)</sup> أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحداً هـ.

قال صاحب الظلال<sup>(٤)</sup>: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.. وقد نفخ الله فى طينة آدم من قبل روحه. فكان «إنساناً».. كما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وكذلك قال فى قصة عيسى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا﴾.. فالأمر له سابقة.. والروح هنا هو الروح هناك.. ولم يقل أحد من أهل الكتاب - وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله - إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله. كما قالوا عن عيسى؛ مع تشابه الحال - من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الحلقة كذلك. بل إن آدم خلق من غير أب وأم: وعيسى خلق مع وجود أم.. وكذلك قال الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ويعجب الإنسان - وهو يرى وضوح القضية وبساطتها - من فعل الهوى ورواسب الوثنية التى عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله، فى أذهان أجيال وأجيال وهى - كما يصورها القرآن - بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة.

إن الذى وهب لآدم.. من غير أبوين.. حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه، لهو الذى وهب عيسى.. من غير أب.. هذه الحياة الإنسانية

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٦١.

(١) تفسير القرطبي ٣/١٨٠٢.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ٨١٧/٢.

كذلك . . وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التي لانتتهى عن ألوهية المسيح، لمجرد أنه جاء من غير أب، وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك! . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أهـ.

قوله: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾

قال محبى الدين درويش<sup>(١)</sup>: الفاء الفصيحة، أى: فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَأْمِنُوا

بِاللَّهِ﴾ إيماناً يليق به تعالى، ﴿بِاللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بآمنوا ﴿وَرَسُولِهِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، والواو عاطفة، ولانهاية، وتقولوا فعل مضارع مجزوم بها. و﴿ثَلَاثَةً﴾ خبر مبتدأ محذوف. أى: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وجملة آلهتنا ثلاثة فى محل نصب مقول القول أهـ.

### ● أقوال أهل التفسير

قال الطبرى<sup>(٢)</sup>: يعنى بقوله جل ثناؤه فأمنوا بالله ورسله فصدقوا يا أهل الكتاب

بوحداية الله وربوبيته وأنه لا ولد له وصدقوا رسله فيما جاؤكم به من عند الله وفيما أخبرتم به أن الله واحد لا شريك له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا تقولوا ثلاثة يعنى ولا تقولوا الأرباب ثلاثة ورفعت الثلاثة بمحذوف دل عليه الظاهر وهو هم ومعنى الكلام ولا تقولوا هم ثلاثة وإنما جاز ذلك لأن القول حكاية والعرب تفعل ذلك فى الحكاية ومنه قول الله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وكذلك كل ما ورد من مرفوع بعد القول لارافع معه فقيه إضمار اسم راجع لذلك الاسم أهـ.

قال الرازى<sup>(٣)</sup>: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى أن عيسى من رسل الله فأمنوا كإيمانكم

بسائر الرسل ولا تجعلوه إلهاً. . ولا تقولوا إن الله سبحانه واحد بالجواهر ثلاثة بالأقانيم. واعلم أن مذهب النصارى مجهول جداً، والذي يتحصل منه أنهم . .

أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاثة، إلا أنهم وان سموها صفات فهى فى الحقيقة ذوات، بدليل أنهم يجوزون عليها الحلول فى عيسى وفى مريم بأنفسها، وإلا لما جوزوا عليها أن تحل فى الغير وأن تفارق ذلك الغير مرة أخرى، فهم وإن كانوا يسمونها بالصفات إلا أنهم فى الحقيقة يشتون ذوات متعددة قائمة بأنفسها، وذلك محض الكفر، فلهذا المعنى قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا﴾ فأما ان حملنا الثلاثة على أنهم يشتون صفات ثلاثة، فهذا لا يمكن إنكاره، وكيف لانقول ذلك وأنا نقول: هو الله الذى لا إله

(٢) تفسير الطبرى ٤/٦/٢٥ و٢٦.

(١) إعراب القرآن ٢/٣٩٠.

(٣) التفسير الكبير ٦/١١/١١٨.

إلا هو الملك القدوس السلام الحى القادر المريد، وتفهم من كل واحد من هذه الألفاظ غير ما نفهمه من اللفظ الآخر، ولا معنى لتعدد الصفات إلا ذلك، فلو كان القول بتعدد الصفات كفرا لزم رد جميع القرآن ولزم رد العقل من حيث أنا نعلم بالضرورة أن المفهوم من كونه تعالى عالماً غير المفهوم من كونه تعالى قادراً أو حياً أهـ.

ولقد فصلَ القرطبيُّ هذا الكلامَ شارحاً ومبيناً بطلان عقيدة النصارى فقال (١): قوله تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أى آمنوا بأن الله إله واحد خالق المسيح ومرسله، وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلهاً. ﴿تَقُولُوا﴾ إلهتنا (ثلاثة) عن الزجاج. قال ابن عباس: يريد بالثلث الله تعالى وصاحبه وابنه. وقال الفراء وأبو عبيد: أى لا تقولوا هم ثلاثة؛ كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً﴾.

[قال] أبو على: التقدير ولا تقولوا هو ثالث ثلاثة؛ فحذف المبتدأ والمضاف.

والنصارى مع فرقههم مجمعون على السُّلْثِ ويقولون: إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم؛ فيجعلون كل أقتوم إلهاً ويعنون بالأقانيم الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح، فى كلام لهم فيه تخبط بيانه فى أصول الدين.

ومحصول كلامهم يثول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يجريه الله سبحانه وتعالى على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته.

وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر، فينبغى أن يكون المقتدر عليها موصوفاً بالإلهية.

فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلاً به كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن اعترفت النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلاً به؛ وإن لم يسلموا ذلك فلا حجة لهم أيضاً؛ لأنهم معارضون بموسى عليه السلام، وما كان يجرى على يديه من الأمور العظام، مثل قلب العصا ثعباناً، ولفق البحر واليد البيضاء والمن والسلوى، وغير ذلك؛ وكذلك ما جرى على يد الأنبياء؛ فإن أنكروا ذلك فنكر ما يدعونه هم أيضاً من ظهوره على يد عيسى عليه السلام، فلا يمكنهم إثبات شىء من ذلك لعيسى؛ فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن، ويكذبون من أتى به، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر.

وقد قيل: إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعد ما رفع عيسى؛ يصلون إلى القبلة؛ ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٠١٩، ٢٠٢٠، ٢٠٢١).

فقال: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا وجحدنا وإلى النار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار؛ وإنى أحتال فيهم فأضلهم فيدخلون النار؛ وكان له فرس يقال لها العقاب، فأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب وقال للنصارى: أنا بولس عدوكم قد نوديت من السماء أن ليست لك توبة إلا أن تنتصر، فأدخلوه فى الكنيسة بيتا فأقام فيه سنة لا يخرج ليلا ولا نهارا حتى تعلم الإنجيل؛ فخرج وقال: نوديت من السماء أن الله قد قبل توبتك فصدقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نُسُطُورًا وأعلمه أن عيسى بن مريم إله، ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال: لم يكن عيسى يأنس فتانس ولا يجسم فتجسم ولكنه ابن الله. وعلم رجلا يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعا رجلا يقال له الملك فقال له؛ إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحدا واحدا وقال له: أنت خالصتى ولقد رأيت المسيح فى النوم ورضى عنى، وقال لكل واحد منهم: إنى غدا أذبح نفسى وأتقرب بها، فأدع الناس إلى نِحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه؛ فلما كان يوم ثالث دعا كل واحد منهم الناس إلى نِحلته، فتبع كل واحد منهم طائفة، فأقتتلوا واختلفوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث؛ فهذا كان سبب شركهم فيما يقال؛ والله أعلم أهـ.

قال ابن كثير (١): ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أى لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهذه الآية التى فى سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وكما قال فى آخر السورة المذكورة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أُنْتِ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ الآية وقال فى أولها ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية.

والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا الكفرهم حد بل أقوالهم وضلالهم منتشر فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولدأ وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة.

ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندرية فى حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذى عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التى لهم وإنما هى الخيانة الحقيرة الصغيرة وذلك فى أيام

(١) تفسير ابن كثير ٥٦١/١.

قسطنطين بنى المدينة المشهورة وأنهم اختلفوا عليه اختلافا لا يضبظ ولا ينحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفا فكانوا أجزاباً كثيرة كل خمسين منهم على مقالة وعشرون على مقالة ومائة على مقالة وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بشمانية عشر نفرأ وقد توافقوا على مقالة فأخذها الملك ونصرهم وأيدها وكان فيلسوفاً داهية ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دست أولئك الثلثمائة والشمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتباً وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكانية. ثم إنهم اجتمعوا مجعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية ثم مجعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية وكل هذه الفرق ثبتت الأقسام الثلاثة فى المسيح ويختلفون فى كيفية ذلك وفى اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا أو امتزجا أو حل فيه على ثلاث مقالات وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى ونحن نكفر الثلاثة ولهذا قال تعالى: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أى يكن خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أى الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه وهو وكيل على كل شىء فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال فى الآية الأخرى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ إلى قوله: ﴿فَرْدًا﴾ أهـ.

قال الشوكانى (١): ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى بأنه سبحانه إله واحد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه.

ولانتكذبهم ولانغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آلهة أهـ.

قال السعدى (٢): فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام أمر أهل الكتاب بالإيمان به، وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله، ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى، والثانى مريم فهذه مقالة النصرارى. قبهم الله أهـ.

قوله: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/٤٣٣.

(١) فتح القدير ١/٦٣٣.

## ● أقوال أهل التفسير

قال الطبري<sup>(١)</sup>: ثم قال لهم جلّ ثناؤه متوعداً لهم في قولهم العظيم الذي قالوه في الله انتهوا أيها القائلون الله ثالث ثلاثة عما تقولون من الزور والشرك بالله فإنّ الإنتهاء عن ذلك خير لكم من قبله لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم على قيلكم ذلك أن أقمتم عليه ولم تنبئوا إلى الحق الذي أمرتكم بالإنباء إليه والأجل في معادكم أهـ.

قال القرطبي<sup>(٢)</sup>: ومذهب أبي عبيدة انتهوا يكن خيراً لكم.

قال محمد بن يزيد: هذا خطأ؛ لأنه يضم الشرط وجوابه، وهذا لا يوجد في كلام العرب.

ومذهب الفراء أنه نعت لمصدر محذوف.

قال عليّ بن سليمان: هذا خطأ فاحش؛ لأنه يكون المعنى: انتهوا الإنتهاء الذي هو خير لكم أهـ.

قال ابن كثير<sup>(٣)</sup>: ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أى يكن خيراً لكم أهـ.

قال السعدى<sup>(٤)</sup>: فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك، خير لهم، لأنه الذي يتعين، أنه سبيل النجاة وما سواه، فهو طرق الهلاك أهـ.

قال صاحب الظلال<sup>(٥)</sup>: وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسله، ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد بوصفه خاتم النبيين - والإنتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير، تحيء في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح أهـ.  
قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

قال محيي الدين درويش<sup>(٦)</sup>: كلام مستأنف مسوق لتأكيد الوجدانية، وإنما كافة ومكفوفة، والله مبتدأ وإله خبر، وواحد صفة أهـ.

## ● أقوال أهل بالتفسير.

قال القرطبي<sup>(٧)</sup>: ويجوز أن يكون ﴿إِلَهٌ﴾ بدلاً من اسم الله عزوجل و﴿واحد﴾ خبره؛ التقدير إنما المعبود واحد أهـ.

قال الطبري<sup>(٨)</sup>: يعنى بقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. ما الله أيها القائلون الله ثالث ثلاثة كما تقولون لأن من كان له ولد فليس بإله وكذلك من كان له صاحبة فغير جائر

(٢) تفسير القرطبي ٣ / ٢١٠ - ٢٠٢١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١ / ٤٣٣.

(٦) إعراب القرآن ٢ / ٣٩٠.

(٨) تفسير الطبري ٤ / ٦٦ - ٢٦٠٠.

(١) تفسير الطبري ٤ / ٦٦ - ٢٦٠٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٥٦١.

(٥) ٨١٧ / ٢.

(٧) تفسير القرطبي ٣ / ٢٠٢١.

أن يكون إلهاً معبوداً ولكن الله الذى له الألوهية والعبادة إله واحد معبود لا ولد له ولا والد ولا صاحبة ولا شريك. أهـ.

قال الرازى (١): ثم أكد التوحيد بقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. أهـ.

قال الشوكانى (٢): ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لاشريك له ولا صاحبة ولا ولداً. أهـ.

قال السعدى (٣): ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: هو المنفرد بالألوهية، الذى لا تنبى

العبادة إلا له. أهـ.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

قال محيى الدين درويش (٤): سبحان مفعول مطلق لفعل محذوف، أى سبحه

تسيحاً. وأن وما فى حيزها مصدر مؤول منصوب بنزع الخافض أى: من أن يكون، والجار والمجرور متعلقان بسبحان، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون المقدم، وولد اسمها المؤخر، والجملة التزيهية فى محل نصب على الحال، أى: منزهاً. أهـ.

قال القرطبى (٥): ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى تزيهياً عن أن يكون له ولد، فلما

سقط (عن) كان (أن) فى محل النصب بنزع الخافض، أى كيف يكون له ولد؟ وولد الرجل مُشبه له ولاشبهه لله - عزوجل. أهـ.

#### ● أقوال أهل التفسير.

قال الطبرى (٦): ثم نزه - جليلٌ ثناؤه - نفسه وعظمتها ورفعها كما قال فيه أعداؤه

الكفرة به فقال ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يقول علا الله وجل وعز وتعظم وتنزه عن أن يكون له ولد أو صاحبة. أهـ.

قال البغوى (٧): واعلم أن التبنى لا يجوز لله تعالى، لأن التبنى إنما يجوز لمن يتصور

له ولد أهـ.

قال ابن الجوزى (٨): ومعنى سبحانه: تبرئته من أن يكون له ولد أهـ.

قال ابن كثير (٩): أى تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً أهـ.

(٢) فتح القدير ١/٦٣٥.

(٤) إعراب القرآن ٢/٣٩٠ و٣٩١.

(٦) تفسير الطبرى (٤/٢٦٦).

(٨) زاد المسير ٢/١٥٧.

(١) التفسير الكبير ٦/١١/١١٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/٤٣٣).

(٥) تفسير القرطبى ٣/٢٠٢١.

(٧) معالم التنزيل ٢/١٩٤.

(٩) تفسير ابن كثير ١/٥٦١.

قال الشوكاني<sup>(١)</sup>: أى أسبحه تسبيحاً عن أن يكون له ولد أهـ.

قال السعدى<sup>(٢)</sup>: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى «تنزهه وتقدس» ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أهـ.

قال صاحب الظلال<sup>(٣)</sup>: والولادة امتداد للفانى ومحاولة للبقاء فى صورة النسل.. والله الباقى غنى عن الإمتداد فى صورة الفانين، وكل ما فى السموات وما فى الأرض ملك له سبحانه أهـ.

قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قال محيى الدين درويش<sup>(٤)</sup>: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ له متعلقان بخير مقدم محذوف وما اسم موصول مبتدأ وفى السموات متعلقان بمحذوف صلة، وجملة الصلة لا محل لها من الإعراب، وما فى الأرض عطف على ما فى السموات، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه، أى: إذا كان يملك جميع ما فىهما فكيف يتوهم حاجته إلى ولد أهـ.

#### ● أقوال أهل التفسير.

قال الطبرى<sup>(٥)</sup>: ثم أخبر - جل ثناؤه - عباده أن عيسى وأمه ومن فى السموات ومن فى الأرض عبيده وملكه وخلقه وأنه رازقهم وخالقهم وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه ولاكان له عبداً مملوكاً فقال له ما فى السموات وما فى الأرض يعنى الله ما فى السموات وما فى الأرض من الأشياء كلها ملكاً وخلقاً وهو يرزقهم ويقوتهم ويدبرهم فكيف يكون المسيح ابناً لله وهو فى الأرض أو فى السموات غير خارج من أن يكون فى بعض هذه الأماكن أهـ.

قال الرازى<sup>(٦)</sup>: واعلم أنه سبحانه فى كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكاً ومالكاً لما فى السموات وما فى الأرض فقال فى مريم أى سورة - ﴿إِنْ كُلٌّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ والمعنى: من كان مالكا لكل السموات والأرض ولكل ما فيها كان مالكا لعيسى ولريم لأنهما كانا فى السموات وفى الأرض، وما كانا أعظم من غيرهما فى الذات والصفات، وإذا كان مالكا لما هو أعظم منهما فبأن يكون مالكا لهما أولى، وإذا كانا مملوكين له فكيف يعقل مع هذا توهم كونهما له ولداً وزوجة أهـ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/٤٣٣.

(٤) إعراب القرآن ٢/٣٩١.

(٦) التفسير الكبير ٦/١١/١١٩.

(١) فتح القدير ١/٦٣٢.

(٣) ١١٧/٢.

(٥) تفسير الطبرى ٤/٦/٢٦.



قال القرطبي<sup>(١)</sup>: وإن جاز ولد فليجز أولاد حتى يكون كل من ظهرت عليه معجزة ولدأ له أه.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: أى الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه أه.

قال الشوكاني<sup>(٣)</sup>: وما جعلتموه له شريكاً أو ولدأ هو من جملة ذلك، والمملوك المخلوق لا يكون شريكاً ولا ولدأ.

قال صاحب الظلال<sup>(٤)</sup>: ويكفى البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود: وهو يرعاهم أجمعين، ولا حاجة لإفترض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم: فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة أه.

قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

قال محبى الدين درويش<sup>(٥)</sup>: الواو استئنافية ﴿وكفى﴾ فعل ماضى و﴿بالله﴾ الباء حرف جر زائد والله فاعل (كفى) مجرور لفظاً بالباء (ووكيلاً) تمييز.

● أقوال أهل التفسير.

قال الطبرى<sup>(٦)</sup>: وقوله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يقول وحسب ما فى السموات وما فى الأرض بالله قيماً ومدبراً ورازقهم من الحاجة معه إلى غيره أه.

قال ابن الجوزى<sup>(٧)</sup>: أى: قيماً على خلقه، مدبراً لهم أه.

قال الرازى<sup>(٨)</sup>: ثم قال ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ والمعنى أن الله سبحانه كاف فى تدبير المخلوقات وفى حفظ المحدثات فلا حاجة معه إلى القول بإثبات إله آخر، وهو إشارة إلى ما يذكره المتكلمون من أنه سبحانه لما كان عالماً بجميع المعلومات قادراً على كل المقدرات كان كافياً فى الإلهية، ولو فرضنا إليها أخصر معه لكان معطلاً لافائدة فيه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلها أه.

قال القرطبي<sup>(٩)</sup>: وكفى بالله وكيلاً أى لأوليائه أه.

(١) تفسير القرطبي ٣/٢٠٢١.

(٢) فتح القدير ١/٦٣٤.

(٣) إعراب القرآن ٢/١٦١.

(٤) زاد المسير ٢/١٥٧.

(٥) تفسير القرطبي ١/٢٠٢١.

(٦) تفسير ابن كثير ١/٥٦١.

(٧) تفسير الطبرى ٤/٢٦٦.

(٨) التفسير الكبير ٦/١١٩.

قال الشوكاني<sup>(١)</sup>: فكل الخلق أمورهم إليه ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً أهـ.

قال صاحب الظلال<sup>(٢)</sup>: «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا».

وهكذا لا يكتفى القرآن ببيان الحقية وتقديرها في شأن العقيدة إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم، وقيامه سبحانه عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم، ليكلوا إليه أمرهم كله في طمأنينة أهـ.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: والشاهد من هذه الآية قوله: «لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ» فهي عن الغلو في الدين، لأنه يتضمن مفاصد كثيرة، منها:

١- أنه تنزيل للمغلوفيه فوق منزلته إن كان مدحاً، وتحتها إن كان قدحاً.

٢- أنه يؤدي إلى عبادة هذا المغلوفيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣- أنه يصد عن تعظيم الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفس إما أن تشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه؛ تعلقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

٤- أن المغلو فيه إن كان موجوداً، فإنه يزهر بنفسه ويتعاضم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحاً، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحاً أهـ.

قوله: «فِي دِينِكُمْ»

الدين يطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل والمعنى: لا تجمعلوا عبادتكم غلواً في المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها؛ فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمى بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أذبار الصلوات تكميلاً للوارد أو غير هذا؛ فالنهى عن الغلو في الدين يعم الغلو من كل وجه أهـ.



(١) فتح القدير ١/٦٣٤.

(٢) ٨١٨/٢.

(٣) القول المفيد ١/٤٦٦ و ٤٧٠.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (١). قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبّد، حتى إذا هلك أولئك، ونسي العلم عبديت» (٢).

- مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٣): مناسبة هذه الآية للباب ما ذكره بعض المفسرين من أن هذه الأسماء المذكورة في الآية كانت أسماء رجال صالحين غلا في حبهم قومهم فلما ماتوا أوحى إليهم الشيطان أن صوروا على صورهم حتى تتذكروهم حتى إذا مات أهل ذلك القرن واندرس العلم بعدهم من جاء بعدهم. اهـ

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٤): حيث دلت الآية على أن الغلو في الصالحين شرك، وذلك لأن الغلو فيهم صرف شيء من حقوق الله الخاصة به لهم وذلك إشراك لهم مع الله. اهـ  
قوله: [في الصحيح] أى صحيح البخارى وهذا الآتى اختصره المصنف والحديث على وجهه بوب عليه البخارى. باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ قال: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام عن ابن جريج، وقال عطاء.

عن ابن عباس رضى الله عنهما «صارت الأوثان التي كانت فى قوم نوح فى العرب بعد، أمّا وُدٌّ فكانت لكلب بدومَه الجندل، وأمّا سُوَاعٌ فكانت لهذيل، وأمّا يَغُوثٌ فكانت لمراد، ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان، وأمّا نَسْرٌ فكانت لحمير، لآل ذى الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبّد، حتى إذا هلك أولئك وتَسَّحَّ العلم عبديت».

(١) نوح / ٢٣

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾

(٨/٥٣٥/ح. ٤٩٢)

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/٤٢٧) وعزاه للبخارى وابن المنذر وابن مردويه.

وانظر فتح القدير (١٣٢٤٩ بتخريجنا) وفتح المجيد ٣٤٤ بتخريجنا.

(٣ - ٤) الجديد.

قوله: ( عن ابن عباس ).

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: قيل هذا منقطع لأن عطاء المذكور هو الخراساني ولم يلق ابن عباس.

فقد أخرج عبد الرزاق هذا الحديث في تفسيره عن ابن جريج فقال: أخبرني عطاء الخراساني عن ابن عباس.

وقال أبو مسعود ثبت هذا الحديث في تفسير ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس، وابن جريج لم يسمع التفسير من عطاء الخراساني وإنما أخذه من ابنه عثمان بن عطاء فنظر فيه.

وذكر صالح بن أحمد بن حنبل في «العلل» عن علي بن المديني قال: سألت يحيى القطان عن حديث ابن جريج عن عطاء الخراساني فقال: ضعيف. فقلت: إنه يقول أخبرنا، قال: لا شيء، إنما هو كتاب دفعه إليه انتهى.

وكان ابن جريج يستجيز إطلاق أخبرنا في المناولة والمكاتبة، وقال الإسماعيلي أخبرت عن علي بن المديني أنه ذكر عن «تفسير ابن جريج» كلاماً معناه أنه كان يقول عن عطاء الخراساني عن ابن عباس، فطال على السوراق أن يكتب الخراساني في كل حديث فتركه فرواه من روى علي أنه عطاء بن أبي رباح انتهى.

وأشار بهذا إلى القصة التي ذكرها صالح بن أحمد عن علي بن المديني ونبه عليها أبو علي الجبائي في «تقييد المهمل» قال ابن المديني سمعت هشام بن يوسف يقول قال لي ابن جريج سألت عطاء عن التفسير من البقرة وآل عمران ثم قال: اعفني من هذا، قال قال هشام فكان بعد إذا قال قال عطاء عن ابن عباس قال عطاء الخراساني. قال هشام: فكتبنا ثم مللنا، يعني كتبنا الخراساني، قال ابن المديني وإنما بيئت هذا لأن محمد بن ثور كان يجعلها- يعني في روايته عن ابن جريج- عن عطاء عن ابن عباس فيظن أنه عطاء بن أبي رباح.

وقد أخرج الفسكهى الحديث المذكور من طريق محمد بن ثور عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ولم يقل الخراساني.

وأخرجه عبد الرزاق، كما تقدم فقال الخراساني، وهذا مما استعظم على البخاري أن يخفى عليه، لكن الذي قسوى عندي أن هذا الحديث بخصوصه عند ابن جريج عن عطاء الخراساني وعن عطاء بن أبي رباح جميعاً، ولا يلزم من امتناع عطاء بن أبي رباح من

(١) الفتح ٨/٥٣٥، ٥٣٦.

التحديث بالتفسير أن لا يحدث بهذا الحديث فى باب آخر من الأبواب أو فى المذاكرة، وإلا فكيف يخفى على البخارى ذلك مع تشدده فى شرط الاتصال واعتماده غالباً فى العلل على على بن المدينى شيخه وهو الذى نبه على هذه القصة.

ومما يؤيد ذلك أنه لم يكثر من تخريج هذه النسخة وإنما ذكر بهذا الإسناد موضعين هذا وآخر فى النكاح، ولو كان خفى عليه لاستكثر من إخراجها لأن ظاهرها أنها على شرطه. اهـ.

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>:

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾: أى : قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾: أى : لا تدعن وتتركن، وهذا نهى مؤكد بالنون.

قوله: ﴿أَلِهَتِكُمْ﴾: هل المراد: لا تذرُوا عبادتها أو تمكّنوا أحداً من إهانتها؟

الجواب: المعنيان ؟ أى : انتصروا لآلهتكم ولا تمكّنوا أحداً من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضاً، بل احرصوا عليها، وهذا من التواصى بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق .

قوله: ﴿وَلَا سَوْاعًا﴾ لا زائدة للتوكيد، مثلها فى قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر، فهما دون مرتبة من سبقهما.

قوله: ﴿وَدَاوُلَا سَوْاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها، لأن قوله: ﴿أَلِهَتِكُمْ﴾ عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنها كبار آلهتهم، فخصوها بالذكر.

والآلهة. جمع إله، وهو كل ما عُبد سواء بحق أو بباطل.

لكن إذا كان المعبود هو الله، فهو حق، وإن كان غير الله، فهو باطل. اهـ.

قوله: [هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح].

قال ابن حجر<sup>(٢)</sup>: محصل ما قيل فى هذه الأصنام قولان:

(١) القول المفيد ١/٤٧١، ٤٧٢.

(٢) الفتح ٨/٥٣٧.

أحدهما أنها كانت فى قوم نوح .

والثانى: أنها كانت أسماء رجال صالحين إلى آخر القصة .

قلت: - يعنى ابن حجر - بل مرجع ذلك إلى قول واحد . وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك اهـ .

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: وفى هذا التفسير إشكال، حيث قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح»، وظاهر القرآن أنها قبل نوح، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ ظاهر الآية الكريمة: أن قوم نوح كانوا يعبدونها، ثم نهاهم نوح عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله وحده، ولكنهم أبوا وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، وهذا (أعنى: القول بأنهم قبل نوح) قول محمد بن كعب ومحمد بن قيس، وهو الراجح، لموافقته ظاهر القرآن .

ويحتمل - وهو بعيد - أن هذا فى أول رسالة نوح، وأنه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم، لكن هذا بعيد حتى من سياق الأثر عن ابن عباس .

فالمهم أن تفسير الآية أن يقال: هذه أصنام فى قوم نوح كانوا رجالاً صالحين، فطال على قومهم الأمد، فعبدوهم .

قلت: لكن هنا إشكال آخر كيف رفع العلم ونوح فيهم .

الجواب: أن يقال أنهم لم يسمعوا لنوح أصلاً لقوله تعالى: ﴿... جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ

فِي آذَانِهِمْ﴾ الآية .

قوله: [فلما هلكوا، أوحى الشيطان]

أى: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام .

قوله: [أن انصبوا إلى مجالسهم]

الأنصاب: جمع نُصْب، وهو كل ما يُنصب من عصا أو حجر أو غيره .

قوله: [وسموهم بأسمائهم] .

(١) القول المفيد ١/٤٧٢، ٤٧٣ .

أى: ضعوا أنصاباً فى مجالسهم، وقولوا: هذا ود وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر لأجل إذا رأيتموهم تذكروا عبادتهم، فتنشطوا عليها هكذا زين لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله إلا برؤية أشباح هؤلاء فهذه عبادة قاصرة أو معدومة . اهـ.

قوله: [ففعّلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم، عبت من دون الله.]

وفى رواية للبخارى [وتنسخ العلم]

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: قوله ( فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم ) كذا لهم، ولأبى ذر والكشميهنى «نسخ العلم» أى علم تلك الصور بخصوصها.

وأخرج الفاكهى من طريق عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح، وكانت الأبناء تير الآباء، فمات رجل منهم فجزع عليه فجعل لا يصبر عنه، فاتخذ مثالا على صورته فكلما اشتاق إليه نظره ثم مات ففعل به كما فعل حتى تتابعوا على ذلك فمات الآباء، فقال الأبناء . ما اتخذ أبائنا هذه إلا أنها كانت آلهتهم، فعبدوها.

وحكى الواقدى قال: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة طائر، وهذا شاذ والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار فى سبب عبادتها. والله أعلم.

وقال ابن عثيمين: ذكر ابن عباس- رضى الله عنهما - أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون والقرن مائة سنة، حتى إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرق، فبعث الله النبيين كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الآية هذا هو تفسير ابن عباس رضى الله عنهما للآية وهل تفسيره حجة؟

الجواب: يرجع فى التفسير أولاً إلى القرآن، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، مثل قوله تعالى: ﴿مَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ تفسيرها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ فإن لم نجد فى القرآن، فإلى سنة الرسول ﷺ فإن لم نجد فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابى حجة بلا شك لأنهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابى فى حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك

(١) الفتح ٨/٥٣٧.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» أَخْرَجَاهُ (١).

أَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، فَإِنْ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ فِي التَّفْسِيرِ أَخَذْنَا بِمَا يَرْجَحُهُ سِيَاقُ الْآيَةِ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ السِّيَاقِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ كَانُوا قَبْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ عَرَفَتِ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ (٢). اهـ.



قوله: (قال ابن القيم: قال غير واحد السلف..

والأمد يعنى الزمن .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فاحذر أخى العزيز من طول الزمن لأنه سبب لقسوة القلب إن لم تكن مراعيًا للقلب وكذلك إن لم تحفظ العلم بمذاكرته وطول الأمل سينسخ.

بل الله - عز وجل - حذر من خطر طول الزمن على العلم وعلى القلب، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعنى على الإسلام- ثم طول الأمد صاروا أمة واحدة على الكفر فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

قال ابن عثيمين (٣): قوله الأمد الزمن، وهذا كتفسير ابن عباس، إلا أن ابن عباس يقول إنهم جعلوا الأنصاب فى مجالسهم وهنا يقول: جعلوها على قبورهم ولا يبعد أنهم جعلوا هذا وهذا، أو أنهم قبروا فى مجالسهم، فتكون هى محل القبور.

والشاهد قوله: [ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم] فسبب العبادة إذا الغلو فى هؤلاء الصالحين حتى عبدهم. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء / باب ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ (٦/٥٥١/٣٤٤٥)،

وأحمد فى «مسنده» (٢٣/١).

من طريق ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر به . وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٨)، وانظر «فتح المجيد» (٣٤٧) بتخريجنا

(٢) القول المفيد ١/٤٧٥.

(٣) القول المفيد ١/٤٧٤، ٤٧٥.



قوله: [وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني....]

والحديث على وجهه فى الصحيح .

عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر : «سمعت النبى ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».

قال ابن حجر: قوله: (لا تطروني) بضم أوله، والإطراء المدح بالباطل تقول أطريت فلاناً مدحته، فأفرطت فى مدحه قوله: (كما أطرت النصارى ابن مريم) أى فى دعواهم فيه الإلهية، وغير ذلك. اهـ.

قلت: أما إذا كان المدح بالحق ولمصلحة شرعية فهذا مشروع ليس ممنوع.

كقوله ﷺ لسعد حينما جاءوا به ليحكم فى يهود «قوموا إلى سيدكم» (١)، وكذلك وصفه ﷺ لكثير من الصحابة بأوصاف كما فى الحديث «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر.. إلخ الحديث» (٢).

قال ابن عثيمين (٣): وهذا النهى يحتمل أنه مُنصَّب على هذا التشبيه، وهو قوله: «كما أطرت النصارى ابن مريم»، حيث جعلوه إلهاً أو ابناً لله، وبهذا يوحى قول البوصيرى:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

أى: دع ما قاله النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ابن الله أو ثالث ثلاثة: والباقي املاً فمك فى مدحه ولو بما لا يرضيه.

ويحتمل أن النهى عام، فيشمل ما يشابه غلو النصارى فى عيسى بن مريم وما دونه، ويكون قوله: «كما أطرت» لمطلق التشبيه لا للتشبيه المطلق، لأن إطراء النصارى عيسى ابن مريم سببه الغلو فى هذا الرسول الكريم ﷺ، حيث جعلوه ابناً لله وثالث ثلاثة، والدليل على أن المراد هذا قوله: «إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله».

قوله: «إنما أنا عبد».

أى: ليس لى حق من الربوبية، ولا مما يختص به الله - عز وجل - أبداً.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٤٣)، ومسلم فى الجهاد والسير (٦/٣٣٥/٦٤) عن أبى سعيد

.. به

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/١٨٤)، والترمذى (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤) عن أنس به.

(٣) القول المفيد ١/١ - ٤٧٦ - ٤٧٨.

قوله: «فقولوا عبد الله ورسوله».

هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول ﷺ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢)، فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عباداً لله - عز وجل - أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به، ولهذا يقول الشاعر في محبته:

لا تدعني إلا بيا عبداها فإنه أشرف أسمائي

أى: أنت إذا أردت أن تكلمنى قل: يا عبد فلانة، لأنه أشرف أسمائي وأبلغ فى الذل.

فمحمد ﷺ عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول فى صلاتنا عندما نسلم عليه ونشهد له بالرسالة: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» (٣) فهذا أفضل وصف اختاره النبى عليه الصلاة والسلام لنفسه.

واعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام، وهى:

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره: لا ملك مقرب، ولا نبى مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثانى: حق خاص للرسول، هو إعانتهم وتوقيعهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث: حق مشترك، وهو الإيمان بالله ورسله، وهذه الحقوق موجودة فى الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿لَتَتَّوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فهذا حق مشترك، ﴿وَتَعَزَّزُوا وَتُوقِرُوا﴾ هذا خاص بالرسول ﷺ، ﴿وَتَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٤) هذا خاص بالله سبحانه وتعالى

والذين يغفلون فى الرسول ﷺ يجعلون حق الله له، فيقولون: ﴿وَتَسَبِّحُوهُ﴾، أى: الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون الله، ولا شك أنه شرك، لأن التسبيح من حقوق الله الخاصة به، بخلاف الإيمان، فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله.

(٢) الصفات : ١٧١ .

(١) الفرقان : ٦٣ .

(٣) [متفق عليه] من حديث ابن مسعود، رواه : البخارى (كتاب الاستئذان، باب السلام اسم من

أسماء الله تعالى، ٤/١٣٦)، ومسلم (كتاب الصلاة، باب التشهد فى الصلاة ١/٣٠١).

(٤) الفتح : ٩ .

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ» (١).

ونهى عن الإطراء في قوله عليه الصلاة والسلام: «كما أطرت النصارى عيسى بن مريم» (٢) لأنَّ الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته كما هو الواقع الآن، فيوجد عند قبره في المدينة من يسأله، فيقول: يا رسول الله! المدد، المدد يا رسول الله! أغثنا، يا رسول الله! بلادنا يابسة، وهكذا، ورأيت بعيني رجلاً يدعو الله تحت ميزاب الكعبة مولياً ظهره البيت مستقبلاً المدينة، لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله.

ويقول بعض المغالين: الكعبة أفضل من الحجر، فأما والنبى ﷺ فيها، فلا والله، ولا الكعبة، ولا العرش وحملته، ولا الجنة.

فهو يريد أن يفضل الحجر على الكعبة وعلى العرش وحملته وعلى الجنة، وهذه مبالغة لا يرضاها النبي ﷺ لنا ولا لنفسه.

وصحيح أن جسده ﷺ أفضل، ولكن كونه يقول: إنَّ الحجر أفضل من الكعبة والعرش والجنة، لأنَّ الرسول ﷺ فيها هذا خطأ عظيم، نسأل الله السلامة من ذلك.

اهـ.

وقوله: [وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم...»]

قال الفقير: «إياكم والغلو...» هذا الحديث له مناسبة وقصة أن الرسول أرسل من يجمع له من مزدلفة حصيات يرمى بها في منى فأخذ الرسول حصاة منها: فقال: «بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو...» فكان النبي يعلم ما سوف يفعله الناس وإنهم سيتكلمون ما لم يكلفهم الله به فقال: «بمثل هذا» وتكون فعلت ما عليك هذا وإن كثيراً من الناس تظن أن إبليس موجود حقيقة في هذا المكان وقليل من الناس من يعتقد أن هذا مجرد إحياء لذكرى الخليل ورميه لإبليس، لذلك تجرد من يعتقد ذلك يرمى ويسب ويقذف بالحجارة والأحذية وما أفرح إبليس إلا مثل هؤلاء السفهَاء، لكن النبي ﷺ قال: «بمثل

(١) [صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (١/٢١٥، ٣٤٧)، والنسائي في «الكبرى» في الحج/ باب التقاط الحصى (٢/٤٣٥/٤٠٦٣)، وابن ماجه في المناسك/ باب قدر حصى الرمي (٢/١٠٠٨/٣٠٢٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨/٦ - الإحسان)، والحاكم في «المستدرک» (١/٤٦٦)، والبيهقي في «الكبرى» (١٢٧/٥).

من طريق عوف قال: حدثنا زيد بن حصين، عن أبي العالية عن ابن عباس به.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وانظر «السلسلة» (١٤١٠ - بتخريجنا) الطبعة الثانية. وانظر «فتح المجيد» (٣٤٨ - بتخريجنا).

(٢) سبق..

هذا فارموا» إحياء لذكرى الخليل وتجديداً لإعلان الحرب على العدو الحقيقي إبليس ومقتدياً بأبى الأنبياء فالرمى بالحصى الصغير سيحقق المطلوب ولا داعى للحجارة الكبيرة فلا داعى للتنطع والتعمق.

ولذلك قال العلماء : إن الغلو كما فى الاعتقادات فهو فى العبادات وكما هو فى الأقوال هو أيضاً فى الأفعال .

ومن هذا الباب نهى الرسول الصحابة الذين شددوا على أنفسهم وقالوا: «أما أنا أقوم ولا أنام والثانى أصوم ولا أفطر والثالث لا أتزوج النساء»<sup>(١)</sup> وفى رواية ذكرها ابن تيمية فى الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أن الرابع قال: «أما أنا فلا أكل اللحم»، فالنبي ﷺ قال «أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وأكل اللحم ومن رغب عن ستى فليس منى» فالمفطر الذى يقوم الليل كله والمفطر الذى ينام الليل كله والوسطية هى أن يقوم وينام.

فالغلو فى جانب الاعتقاد كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فلا تغلو فى الأنبياء ولا الصالحين ولا الملائكة فقد عبد قوم الملائكة وسبهم قوم آخرون والحسنة أن نكرمهم ولا نعبدهم.

وفى جانب الإيمان بالله انظروا للذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ والذين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

وفى جانب الإيمان حصل التطرف والغلو ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

وحصل ذلك من المرجئة الذين قالوا: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» بمجرد القول.

وكذلك الخوارج القائلين بأن العاصى مخلد فى النار وأما أهل السنة فقالوا بالحسنة بين السيئين .

وكذلك أهل السنة فى جانب القدر هم وسط بين الجهمية والقدرية.

وفى جانب العبادات هذا الحديث «بمثل هذا فارموا...»

«فإنما هلك من كان قبلكم الغلو» فمن كان قبلنا هلك بسبب كفره الذى كان بسبب

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٠٦٣)، ومسلم فى النكاح (١٧٥/٩- النوى) عن أنس به. وانظر

«رياض الصالحين» (١٤٥- بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٢١٦/٣٢٨/٣) عن عائشة به.

الغلو، وقال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوهَا نَارًا﴾ فهذا سبب الهلاك الغلو في جانب الاعتقاد.

فهل الغلو في جانب العبادات يؤدي للهلكة؟

الجواب: نعم والدليل: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»<sup>(٢)</sup> وقلنا: «إن الميت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» أهلك نفسه وأهلك دابته بسبب جدّه في السير فلا يريح نفه ولا يريح دابته.

وكان النبي ﷺ يقول: «أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا»<sup>(١)</sup> يعني لا يمل من كتابة الحسنات حتى تملوا أنتم من العمل.  
قال ابن تيمية<sup>(٢)</sup>: وقوله: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوءَ» عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال...

والنصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف. وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

وسبب هذا اللفظ العام رمى الجمار. وهو داخل فيه. فالغلو فيه مثل رمى الحجارة الكبار ونحو ذلك، بناء على أنه قد بالغ في الحصى الصغار.

ثم علل ذلك بأن ما أهلك من كان قبلنا إلا الغلو في الدين كما تراه في النصارى. وذلك يقتضى أن مجانبة هديهم مطلقاً أبعده عن الوقوع فيما به هلكوا وأن المشاركة لهم في بعض هديهم يخاف عليه أن يكون هالكاً. اهـ

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>:

قوله: «إِيَّاكُمْ» للتحذير.

قوله: «والغلو»

معطوف على إياكم، وقد اضطرب فيه المعربون اضطراباً كثيراً، وأقرب ما قيل للصواب وأقله تكلفاً: أن إيا منصوبة بفعل أمر مقدر تقديره إياك احذر، أى «احذر نفسك أن تغرّك، والغلو معطوف على إياك، أى: واحذر الغلو.

والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٣)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٦٤/٦ - النووى) عن عائشة به، وانظر رياض الصالحين ١٤٤٠ - بتخريجنا).

(٢) الاقتضاء ٦ - ١.

(٣) القول المفيد ١/٤٧٩: ٤٨٥.

أيضاً؛ فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأن هذا الحديث ورد في رمى الجمرات، حيث روى ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «القط لى حصى. فلقطت له سبع حصيات من حصى الخذف؛ فجعل ينفذهن فى كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو فى الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين». هذا لفظ ابن ماجه.

والغلو: فاعل أهلك.

قوله: «من كان قبلكم».

مفعول مقدم.

قوله: «وإنما».

أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: «أهلك».

يحتمل معنيين:

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعاً مباشرة من الغلو؛ لأن مجرد الغلو هلاك.

الثانى: أنه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سبباً للهلاك؛ أى: إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر فى قوله: «فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» حقيقى أو إضافى؟

الجواب: إن قيل: إنه حقيقى؛ حصل إشكال، وهو أن هناك أحاديث أضاف النبى ﷺ الهلاك فيها إلى أعمال غير الغلو، مثل قوله ﷺ: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»<sup>(١)</sup>؛ فهنا حصران متقابلان، فإذا قلنا: إنه حقيقى بمعنى أنه لا هلاك إلا بهذا حقيقة؛ صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيل: إن الحصر إضافى؛ أى: باعتبار عمل معين؛ فإنه لا يحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما على جهة لا تعارض الحديث الآخر لثلاثا يكون فى حديثه ﷺ تناقض، وحينئذ يكون الحصر إضافياً، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٧٨٨)، ومسلم فى الحدود (١١/١٨٦- النوى) عن عائشة به،

وانظر «رياض الصالحين» (٦٥٢- بتخریجنا).

الغلو في التعبد في الحديث الأول، وفي الآخر يُقال: أهلك من كان قبلكم باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفي هذا الحديث يُحذّر الرسول ﷺ أمته من الغلو، ويبرهن على أن الغلو سبب للهلاك لأنه مخالف للشرع وإهلاكه للأمة السابقة؛ فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره ﷺ، والتحذير نهى وزيادة.

والوجه الثاني: أنه سبب لإهلاك الأمة كما أهلك من قبلنا، وما كان سبباً للهلاك كان محرماً.

### ● أقسام الناس في العبادة:

والنَّاسُ في العبادة طرفان ووسط؛ فمنهم المُفْرِط، ومنهم المُفْرَط، ومنهم المتوسط. فدين الله بين الغالى فيه والجافى عنه، وكون الإنسان معتدلاً لايميل إلى هذا ولا إلى هذا هو الواجب، فلايجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا التهاون وعدم المبالاة، بل كن وسطاً بين هذا وهذا.

والغلو له أقسام كثيرة؛ منها: الغلو في العقيدة، ومنها الغلو في العبادة، ومنها الغلو في المعاملة ومنها: الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي: أمّا الغلو في العقيدة؛ فمثل ما تشدّق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإنّ أهل الكلام تشدّقوا وتعمّقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعاً، حتى أدّى بهم هذا التعمّق إلى واحد من أمرين: إما التمثيل، أو التعطيل.

إمّا أنّهم مثلوا الله بخلقه، فقالوا: هذا معنى إثبات الصفات، فغلووا في الإثبات حتى أثبتوا ما نفى الله عن نفسه، أو عطّوه وقالوا: هذا معنى تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، وزعموا أنّ إثبات الصفات تشبيه؛ فنفوا ما أثبتته الله لنفسه.

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك؛ فلم تتعمق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه؛ فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا: ليس لنا أن نزيد على ذلك؛ فلم يهلكوا، بل كانوا على الصراط المستقيم، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم وغيرهم في الدين؛ صاروا يتعمّقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لاتنتهى أبداً؛ حتّى ضاعوا، نسأل الله السلامة.

وكل الإيرادات التي أوردتها المتأخرون من هذه الأمة على النصوص، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمة الوسط.

أما الغلو في العبادات؛ فهو التشدد فيها، بحيث يرى أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام، كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا: أن من فعل كبيرة من الكبائر؛ فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء، وكذا المعتزلة، حيث قالوا: من فعل كبيرة؛ فهو بمنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر؛ فهذا تشدد أدى إلى الهلاك، وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة، فقالوا: إن القتل والزنا والسرقه وشرب الخمر ونحوها من الكبائر، لاتخرج من الإيمان، ولاتنقص من الإيمان شيئاً، وأنه يكفي في الإيمان الإقرار، وإن إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله ﷺ؛ لأنه لا يختلف الناس في الإيمان حتى يقولون: إن إبليس مؤمن لأنه مقر، وإذا قيل: إن الله كفره؛ قالوا: إذن إقراره ليس بصادق، بل هو كاذب، وإلا لو استكبر عن أمر الله؛ فهو مؤمن.

وهؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من الناس في هذا الزمان، ولاشك أن هذا تطرف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص على أنه كفر.

وأما الغلو في المعاملات؛ فهو التشدد في الأمور بتحريم كل شيء حتى ولو كان وسيلة، وأنه لايجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفيّة، حيث قالوا: من اشتغل بالدنيا؛ فهو غير مريد للأخرة، وقالوا: لايجوز أن تشتري ما زاد على حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدد تساهل من قال: بحل كل شيء ينمي المال ويقوى الاقتصاد. حتى الربا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء - والعياذ بالله - متطرفون بالتساهل؛ فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلساً أو فلسين، وهذا لاشك أنه تطرف.

والتوسط أن يُقال: تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ



وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا (١).

وَحَرَّمَ الرَّيَاءَ (٢)؛ فليس كل شيء حراماً؛ فالنبي ﷺ باع واشترى. والصحابة رضی الله عنهم يبيعون ويشترون، والنبي ﷺ يقرهم.

وأما الغلو في العادات؛ فإذا كانت هذه العادة يُخشى أن الإنسان إذا تحوّل عنها انتقل من التحول في العادة إلى التحول في العبادة، فهذا لا حرج أن الإنسان يتمسك بها، ولا يتحول إلى عادة جديدة، أما إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحول إلى عادة مفيدة أفيد من الأولى؛ فهذا من الغلو المنهى عنه، فلو أن أحداً تمسك بعبادته في أمر حدث أحسن من عادته التي هو عليها نقول: هذا في الحقيقة غالٍ ومفرط في هذه العادة. وأما إن كانت العادات متساوية المصالح، لكنه يُخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسع في العادات التي قد تُخلّ بالشرف أو الدين؛ فلا يتحول إلى العادة الجديدة. اهـ.

قوله: [ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: هلك المتنتفعون]

قال النووي (٣): قوله «هلك المتنتفعون» أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

قال الخطابي (٤): المتنتفع المتعمق في الشيء المتكلف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم، وفيه دليل على أن الحكم بظاهر الكلام، وأنه لا يترك الظاهر إلى غيره ما كان له مساغ وأمكن فيه الإستعمال.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «العلم»/ باب: هلك المتنتفعون (١٦٦/٦ - ٢٢٠ - النووي) وأبو داود في «السنة»/ باب: لزوم السنة (٤/ ٢٠٠ - ح ٤٥٨٤) وأحمد في «المسند» (١/ ٣٨٦) والبخاري في «شرح السنة» (١٢/ ٣٦٧/ ٣٣٩٦).

من طريق: ابن جريج عن سليمان بن عتيق عن طلق بن حبيب عن الأحنف بن قيس عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً به.

وأنظر «رياض الصالحين» (ح ١٤٦) بتخریجنا وانظر فتح المجيد (٣٥٠ - بتخریجنا).

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) النووي شرح مسلم ٤٧٣/٨ دار الحديث.

(٤) نقلاً عن عون المعبود ١٢/ ٣٦١/ ح ٤٥٨٤.

قال ابن منظور (١): والتَّنَطُّعُ في الكلام: التعمق فيه مأخوذ منه.

وفي الحديث: «هلك المتنطعون»؛ هم المتعمقون المغالون في الكلام الذين يتكلمون بأقصى حلوهم تكبراً كما قال النبي ﷺ «إنَّ أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون» ورجل ثرؤ ثرثار مُتَشَدِّقٌ كثير الكلام. والثرثرة في الكلام: الكثرة والتزيد. وفي الأكل. الإكثار في تخليط. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون» هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق أ.هـ.

قلت: والمتفهبون: الذي يتوسع في كلامه ويفهق به فمه أي يفتحه فهي صورة من صور الثرثرة وهو الامتلاء يقال: أفهقت الإناء فهق وفي بعض الروايات «أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافهم الذين يألفون ويؤلفون» كأن المتفهب الثرثار متكبر لا يألف ولا يؤلف تنفض الناس من حوله وعكس ذلك متواضع يتكلم للحاجة فقط.

وهي علامة من علامات المؤمنين «المؤمن يألف ويؤلف» حسنه الهيثمي في المجمع ولذلك قال النبي: «هلك المتنطعون» قال البغوي بعد إخرجه للحديث قال:

المتنطع: المتعمق في الكلام المغالي الذي يتكلم بأقصى حلقه مأخوذاً من النطع.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص: «لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتهم» يعني مثل البقر تجتر يعني يأكل في الكلام مثل أكل الخبز فهو عمال على بطال يحب الرغى والتكلم الكثير وهي صفة أغلبها في النساء.

قال ابن الأثير: هو مأخوذ من النطع وهو الغار الأعلى من الضم، قال: ثم استعمل في كل تعمق قولاً وفعلاً.

وفي حديث عمر: «لن تزالوا بخير ما عجلتم الفطر ولم تنطعوا تنطع أهل العراق» أي تتكلفوا القول والعمل.

وقيل: أراد به ههنا الإكثار من الأكل والشرب والتوسع فيه حتى يصل إلى الغار الأعلى.

ويستحب للصائم أن يعجل الفطر بتناول القليل من الفطور.

ومنه حديث ابن مسعود: «إياكم والسنطع والإختلاف فإنما هو كقول أحدكم هلمّ وتعال» أراد النهي على الملاحاة في القراءات المختلفة وأن مرجعها كلها إلى وجه واحد من الصواب كما أن هلمّ بمعنى تعال. اهـ.

(١) اللسان مادة (ن ط ع).

## فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنْ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ وَبَيَّنَّ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَرَأَى مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَتَقْلِيهِ لِلْقُلُوبِ الْعَجَبَ.

قال ابن عثيمين (١):

قوله: «المنتطمعون».

الْمُنْتَطِعُ: هو المتعمق المتقعر المتشدد، سواء كان في الكلام أو في الأفعال؛ فهو هالك، حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة؛ فبعض الناس يكون بهذه الحالة، حتى إنَّه ربما يقترون بتعمقه وتنطعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترون به الكبير، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلم عليه تسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال. والنتطمع بالأفعال كذلك أيضاً قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكبير، ولهذا قال: «هَلَكَ الْمُنْتَطِعُونَ».

والنتطمع أيضاً في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها؛ فهو أيضاً من أسباب الهلاك، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التطمع في صفات الله تعالى والتقعر فيها، حيث يسألون عما لم يسأل عنه الصحابة رضی الله عنهم، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشد حرصاً على العلم، وفيهم رسول الله الذي عنده من الإجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلها تدل على تحريم الغلو، وأنه سبب للهلاك، وأن الواجب أن يسير العبد إلى الله بين طرفي نقيض الدين الوسط، فكما أن هذه الأمة هي الوسط ودينها هو الوسط؛ فينبغي أن يكون سيرها في دينها على الطريق الوسط. اهـ.

قوله فيه مسائل:

قال ابن عثيمين (٢):

● الأولى: أَنْ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ - أَيْ: بِمَا مَرَّ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ - وَبَيَّنَّ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ.

وهذا حق؛ فإنَّ الإسلام المبني على التوحيد الخالص غريب، فكثير من البلدان

(١) القول المفيد ١/ ٤٨٥ و ٤٨٦.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٨٦: ٥٠٤.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض كان بشبهة الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن

الله أرسلهم.

الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم، فلاتجد بلداً مسلماً إلا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون ليس قبر رجل صالح، قد يكون وهماً، مثل قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما؛ فأهل العراق يقولون: هو عندنا، وأهل الشام يقولون: عندنا، وأهل مصر يقولون: عندنا، وبعضهم يقول: هو في المغرب؛ فصار الحسين إما أنه أربعة رجال، أو مُقَطَّع أوصالاً، وهذا كله ليس بصحيح؛ فالهمم أنه كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: تبين لك غربة الإسلام في المسلمين.

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها قبور وقباب تعبد من دون الله ويُحج إليها وتُقصد، ولكن بتوفيق الله - سبحانه وتعالى - أنه أعان هذا الرجل مع الإمام محمد بن سعود حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد والله الحمد على التوحيد الخالص.

● الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض.

وجه ذلك: أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقواماً صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون الله؛ ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

● الثالثة: معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم.

أول شيء غير به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: «مع معرفة أن الله أرسلهم»، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>؛ أي: كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلَفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ فهذا أول ما حدث من الشرك في بني آدم.

(١) البقرة: ٢١٣.

الرابعة: قَبُولُ الْبِدْعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطْرِ تَرُدُّهَا.

الخامسة: أَنْ سَبَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

فَالأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ.

والثاني: فَعَلَ أَناسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِينِ شَيْئاً أَرَادُوا بِهِ خَيْراً فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

● الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفتور ترددها.

قوله: «قبول البدع».

أى: أَنَّ النّفوسَ تقبلها لا لأنها مشروعة، بل إن الشرائع ترددها، وكذلك الفتور السليمة ترددها؛ لأن الفتور السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾<sup>(١)</sup>؛ فالفتور السليمة لا تقبل تشريعاً إلا ممن يملك ذلك.

● الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل.

أراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبة لهم، ورغبة في مشاهدة أشباحهم.

الثاني: أن أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيراً، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذي أراده أولئك.

ويؤخذ منه: أن مَنْ أَرَادَ تَقْوِيَةَ دِينِهِ بِبِدْعَةٍ؛ فَإِنْ ضَرَّرَهَا أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهَا.

مثال ذلك: أولئك الذين يغفلون في الرسول ﷺ ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيراً، لكن أرادوا خيراً بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها؛ لأنها تعطى الإنسان نشاطاً غير مشروع في وقت معين، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام.

ولهذا تجده هؤلاء الذين يغفلون في هذه البدع فاترين في الأمور المشروعة الواضحة

(١) الروم: ٣٠.

ليسوا كتنشاط غيرهم، وهذا مما يدل على تأثير البدع في القلوب وأنها مهما زينها أصحابها؛ فلا تريد الإنسان إلا ضلالاً؛ لأن النبي ﷺ يقول: «كل بدعة ضلالة» (١).

فإن قيل: إن للإحتفال بمولده أصلاً من السنة، وهو أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؛ فقال: «ذاك يوم ولد فيه، وبعثت فيه، أو أنزل على فيه» (٢)، وكان ﷺ يصومه مع الخميس ويقول: «إنهما يومان تُعرض فيهما الأعمال على الله فأحبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم» (٣).

فالجواب: على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنما هو صوم وإسماك، أما هؤلاء الذين يجعلون له المولد؛ فإحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أن هذا اليوم إذا صامه الإنسان؛ فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أننا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنه على فرض أن يكون هذا أصلاً؛ فإنه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأن العبادات توقيفية، ولو كان الإحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعاً لبيته ﷺ؛ إما بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثالث: أن هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي ﷺ لا يقيدونه بيوم الاثنين، بل في اليوم الذي زعموا مولده فيه، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، مع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقق بعض الفلكيين المتأخرين ذلك، فكان في اليوم التاسع لافي اليوم الثاني عشر.

الرابع: أن الإحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنه لم يكن معروفاً على عهد النبي ﷺ وأصحابه، مع قيام المقتضى له وعدم المانع منه.

#### ● مسألة حكم الإحتفال بعيد الميلاد للأطفال:

فائدة: كل شيء يتخذ عيداً يتكرر كل أسبوع، أو كل عام وليس مشروعاً؛ فهو من

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الجمعة (٣/٤١٨/٤٣) عن جابر به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الصيام (٤/٣٠٦/١٩٧) عن أبي قتادة به.

وانظر كتابنا تخريج أحاديث فقه السنة.

(٣) أخرجه الترمذى (٧٤٧) عن أبي هريرة به. قال الترمذى: حسن غريباً.

وأصله عند مسلم وأنظر «لطائف المعارف» بتخريجنا.

السادسة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

السابعة: جِبِلَّةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ وَالْبَاطِلُ يَزِيدُ.

البدع، والدليل على ذلك: أَنَّ الشارح جعل للمولود العقيقة، ولم يجعل شيئاً بعد ذلك، واتَّخَذَهُمْ هَذِهِ الْأَعْيَادُ تَتَكَرَّرُ كُلَّ أُسْبُوعٍ أَوْ كُلِّ عَامٍ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْأَعْيَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهَذَا حَرَامٌ لَا يَجُوزُ، وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْيَادِ إِلَّا الْأَعْيَادُ الشَّرْعِيَّةُ الثَّلَاثَةُ: عِيدُ الْفِطْرِ، وَعِيدُ الْأَضْحَى، وَعِيدُ الْأُسْبُوعِ، وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ.

وليس هذا من باب العادات لأنَّه يَتَكَرَّرُ، وَلِهَذَا لَمَّا قَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَجَدَ لِلْأَنْصَارِ عِيدَيْنِ يَحْتَفِلُونَ بِهِمَا؛ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَبْدَلَكُمْ بِخَيْرِ مَنْهُمَا: عِيدَ الْأَضْحَى، وَعِيدَ الْفِطْرِ»<sup>(١)</sup>، مَعَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْعَادِيَةِ عِنْدَهُمْ. اهـ.

● السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

وقد سبق ذلك وبيان أنَّهم يتواصون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الذين يتواصون بما هم عليه، سواء كانوا رؤساء سياسيين أو رؤساء دينيين ينتسبون إلى الدين، فتجد الواحد منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمى هذا الأمر الذي هو عليه.

● السابعة: جبلة آدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

هذه العبارة تقيده من حيث كونه آدمياً بقطع النَّظَرِ عَلَى مَنْ يَمُنُّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِيَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

قوله: «جبلة» على وزن فعلة، وهو ما يجبل المرء عليه؛ أى: يخلق عليه ويُطَبِّعُ وَيُبدِعُ، بِمَعْنَى الطَّبِيعَةِ الَّتِي عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ بَقَطَعَ النَّظَرَ عَنْ كَوْنِهِ زَكَّى نَفْسَهُ أَوْ دَسَّاهَا.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظُلُومٌ

(١) تقدم تخريجه.

رواه: أبو داود (كتاب الصلاة، باب صلاة العيدين)، والنسائي في العيدين، (١٧٩/٣)، والحاكم

(٢٩٤/١)، والبيهقي (٢٧٧/٣).

وإسناده صحيح

(٢) الشمس: ٩، ١٠.

## الثامنة: فِيهِ شَاهِدٌ نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

كَفَّارٌ<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾<sup>(٢)</sup>.

أما من حيث ما يمنُّ الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يرتقى عن هذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾<sup>(٤)</sup> ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾<sup>(٣)</sup>؛ فالإنسان الذي يمنُّ الله عليه بالهدى؛ فإنَّ الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكليَّة؛ كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

وكذلك أهل العلم؛ كأبي الحسن الأشعري، كان معتزلياً، ثم كلايبياً، ثم سنياً، وابن القيم كان صوفياً، ثم منَّ الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهداه الله على يده حتى كان ربانياً.

### ● الثامنة: فِيهِ شَاهِدٌ لَمَّا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

قال أهل العلم: إنَّ الكفر له أسباب متعدِّدة، ولا مانع أن يكون للشئ الواحد أسباب متعدِّدة، ومن ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إنَّ البدعة لاتزال في القلب، يظلم منها شيئاً فشيئاً؛ حتَّى يصل إلى الكفر، واستدلُّوا بقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»<sup>(٤)</sup>.

وقالوا أيضاً: «إنَّ المعاصي بريد الكفر، وبريد الشئ ما يوصل إلى الغاية».

والمعاصي كما أخبر النبي ﷺ تتراكم على القلب، فتتكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب؛ صقل قلبه وأبيض<sup>(٥)</sup>، وإلا؛ فلاتزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلماً.

وكذلك حذرَّ من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضاً، فأرادوا أن

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

(٣) التين: ٤ - ٦.

(٤) تقدم مختصراً.

(٥) أخرجه الترمذى (٣٣٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦٧٨) عن أبي هريرة به وانظر «الاتقان» (١٧٧٩)

- بتخريجنا.



## التاسعة: مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَوَوَّلُ إِلَيْهِ الْبِدْعَةُ وَلَوْ حَسَنَ قَصْدُ الْفَاعِلِ.

يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود، فجمعوها، فأضرموا ناراً كبيرة، وهكذا المعاصي<sup>(١)</sup>؛ فالمعاصي لها تأثير قوى على القلب، وأشدّها تأثيراً الشهوة فهي أشدّ من الشبهة؛ لأنّ الشبهة أيسر زوالاً على من يسرها الله عليه؛ إذ إن مصدرها الجهل، وهو يزول بالتعلّم.

أما الشهوة، وهى إرادة الإنسان الباطل؛ فهى البلاء الذى يُقتل به العالم والجاهل، ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية النصارى؛ لأنّ معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطل، والنصارى سببها الشبهة، ولهذا كانت البدع غالبها شبهة، ولكن كثيراً منها سببه الشهوة. ولهذا يبين الحق لأهل الشهوة من أهل البدع، فيصرون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظنّ فى نفسه ويملى عليه الشيطان أنّه لو رجع عن بدعته لتقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلّب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك؛ فأبو الحسن الأشعري مَضْرِبُ المثل فى هذا الباب؛ فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إماماً، ولما رجع إلى مذهب أهل السنّة صار إماماً؛ فكل من رجع إلى الحق زادت منزلته عند الله - سبحانه -، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أنّ البدعة سبب للكفر، ولا يرد على هذا قول بعض أهل العلم: إنّ المعاصى بريد الكفر؛ لأنّه لا مانع من تعدّد الأسباب.

### ● التاسعة: معرفة الشيطان بما يؤوّل إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

لأنّ الشيطان هو الذى سوّل لهؤلاء المشركين أن يصوروا هذه التماثيل والتصاوير؛ لأنّه يعرف أن هذه البدعة تؤوّل إلى الشرك.

وقوله: «ولو حسن قصد الفاعل».

أى: إنّ البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالماً أنّها بدعة ولو حسن قصد؛ لأنّه أقدم على المعصية كمن يجيز الكذب والغش ويدعى أنّه مصلحة، أمّا لو كان جاهلاً فإنّه لا يَأْثَمُ؛ لأنّ جميع المعاصى لا يَأْثَمُ بها إلاّ مع العلم، وقد يُثَاب على حسن قصده، وقد نبّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»؛ فيثاب على نيّته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند الله ولا مرضى، لكن

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٣١/٥) عن سهل بن سعد به.

## العاشرة: مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ وَمَعْرِفَةُ مَا يُؤْوَلُ إِلَيْهِ.

لحسن نيته مع الجهل يكون له أجر، ولهذا قال ﷺ للرجل الذى صلى وأعاد الوضوء بعدما وجد الماء وصلّى ثانية: «لك الأجر مرتين»<sup>(١)</sup>؛ لحسن قصده، ولأن عمله عمل صالح فى الأصل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمل مرتين مع علمه أنه غير مشروع؛ لم يكن له أجر لأن عمله غير مشروع لكونه خلاف السنة؛ فقد قال النبى ﷺ للذى لم يعد: «أصبت السنة»<sup>(٢)</sup>.

فإن قال: إنى أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك.

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن فى رسالة الرسول ﷺ؛ لأنه اتهام له بالتقصير أو القصور، أى مقصّر فى الإخبار عن ذلك أو قاصر فى العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم، ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون، أمّا إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أنّ هذا بدعة؛ فإنه يثاب على نيته ولا يثاب على عمله؛ لأن عمله شرّ حابط كما قال النبى ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد»<sup>(٣)</sup>.

وأما العامة الذين لا يعلمون، وقد لبس عليهم هذه البدعة وغيرها؛ نقول: ماداموا قاصدين للحق ولا علموا به، فيأثمهم على من أفتاهم ومن أضلهم.

ولهذا يوجد فى مجاهل أفريقيا وغيرها من لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، فلو ماتوا لانقول: إنهم مسلمون ونصلى عليهم وترحم عليهم مع أنّهم لم تقم عليهم الحجّة، لكننا نعاملهم فى الدنيا بالظاهر، أمّا فى الآخرة؛ فأمرهم إلى الله.

● العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهى النهى عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه.

هذا ما حدّر منه النبى ﷺ؛ لأنّ الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون فى العبادات يكون فى غيرها، قال تعالى: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا»<sup>(٤)</sup>، وقال: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا»<sup>(٥)</sup>، وقد سبق بيان ذلك.

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٨)، والنسائى (٢١٣/١ - السيوطى) عن أبى سعيد به.

(٢) تقدم قبله.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الأعراف: ٣١.

(٥) الفرقان: ٦٧.

الحادية عشرة: مَضْرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثانية عشرة: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ وَالْحِكْمَةُ فِي إِزَالَتِهَا.

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهَا.

الرابعة عشرة: وَهِيَ أَعْجَبُ الْعَجَبِ: قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَى الْكَلَامِ، وَكَوْنُ اللَّهِ حَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّى

● الحادية عشرة: مَضْرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

المضرة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قرىء القرآن عند قبر رجل صالح، أو تُصَدَّقَ عند هذا القبر يعتقدُ أنَّ لذلك مزيةً على غيره؛ فإن هذا من البدع، وهذه البدعة قد تؤدِّي بصاحبها إلى عبادة هذا القبر.

● الثانية عشرة: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ.

التماثيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر، والغالب أنَّها تُطلق على ما صنع ليعبد من دون الله.

● الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ.

أى: قصة هؤلاء الذين غلوا فى الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله؛ فتجب معرفة هذه القصة، وأنَّ أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة؛ فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة والناس لو تدبَّرت أحوالهم وسيرت قلوبهم وجدت أنَّهم فى غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود فى البلاد الإسلامية.

● الرابعة عشرة - وهى أعجب العجب -: قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ.

قوله: «وأعجب».

أى: أكثر عجباً وأشد، والعجب نوعان:

اعْتَقِدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، وَاعْتَقِدُوا أَنَّ مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ فَهُوَ الْكُفْرُ الْمُبِيحُ لِلدَّمِّ وَالْمَالِ.

الخامسة عشرة: التّصريح بأنّهم لم يريدوا إلا الشّفاة.

الأول: بمعنى الاستحسان، وهو ما إذا تعلق بمحمود؛ كقول عائشة في الحديث: «كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره، وفي شأنه كله» (١).

الثاني: بمعنى الإنكار، وذلك فيما إذا تعلق بمذموم، قال تعالى: «وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد» (٢).

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عمّا كان في زمنه، حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وهذا من أضرّ ما يكون على المرء أن يعتقد السيء حسناً، قال تعالى: «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء» (٣)، وقال تعالى: «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً (١٠٣) الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» (٤).

قوله: «فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدّم والمال».

أى: من اعتقد أن الشرك والكفر من أفضل العبادات، وأنه مقرب إلى الله؛ فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لى ما لعله المراد أن هؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهى عنه هو الكفر المبيح للدّم والمال، وأما ما دونه من الغلو؛ فلا نهى فيه، والله أعلم.

● الخامسة عشرة: التّصريح بأنّهم لم يريدوا إلا الشّفاة.

أى: ما أرادوا إلا الشّفاة، ومع ذلك وقعوا في الشرك.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٣٨٠)، ومسلم فى الطهارة (١٦٠/٣ - النووى) عن عائشة به.

وانظر «السلسيل» (٤٤ - بتخریجنا).

(٢) الرعد: ٥.

(٣) فاطر: ٨.

(٤) الكهف: ١٠٣.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» فصلوات الله وسلامه عليه، بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المنتطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

---

● السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

أى: أرادوا أن تشفع لهم، بل ظنوا أنها تشطهم على العبادة، وهذا ظنٌ فاسدٌ كما سبق.

● السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: «لاتطروني ...» الحديث.

معنى الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه.

وهذا الذى نهى عنه ﷺ وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشد؛ حتى جعلوا النبي ﷺ المرجع فى كل شىء، وهذا أعظم من قول النصارى: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة. ومعنى: «بلغ»؛ أى: أوصل وبين.

● الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المنتطعين.

وذلك بقوله ﷺ: «هلك المنتطعون»؛ فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنطع.

● التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم.

أى: لم تعبد هذه التماثيل إلا بعد أن نسى العلم اضمحل؛ ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أى العلم، وأن وجوده أمر ضرورى للأمة؛ لأنه إذا فقد العلم؛ حلَّ الجهل محلّه، وإذا حلَّ الجهل؛ فلا تسأل عن حال الناس؛ فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقربون إليه.

قلت: فالجهل سبب الهلاك ويشهد له ما روى عنه ﷺ «قتلوه قتلهم الله».

● العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء؛ لم يبق إلا جهال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقدته أيضاً: الغفلة والإعراض عنه، والتشاغل بأمر الدنيا، وعدم المبالاة به. ثم إن العلم قد يكون موجوداً وهو معدوم، وذلك فيما إذا كثَرَ القُرَّاء الذين يقرؤون العلم ولا يعملون به، وقلَّ الفقهاء الذين يعملون به؛ فهذا يُصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إنَّ في وجوده ضرراً على الأمة؛ لأنَّ العامَّة إذا رأوا من يتسبب إليه ساكتاً غير عامل بما عَلِمَ؛ ظَنُّوا أنَّ ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لا ينفع أشدَّ من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل؛ فإنَّ الناس قد يطلبون العلم ويتلمَّسونه.

### ● الخلاصة للباب:

بيان أنَّ الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر. وأنَّ خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة؛ فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم؛ فلا يستوى الصالح والفساد، بل ينزل كلُّ منزلته، ولكن لاتجاوز به المستزلة فتغلو فيه؛ فدين الله وسط لا يعطى الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س ١: ما الفرق بين التنطع والغلو والاجتهاد؟

الجواب: الغلو مجاوزة الحد.

والتنطع معناه: التشدُّقُ بالشىء والتعمُّقُ فيه، وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد: فإنَّه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلا إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة غير المشروعة؛ فقد تودى إلى الغلو، فلو أنَّ الإنسان مثلاً أراد أن يقوم الليل ولا ينام، وأن يصوم النهار ولا يفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلها؛ فلا يتزوَّج ولا يأكل اللحم ولا الفاكهة وما أشبه ذلك؛ فإنَّ هذا من الغلو، وإن كان الحامل على ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدى النبي ﷺ.

س ٢: ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟

الجواب: هذا من البدع، سواء قلنا يصل الثواب أو لا يصل؛ فكونك تتخذ القراءة عند القبر خاصَّة هذا من البدع.

وإنما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن.

والصحيح أيضاً أنَّه ليس بسنة، والسنة أن تستغفر له وتسال له التثبيت أ.هـ.



## ما جاء في التخليط فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟! فكيفة إذا عبده؟!

● مناسبة هذا الباب للذي قبله

قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: نوع المصنف التحذير من الافتتان بالقبور، وأخرجه في أبواب مختلفة، ليكون أوقع في القلب وأحسن في التعليم، وأعظم في الترهيب، فإذا كان قصد قبور الصالحين لعبادة الله عندها فيه من النهي والوعيد ما سيمر بك إن شاء الله، فكيف بعبادة أربابها من دون الله، وإعتيادها لذلك في اليوم والأسبوع، والشهر مرات كثيرة. اهـ.

قلت: فهو من باب التنوع في التحذير من القبور والافتتان بها، فبين أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم الغلو في الصالحين كما في الباب الماضي، وهذا أصله العكوف عند صورهم أو أصنامهم أو قبورهم لا لعبادتهم بل للنظر إليها والاجتهاد في طاعة الله عزوجل حتى إذا تنسخ العلم كما قال ابن عباس عُبِدت أو عبُد هؤلاء الصالحين فكأنه يحذر من هذا الغلو لأن الغلو في محبتهم سيُصير قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله وسيصيرها آلة تعبد من دون الله وهذا في الباب الماضي وهنا أراد أن ينوع في هذا التحذير فبوب باباً آخر فيه نوع آخر من أنواع التحذير التي تحذر من عبادة المقبور أو عبادة القبور.

ولما استنبط المصنف - رحمه الله - من الأدلة التي ذكرها في الباب الماضي لاسيما من أثر ابن عباس في سبب عبادة ود وسواع وغيرهما مضرّة العكوف على القبر من أجل عمل صالح كما في المسئلة الحادية عشرة من مسائل الباب الماضي، ناسب أن يأتي بالأدلة المصرحة بالنهي عن التقرب إلى الله بالعمل الصالح عند قبور الصالحين فلهذا أفرد لها هذا الباب وجمع فيه هذه الأدلة المصرحة بالنهي بمغبة ذلك ومضرته. والله أعلم.

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال عبدالله بن جارالله<sup>(٢)</sup>: مناسبة لكتاب التوحيد: أن عبادة الأولياء والصالحين شرك أكبر ينافي التوحيد، وعبادة الله عند قبورهم وسيلة إلى الشرك اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٣٤).

(٢) الجامع الفريد (٨٣).

## • شرح الترجمة

قال حامد بن محمد<sup>(١)</sup>: باب ما جاء فى بيان ما يدل على أن التغليظ يلزم الذى يطيع الله ورسوله غيرة منه على دينه - عزوجل - فىمن عبد الله خالصاً، لكن عند قبر رجل صالح حذراً من الفتنة والشرك، هذا إذا كان غير الله، فكيف إذا عبده!! فىكون التغليظ أولى والزم اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: قوله: باب: ما جاء من التغليظ فىمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

أى: الرجل الصالح، فإنَّ عبادته هى الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة، لأنها تؤدى إلى الشرك الأكبر، وهو أعظم الذنوب. اهـ.

قلت: فهو من باب الوسائل كأنه فى الباب الأول ذكر النهى عن وسيلة من وسائل الشرك وهنا النهى عن وسيلة أخرى من وسائل الشرك ففى الأول بين أن الغلو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر وهنا نهى عن عبادة الله عند قبور الصالحين لأنها وسيلة أخرى من وسائل الشرك الأكبر فهذا تعدد فى التحذير.

قال ناصر السعدى<sup>(٣)</sup>: ما ذكر المصنف فى البابين - (هذا الباب وما بعده) - اهـ. وأنا أقول والذى قبله.

ثم قال: يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع: فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعى من غير شد رحل، يزورها المسلم متبعاً للسنة فيدعو لأهلها عموماً ولأقاربه ومعارفه خصوصاً فىكون محسناً إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسناً إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاعتاظ. اهـ.

قلت: لحديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور إلا فزورها فإنها تذكر الآخرة»<sup>(٤)</sup>. فالمشروع لأمرين: لنفع القبور ولنفع الزائر، أما نفع القبور فبالدعاء له، وأما نفع الزائر

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٢).

(٢) فتح المجيد (١/٢٩٠).

(٣) القول السديد (٦٤).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٢/٤٦ - النووى) عن بريدة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٢ - بتخريجنا).



بهذا القبر والمقبور فبالتأسي وأتباع السنة وتذكر الآخرة، فإذا ذهبت لزيارة القبور من باب  
إلا فزورها وما ذهبت ألا لذلك فلك بذلك فائدتين الأولى أتباع السنة والثانية تذكر  
الآخرة فهذا المشروع، و الأجر والثواب في اتباع السنة في هذا الباب». ثم قال:

وأما المنوع: فإنه نوعان:

أحدهما: محرم أو وسيلة للشرك

قلت: لو قال محرم أو وسيلة لشرك لكان أجود وأفضل فيكون المعنى محرم ووسيلة  
للشرك أى يحصل هذا أو يحصل هذا، أى ما هو محرم وليس وسيلة لشرك وإن كان  
سيؤدى إليه وليس أكبر وهناك محرم وسيلة للشرك ويؤدى إليه أى الأكبر ولكن هو  
شرك أصغر. والله أعلم

ثم قال: كالتمسحُ بها والتوسلُ إلى الله بأهلها، والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء  
عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثانى: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية  
والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر، وهو عين ما يفعله عبَاد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق فى هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون فى تحصيل مطالبه، أو  
متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾  
و﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى  
يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط  
بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم يكفر<sup>(١)</sup>.

من زعم ذلك فقد كَذَّب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من  
دعى غير الله فهو مشرك كافر فى الحالين المذكورين سواء اعتقدهم مستقلين أو  
متوسطين.

وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام.

فعليك بهذا التفصيل الذى يحصل به الفرقان فى هذا الباب المهم الذى حصل به من  
الاضطراب والفتنة ما حصل، ولم ينبج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه. أهـ.

(١) كذا فى أصل الكتاب، وفى الحاشية قال: [لعله: لم يكفر].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْسَةَ رَأَتْهَا  
بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّورِ، فَقَالَ: أَوْلَيْتُكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ  
أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَيَّ قَبْرَهُ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، أَوْلَيْتُكَ  
شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ» فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةُ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةُ التَّمَائِيلِ (١).

قال ابن باز (٢): هنا باب عظيم كالذي قبله أى باب ماجاء من الأدلة فى التغليظ،  
فإن كانت الأدلة جاءت بإنكار عبادة الله عند قبور الصالحين فكيف إذا عبده واتخذة إلهاً  
من دون الله؟! فالتغليظ يكون أشد لأن الأول - عبادة الله عند هذا القبر - وسيلة لشرك -  
والثانى شرك أكبر - اهـ.

قلت: فهو من باب التفصيل.

قال ابن عثيمين (٣): قوله: «التغليظ» التشديد «قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا  
الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾».

قوله «من عبد الله عند قبر رجل صالح» أى عمل عملاً تعبد لله به من قراءة أو  
صلاة أو صدقة أو غير ذلك .

قوله: «فيكيف إذا عبده؟»

أى : يكون أشد وأعظم، وذلك لأن المقابر والقبور للصالحين أو من دونهم من  
المسلمين أهلها بحاجة إلى الدعاء فهم يزارون لِيُسْنَعُوا لا لِيُتَفَتَحَ بهم إلا باتباع السنة فى  
زيارة المقابر. والثواب الحاصل بذلك، لكن هذا ليس انتفاعاً بأشخاصهم بل انتفاع بعمل  
الإنسان نفسه بما أتى به من السنة.

فالزيارة التى يُقصد منها الإنتفاع بالأموات زيارة بدعية.

والزيارة التى يُقصد بها نفع الأموات والاعتبار بحالهم زيارة شرعية. اهـ.



قوله: [وفى الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ...].  
ولفظه فى الصحيح.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى الصلاة : باب : هل تنبش قبور مشركى الجاهلية  
(٢٤/٢٢٤ ح/٤٢٧)، ومسلم فى «المساجد ومواضع الصلاة» / باب : النهى عن بناء المسجد على القبور  
(٣/١٤ ح/٥٢٨).

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٥١) بتخریجنا

(٣) القول المفيد (١/٥٠٥).

(٢) التعليق المفيد (١١٩).

عن عائشة قالت: لما اشتكى النبي ﷺ ذكرت بعض نساءه كنيسة رأيتها يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضى الله عنهما - أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنهما وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال: «أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله».

ولقد ذكر البخارى هذا الحديث فى «صحيحه» فى عدة أبواب:

باب هل تنبش قبور مشركى الجاهلية، ويتخذ مكانها مساجد<sup>(١)</sup>؟

باب الصلاة فى البيعة<sup>(٢)</sup>.

باب بناء المسجد على القبر<sup>(٣)</sup>، واللفظة المنقولة منه .

باب هجرة الحبشة<sup>(٤)</sup>.

### ● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى<sup>(٥)</sup>: حيث دل الحديث على التحذير من بناء المساجد على القبور لما فى ذلك من تعظيم أصحابها، والتعظيم عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك اهـ.

### ● مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله<sup>(٦)</sup>: هى أن فيه التغليظ والوعيد الشديد لمن اتخذ القبور مساجد اهـ.

وقال القرعاوى<sup>(٧)</sup>: حيث دل الحديث على التغليظ فى النهى فىمن بنى على قبر رجل صالح موضعاً لعبادة الله فكيف بمن عبد صاحب القبر اهـ.

### ● شرح الحديث:

قوله «أن أم سلمة»

قال ابن الأثير: هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية.

(١) (١/٦٢٤/١) ح ٤٢٧ - فتح).

(٢) (١/٦٣٣/١) ح ٤٣٤ - فتح).

(٣) (٣/٢٤٧/٣) ح ١٣٤١ - فتح).

(٤) (٧/٢٢٦/٧) ح ٣٨٧٣ - فتح).

(٥) الجديد (١٨٥).

(٦) الجامع الفريد (٨٤).

(٧) الجديد (١٨٤).

زوج النبي ﷺ وإحدى أمهات المؤمنين واسم ابنيها أمية: حذيفة، ويعرف بزاد الركب. هو أحد أجواد قريش المشهورين بالكرم، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن خزيمة بن علقمة - وهو جدل الطمان - بن فراس الكنانية.

اختلف في اسمها، فقيل: رملة وليس بشيء، وقيل: هند. وهو الأكثر.

وكانت قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ تحت أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى الحبشة.

ويقال أيضاً: إن أم سلمة أول ظعينة هاجرت إلى المدينة. وقيل: بل ليلي بنت ابي حثمة امرأة عامر بن ربيعة. وتزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث بعد وقعة بدر. وقيل: إنه شهد أحداً ومات بعدها قاله ابن اسحاق (١).

وفي لفظ البخاري أم حبيبة وأم سلمة.

قال ابن الأثير: (٢) وأم حبيبة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشية الأموية. زوج النبي ﷺ إحدى أمهات المؤمنين - رضى الله عنها - كنيت بانيتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش، واسمها رملة وكانت من السابقين إلى الإسلام وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله، فولدت هناك حبيبة، فتنصر عبيد الله، ومات بالحبشة نصرانياً، وبقيت أم حبيبة: ما شعرت.. وذكر القصة ثم قال:

لا اختلاف بين أهل السير وغيرهم في أن النبي - ﷺ تزوج أم حبيبة وهي بالحبشة إلا مارواه مسلم بن الحجاج في «صحيحه» أن أبا سفيان لما أسلم طلب من رسول الله ﷺ أن يتزوجها فأجابته إلى ذلك وهو وهم من بعض رواه اهـ.

قاله أيضاً ابن القيم في «الزاد» وتوفيت أم حبيبة سنة أربع وأربعين. اهـ.

قلت: وعند البخاري قالت عائشة: «لما أشتكى النبي ﷺ».

قلت: بين ابن حجر أن التنصيص على أنه قال ذلك في مرض موته قبل أن يموت بخمس فائدة: وهي أن التنصيص على زمن النهي فيه الإشارة إلى أنه من الأمر المحكم الذي لم ينسخ - أي «النهي عن اتخاذ القبور مساجد» - فهذا حتى لا يظن النسخ أو يوهم أو يدعى ذلك صرح الصحابة من الرواة والتابعين على زمن التحديث «قبل موته بخمس» بهذه الوقعة قال ذلك في مرض موته.

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢٨٦/٧.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٣١٦، ٣١٥/٧.

قوله: [ذكرت لرسول الله ﷺ].

وفى لفظ للبخارى «ذكرتا»<sup>(١)</sup> أى أم سلمة وأم حبيبة.

قال ابن حجر: وكذا لاكثر الرواة<sup>(٢)</sup>.

وكان ذكر ذلك فى مرض موته ويدل عليه لفظ البخارى «لما اشتكى النبى ﷺ

ذكرت بعض نسائه .. الحديث.

ويوب عليه البخارى «باب بناء المسجد على القبر.

قوله: (كنيسة)

قال ابن حجر<sup>(٣)</sup>: هى معبد النصارى، بكسر الموحدة بعدها مشاء تحتانية، قال

صاحب المحكم: البيعة صومعة الراهب.

وقيل كنيسة النصارى والثانى هو المعتمد.

ويدخل فى حكم البيعة الكنيسة وبيت المدارس - بيت اليهود - والصومعة - للرهبان

سواء لليهود أو النصارى - وبيت الصنم - للمشركين - وبيت النار للمجوس ونحو

ذلك. أهـ.

وفسر البخارى - رحمه الله - البيعة بأنها الكنيسة ويدل على ذلك ذكره هذا الحديث

تحت باب «الصلاة فى البيعة».

والبيعة هى الكنيسة -

وهذه الكنيسة تسمى «مارية» لما فى الصحيح أيضاً بلفظ «كنيسة رأتها بأرض الحبشة

يقال لها مارية».

قوله: «رأتها».

وفى الصحيح بلفظ «رأيتها» أى أم حبيبة وأم سلمة<sup>(٤)</sup> (وماكان معهما من النساء).

قلت: وفيه جواز حكاية ما يشاهده المؤمن من العجائب فإذا سافرت إلى بلاد الكفر

فأريت عجيبية من العجائب فلا مانع من التحديث بها حتى وإن كانت مخالفة؛ لكن

(١)[صحيح] أخرجه البخارى (٤٢٧)

(٢) الفتح ١/٦٢٥.

(٣) الفتح ١/٦٣٣.

(٤) الفتح ١/٦٢٥.

على الثانى إن كان عالماً حرمة ما تحدّث به أو ما فيه من حرمة، عليه ألا يذكر ذلك إلا مع بيان ما فيها من حرمة. والله أعلم.

قوله: بأرض الحبشة»

وفى بعض الألفاظ بالحبشة، دون أرض .

قال ابن حجر<sup>(١)</sup> : أرض الحبشة بالجانب الغربى من بلاد اليمن ومسافتها طويلة جداً ، وأما اليوم فيقال لها الحطّى بفتح المهملة وكسر الطاء المهملة الخفيفة بعدها تحتانية خفيفة ، ويقال إنهم من ولد حبش بن كوشن بن حام، قال ابن دريد: جمع الحبش أحبوش بضم أوله، وأما قولهم الحبشة فعلى غير القياس وقد قالوا أيضاً حبشان وقالوا أحبش وأصل التحيش التجميع، والله أعلم. أهـ.

قوله: «وما فيها من الصور».

قال حامد بن محمد<sup>(٢)</sup>: والتماثيل لما كانوا يصورون عيسى وأمه والأنبياء تعظيماً لهم.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: الظاهر أن هذه الصور صور مجسمة وتماثيل منصوبة.

قال ابن حجر<sup>(٤)</sup>: وإنما فعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم

[قلت]: مثل كلام ابن عباس فى سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم الغلو فى الصالحين»

ثم قال: ثم خلف من بعدهم خلوف جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها فحذر النبى ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك.

وفى الحديث أيضاً «دليل على تحريم التصوير» وحمل بعضهم الوعيد على من كان فى ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان.

وأما الآن فلا وقد أظن ابن دقيق العيد أهـ «فى إحكام الأحكام فى شرح عمدة الأحكام» وذكره هنا أيضاً ابن حجر فى كتاب اللباس والزينة فى الرد على من زعم أن الآن يجوز التصوير لأنه يؤمن منها عبادة الأوثان.

(٢) «فتح الله الحميد المجيد» (٢٩٢).

(٤) فتح البارى (١ / ٦٦٦)

(١) الفتح ٧ / ٢٣٠.

(٣) القول المفيد (١ / ٥٠٦)

- وقد قرأت رسالة أيضاً لبعضهم صرح فيها بذلك تصريحاً عن جهل الكاتب  
ثم قال ابن حجر: وقال البيضاوى رحمه الله.

لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبله  
يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم - الله والرسول ﷺ - ومنع المسلمين  
عن مثل ذلك فأما من أتخذ مسجداً فى جوار صالح وقصد التبرك فى القرب منه لا  
التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل فى ذلك الوعيد. اهـ

#### ● تنبيه

[قلت] وسيأتى فى الباب الستين ما جاء فى التصوير بتفصيل من كلام أهل العلم  
وكلام شراح كتاب التوحيد.

وأقول: بل يدخل فى ذلك الوعيد لأن النبى ﷺ: نهى عن ذلك وأن التبرك  
بالصالحين على هذا النحو ممنوع ليس بمشروع:

أولاً: فلم يثبت أن هذا الصالح فيه بركة

ثانياً: وإن ثبت فلم يثبت أن التماس البركة من الصالحين ببناء مساجد قريبة من  
قبورهم فهذا وذاك لا يجوز.

قوله: «أولئك» بكسر الكاف ويجوز فتحها<sup>(١)</sup>.

قال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: بكسر الكاف، خطاب للمرأة.

قال عبدالله بن جار الله<sup>(٣)</sup>: مرجع اسم الإشارة هنا إلى الذين بينون المساجد،  
ويصورون فيها الصور. اهـ.

وقال ابن باز<sup>(٤)</sup>: أى الذين فعلوا هذا الفعل اهـ.

قال ابن عثيمين<sup>(٥)</sup>: المشار إليهم نصارى الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه  
الأفعال أياً كانوا وقوله (أولئك) يجوز فى الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة،  
والفتح إذا كان الخطاب بإعتبار الجنس. وقد ذكر العلماء أن فى كاف الخطاب المتصل  
باسم الإشارة ثلاثة أوجه.

(١) الجامع الفريد (٨٣)

(٢) فتح المجيد (١ / ٢٩١)

(٣) الجامع الفريد (١٨٣)

(٤) التعليق المفيد

(٥) القول المفيد ١/٥٠٦، ٥٠٧.

الوجه الأول: أن يكون مطابقاً للمخاطب المفرد للمفرد. والمثنى للمثنى والجمع للجمع، مذكراً كان أم مؤنثاً.

الوجه الثاني: الفتح مطلقاً.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنث مطلقاً، والفتح للمذكر مطلقاً.

وأشهرها: أن يكون مطابقاً للمخاطب، ثم الفتح مطلقاً. ثم الفتح للمذكروالكسر للمؤنث.

قوله «إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح».

قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: هذا والله أعلم شك من بعض رواة الحديث، هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا، ففيه التحرى فى الرواية وجواز رواية الحديث بالمعنى. اهـ وتبعه عبدالرحمن آل الشيخ.

- وقال نحوه حامد بن محمد<sup>(٢)</sup>. وابن عثيمين.

- قال ابن باز: هذا بيان حال النصارى وغلوهم فى أمواتهم. اهـ.

وقوله: «بنوا على قبره مسجداً».

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٣)</sup>: أى موضعاً للعبادة، وإن لم يسم مسجداً كالكنائس والمشاهد. اهـ.

قال ابن عثيمين<sup>(٤)</sup>: أى قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: (وصوروا فيه تلك الصور).

قال ابن حجر: قوله: «وصوروا فيه تلك الصور» وللمستملى «تيك الصور» بالياء التحتانية بدل اللام اهـ.

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٥)</sup>: الإشارة بتلك الصور إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التى فى الكنيسة كما فى بعض ألفاظ الحديث فذكرتا من حسنهما وتصاوير فيها. اهـ.

قال ابن باز<sup>(٦)</sup>: أى صور الرجل الصالح أو له ولأتباعه كما جرى لقوم نوح. اهـ.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٢).

(٤) القول المفيد (١ / ٥٠٨).

(٦) التعليق المفيد ١١٩.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.



قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: وربما أنهم يضيفون إلى صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع فيها صور كثيرة.

قوله: أولئك شرار الخلق عند الله.

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>:

مقتضى هذا التحريم ما ذكر، لاسيما وقد ثبت اللعن عليه. قال البيضاوي، لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً، لعنهم النبي ﷺ ومنع المسلمين عن مثل ذلك.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ويتذكروا أفعالهم الصالحة. فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك. أهـ

[قلت]: وتقدم ذكر هذا بألفاظ قريبة من كلام ابن حجر

قال حامد بن محمد بن محمد بن حسن<sup>(٣)</sup>: (أولئك شرار الخلق عند الله) لنبذهم حكم الله ورسوله وأتباعهم الآباء والأهواء.

قال ابن باز<sup>(٤)</sup>: فمن فعل هذا الفعل قد تشبه بالنصارى وعمل عملهم ومن تشبه بقوم فهو منهم والمقصود من الكلام التحذير من فعلهم. وقد وقع في الأمة ذلك وأعظم من فعله هم الرافضة الذين غلوا في آل البيت وهم أول من بنى على القبور وبنوا عليها المساجد وعبدوها من دون الله ثم قلدهم أناس من أهل السنة من كثير من بلاد المسلمين وقد وقع اتباعها للكفار حذو القذة بالقذة. اهـ.

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين فتنين فتنه القبور وفتنة التماثيل)

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٥)</sup>: هذا من كلام شيخ الإسلام، ذكره المصنف عنه. يعنى أن الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنين، ضل بها كثير من الخلق.

الأولى: فتنه القبور، لأنهم افتنوا بقبور الصالحين، وعظموها تعظيماً مبتدعاً. فال

(١) القول المفيد ١/٥٠٨.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٣٦. نقله عن فتح الباري (١/٦٢٦).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٢).

(٤) التعليق المفيد ١١٩، ١٢٠.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٣٦، ٢٣٧.

بهم إلى الشرك، وهم أعظم الفتنتين، بل هي مبدأ. الفتنة الثانية: وهي فتنة التماثيل، أى الصور، فإنهم لما افتتوا بقبور الصالحين وعظموها، وبنوا عليها المساجد، وصوروا فيها الصور للقصص الذى ذكره القرطبي. فآل الأمر إلى أن عبّدت الصور ومن هي صورته من دون الله، وهاتان الفتنتان هما سبب عبادة الصالحين كالكالات وود وسواع ويغوث ويثوق ونسر أو غير من الصالحين.

**قال شيخ الإسلام:** - رحمه الله - وهذه العلة هي التى لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور، وهى التى أوقعت كثيرا من الأمم إما فى الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم لكواكب ونحو ذلك. فإن الشرك بقبر الرجل الذى يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها فى بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء مالا يرجونه فى المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقاً<sup>(١)</sup> وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها<sup>(٢)</sup>. لأنها أوقات يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس، فهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون سداً للذريعة.

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة فى تلك البقعة، فهذا عين المعادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله. فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالإضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهى عنه. وأنه لعن من اتخذها مساجد. مساجد فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ - بالنهى عن ذلك والتخليط فيه.

وقد صرح عامة الطوائف بالنهى عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة.

(١) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٤٦)، وابن ماجه فى المساجد والجماعات (٧٤٦) عن ابن عمر به.

وانظر «السلسيل» (٣٥٠ - بتخریجنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٨٦)، ومسلم فى صلاة المسافرين (١١٢/٦ - النوى).

وانظر «السلسيل» (٥٤١ - بتخریجنا).

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا « أَخْرَجَاهُ(١) ».

وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة. والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء. وإن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه أهـ.

قال الحافظ(٢) ابن رجب في «فتح الباري»:

هذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها، كما يفعله النصارى، ولأريب أن كل واحد منهما محرم على انفراده، فتصور صور الأدميين يحرم، وبناء القبور على المساجد بانفراده يحرم، كما دلت عليه نصوص أخرى، يأتي ذكر بعضها..

قال: والتصاوير التي في الكنيسة التي ذكرتها أم حبيبة وأم سلمة كانت على الحيطان ونحوهما، ولم يكن لها ظل، فتصوير الصور على مثال صور الأنبياء والصالحين للتبرك بها، والاستشفاع بها يحرم في دين الإسلام وهو من جنس عبادة الأوثان، وهو الذي أخبر النبي ﷺ أن أهله شرار الخلق عند الله يوم القيامة، وتصوير الصور للتأسي برويتها أو للتنزه بذلك، والتلهي محرم وهو من الكبائر وفاعله من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، فإنه ظالم ممثل بأفعال الله التي لا يقدر على فعلها غيره، وأنه تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله سبحانه وتعالى.

قوله: ولهما.

أى البخارى ومسلم وهويغنى عن قوله في آخره أخرجاه(٣).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الجنائز/ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور(٣/٢٣٨-١٣٣٠)، ومسلم فى المساجد/ باب النهي عن بناء المسجد فى القبور(٢/١٢) النووى).

من طريق هلال، عن عروة بن الزبير، وعن عائشة به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٦٤١). وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٥٧) بتخريننا

(٢) فتح البارى لابن رجب نقلاً عن «تحذير الساجد».

(٣) فتح المجيد ٢٩٤.

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: والضمير يعود على البخارى ومسلم، وإن لم يسبق لهما ذكره لكنه لما كان ذلك مصطلحا معروفاً؛ صح أن يعود الضمير عليهما: وهما لم يذكرنا اعتماداً على المعروف المعهود. أهـ

[قلت]: بل اعتمد على المذكور أيضاً، لو قلنا أن المصنف قصد بقوله فى الصحيح: أى الكتب التى عنت بالصحيح كالبخارى ومسلم قوله: عنها.

أى عائشة<sup>(٢)</sup>.

قوله: «لما نزل برسول الله ﷺ».

وفى لفظ «لما كان مرض النبى» وفى لفظ «لما حضرته الوفاة» وفى لفظ «فى مرضه الذى لم يقم منه».

قال النووى: <sup>(٣)</sup> هكذا ضبطناه (نزل) بكسر الزاى وفى أكثر الأصول (نزلت) بفتح الحروف الثلاثة، وبتاء التانيث الساكنة، أى لما حضرت المنية والوفاة. وأما الأول فمعناه نزل ملك الموت والملائكة الكرام. أهـ.

تقدم ذكر فائدة تنصيب الصحابى على زمن الحديث فى أول حديث عائشة السابق قبل هذا.

قوله: (طفق يطرح خميصة له على وجهه)

قال النووى<sup>(٤)</sup>: يقال طَفَقَ بكسر الفاء وفتحها أى جعل، والكسر أفصح واشهر، وبه جاء القرآن ﴿وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ومن حكى الفتح الأخفش والجوهري.

والخميصة كساء له أعلام.

قال ابن عثيمين<sup>(٥)</sup>: طفق من أفعال الشروع، واسمها مستر وجملة يطرح» خبرها. قوله: «خميصة» وهى كساء مربع له أعلام كان يطرحه النبى ﷺ على وجهه.

(١) القول المفيد ١/ ٥٠٩.

(٢) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٣) مسلم شرح النووى ٣/ ١٦٦.

(٤) مسلم شرح النووى ٣/ ١٦٦.

(٥) القول المفيد ١/ ٥١٠.

قوله: «فإذا اغتم بها كشفها».

أى أصابه الغم بسببها وقد احتضر ﷺ (١).

قوله «وهو كذلك».

أى : وهو فى هذه الحالة عند الاحتضار (٢).

قوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»

وفى لفظ «لعن الله» وفى لفظ «قاتل الله اليهود اتخذوا» يبين، أن من فعل مثل ذلك حل عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى (٣).

قال ابن عثيمين (٤): يقول هذا فى سياق الموت، و«لعنة الله» أى طرده وإبعاده وهذه الجملة يحتمل أنه يراد بها ظاهر اللفظ؛ أى أن النبى ﷺ يخبر بأن الله لعنهم.

ويحتمل أن يراد بها الدعاء به فتكون خبرية لفظاً إنشائية معنى.

والمعنى على هذا الاحتمال أن النبى ﷺ دعا عليهم وهو فى سياق الموت بسبب هذا الفعل.

قوله «اتخذوا»

قال ابن حجر (٥): قال ابن رشيد: الاتخاذ أعم من البناء فلذلك أفردته بالترجمة، ولفظها يقتضى أن بعض الإتحاذ لا يكره، فكأنه يفصل بين ما إذا ترتبت على الإتحاذ مفسده أو لا.

قال ابن عثيمين (٦). الجملة هذه تعليل لقوله «لعنه الله على اليهود والنصارى».

كان قائلها يقول ولماذا لعنهم النبى ﷺ.

فكان الجواب أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد أى أمكنة للسجود سواء بنوا مسجداً أم لا. يصلون ويعبدون الله تعالى فيها مع أنها مبنية على القبور اهـ.

(١) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٢) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٣) فتح المجيد ٢٩٤.

(٤) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٥) الفتح ٣/ ٣٨.

(٦) القول المفيد ١/ ٥١٠.

إشكال وجوابه:

إشكال ثانى:

قلت: قوله «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» بعض الصوفية ربما يحتج عليك فيقول هذا الكلام فى اليهود والنصارى فلماذا تحتج أنت علينا بهذا الحديث وهو فى اليهود والنصارى والرسول ﷺ لعنهم للتحذير من أن نركب سنتهم فلنن كما لعنوا لقوله ﷺ يحذر ما صنعوا.

قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» هو أن النصارى لهم نبي واحد وهو عيسى فكيف يقول «أنبيائهم».

قال الفقير: أنه لم يكن الا عيسى نبياً ورسولاً لكن قد يكون من بعده حواريون أنبياء لكن ليسوا رسل. أو مريم على قول من قال أنها نبيه وليست رسولة. فالنصارى أيضاً اتخذوا قبور أنبيائهم.

ثانياً: أن النصارى وإن كان لم يكن لهم نبي إلا عيسى. فهم عظموا ما عظمه يهود من أنبياء اليهود لأنهم آمنوا بعيسى وبالذى قبله. وأمنوا بموسى أيضاً، وعظموا الأنبياء التى عظمها اليهود بعد موسى. وعظموها تعظيماً لليهود لأنهم يؤمنون بالتواراة والإنجيل. فهم لاريب ولاشك يصدق عليهم أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم.

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: أو المراد بالاتخاذ أعم من أن يكون ابتداءً أو اتباعاً فاليهود ابتدعت، والنصارى اتبعت ولاريب أن النصارى تعظم قبور كثير من الأنبياء الذين تعظمهم اليهود. أهـ.

● أو يقال:

أن هناك أحاديث لما ذكرت اليهود جمعت ولما ذكرت النصارى أفردت. فقال الرسول ﷺ حينما ذكر اليهود فقط جمع «قال» «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وحينما ذكر النصارى فقط قال ﷺ: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنو على قبره مسجداً» فلم يذكر أنبياء بل ذكر صالحهم.

ويؤيد ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم قال:- «قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» فالأنبياء أخص باليهود والصالحين أخص بالنصارى، وإن كانت النصارى أيضاً عظمت من أنبياء بنى إسرائيل الكثير.

(١) فتح البارى (١ / ٦٣٤)

● وأيضاً هناك إيراد آخر قد ذكرته من قبل :-

قد يقول قائل هم اتخذوا قبور مساجد ونحن اتخذنا قبراً واحداً مسجداً. فهم فعلوا ذلك في أغلب المساجد وفي جلها.

أن هذا بالنظر إلى مسجد واحد بنى عليه ولكن بالنظر إلى باقى المساجد. التبي بينتهم عليها القبور وفتحتم فيما وقعوا فيه من اتخاذ القبور مساجد، والمساجد قبور.

### معنى اتخاذ القبور مساجد

قال الألبانى (١): الذى يمكن أن يفهم من هذا الاتخاذ، إنما هو ثلاث معان:

الأول: الصلاة على القبور، بمعنى السجود عليها.

الثانى: السجود إليها واستقبالها بالصلاة والدعاء.

الثالث: بناء المساجد عليها، وقصد الصلاة فيها.

### أقوال العلماء فى معنى الإتيان المذكور

وبكل واحد من هذه المعانى قال طائفة من العلماء، وجاءت بها نصوص صريحة عن سيد الأنبياء ﷺ.

أما الأول: فقال ابن حجر الهيتمى فى «الزواجر» (٢).

«واتخاذ القبر مسجداً معناه الصلاة عليه، أو إليه».

فهذا نص منه على أنه يفهم الاتخاذ المذكور شاملاً لمعنيين، أحدهما الصلاة على القبر.

وقال الصنعانى فى «سبل السلام» (٣): «واتخاذ القبور مساجد أعم من أن يكون بمعنى الصلاة إليها، أو بمعنى الصلاة عليها».

قلت - الألبانى -: يعنى أنه يعم المعنيين كليهما، ويحتمل أنه أراد المعانى الثلاثة، وهو الذى فهمه الإمام الشافعى - رحمه الله - وسيأتى نص كلامه فى ذلك. ويشهد للمعنى الأول أحاديث.

(١) عن أبى سعيد الخدرى: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يبنى على القبور، أو يقعد عليها، أو يصلى عليها» (٤).

(١) من تحذير الساجد بتصرف للشيخ الألبانى - رحمه الله - وقد توفى أثناء مراجعة هذا الكتاب أيضاً فى شهر جمادى الآخر.

(٢) السبل (١/١٢١).

(٣) السبل (١/٢١٤).

(٤) ذكره بهذا اللفظ الهيتمى فى «المجمع» (٣/٦١) ونسبه لأبى يعلى وقال: رجال ثقات.

(٢) عن ابن عباس قوله ﷺ: «لاتصلوا إلى قبر، ولا تصلوا على قبر» (١).

(٣) عن أنس: أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور (٢).

(٤) عن عمرو بن دينار - وسئل عن الصلاة وسط القبور قال: ذكر لي أن النبي

ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فلعنهم الله تعالى» (٣).

أما المعنى الثاني: فقال: المناوي في «فيض القدير» حيث شرح الحديث الثالث المتقدم:

«أى اتخذوها جهة قبلتهم، مع اعتقادهم الباطل، وإن اتخذوها مساجد، لازم (٤)

لاتخاذ المساجد عليها كعكسه، وهذا بين به سبب لعنهم لما فيه من المغالاة في التعظيم.

قال القاضى (يعنى البيضاوى): لما كانت اليهود يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً

لشأنهم، ويجعلونها قبلة ويتوجهون في الصلاة نحوها، فاتخذوها أوثاناً لعنهم الله،

ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه . . . .».

قلت - الألبانى -: وهذا المعنى قد جاء النهى الصريح عنه، فقال ﷺ: «لا تجلسوا على

القبور، ولا تصلوا إليها» (٥).

قال على القارى في «المراقبة» (٦) معلقاً النهى: «لما فيه من التعظيم البالغ كأنه من

مرتبة العبود، ولو كان هذا التعظيم حقيقة للقبر أو لصاحبه لكفر المعظم، فالتشبه به

مكروه، وينبغى أن تكون كراهة تحريم. وفي معناه بل أولى منه الجنازة الموضوع (يعنى

في قبلة المصلين)، وهو مما ابتلى به أهل مكة حيث يضعون الجنازة عند الكعبة ثم

يستقبلون إليها».

قلت - الألبانى -: يعنى في صلاة الفريضة وهذا بلاء عام قد تعداه إلى بلاد الشام

والأناضول وغيرها، وقد وقفنا منذ شهر على صورة شمسية قيحة جداً تمثل صفاً من

المصلين ساجدين تجاه نعوش مصفوفة أمامهم فيها جثث جماعة من الأتراك كانوا ماتوا

غرقاً في باخرة.

(١) أخرجه الطبرانى في «المعجم الكبير» (٢/٣٧٦/١٢٠٥١) عن ابن عباس به.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤/٣٢ - الإحسان).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٥٩١).

(٤) يعنى: يلزم من السجود إليها بناء المساجد عليها، كما يلزم من بناء المساجد عليها السجود إليها

وهذا أمر واقع مشاهد.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز (٤/٤٤/٩٨) عن أبى مرثد به.

(٦) (٢/٣٧٢).



وبهذه المناسبة نلفت النظر إلى أن الغالب من هديه ﷺ هو الصلاة على الجنائز في «المصلى» خارج المسجد، ولعل من حكمة ذلك إبعاد المصلين عن الوقوع في مثل هذه المخالفة التي نبه عليها العلامة القارى رحمه الله .

ونحو الحديث السابق ما روى ثابت البنانى عن أنس رضى الله عنه قال: «كنت أصلى قريباً من قبر، فرأى عمر بن الخطاب، فقال: القبر القبر. فرفعت بصرى إلى السماء وأنا أحسبه يقول: القمر!» (١) .

وأما المعنى الثالث: فقد قال به الإمام البخارى فإنه ترجم للحديث الأول بقوله «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور» .

فقد أشار بذلك إلى أن النهى عن اتخاذ القبر مسجداً يلزم منه النهى عن بناء المسجد عليه، هذا أمر واضح، وقد صرح به المناوى كما سبق آنفاً .

وقال الحافظ ابن حجر فى شرح الحديث: هى المقصودة بالبناء، وكذلك إذا نهى عن بناء المساجد على القبور، فهو ينهى ضمناً عن الصلاة فيها؛ لأنها هى المقصودة بالبناء أيضاً، وهذا بين لا يخفى على العاقل إن شاء الله تعالى اهـ .

ترجيح شمول الحديث للمعاني كلها وقول الشافعى بذلك .

وجملة القول: أن الاتخاذ المذكور فى الأحاديث المتقدمة يشمل كل هذه المعانى الثلاثة، فهو من جوامع كلمه ﷺ، وقد قال بذلك الإمام الشافعى - رحمه الله .  
- فى كتابه «الأم» (٢) مانصه .

«وأكره أن يبني على القبر مسجد، وأن يسوى، وأن يصلى عليه، وهو غير مسوى (يعنى أنه ظاهر معروف) أو يصلى إليه .

قال: وإن صلى إليه أجزاءه وقد أساء، أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . قال: وأكره هذا للسنة والآثار، وأنه كره - والله تعالى أعلم - أن يعظم أحد من المسلمين، يعنى يتخذ قبره مسجداً، ولم تؤمن فى ذلك الفتنة والضلال على ما يأتى بعده» .

(١) علقه البخارى (١/٦٢٥ - فتح) ووصله عبدالرزاق فى «مصنفه». (١٥٨١).

(٢) (١/٢٤٦).

فقد استدل بالحديث على المعانى الثلاثة التى ذكرها فى سياق كلامه، فهو دليل واضح على أنه يفهم الحديث على عمومه.

وكذلك صنع المحقق الشيخ على القارى نقلاً عن بعض أئمة الحنفية فقال.

«سبب لعنهم: إما لأنهم كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيماً لهم، وذلك هو الشرك الجلى، وإما لأنهم كانوا يتخذون الصلاة لله تعالى فى مدافن الأنبياء والسجود على مقابرهم، والتوجه إلى قبورهم حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة فى تعظيم الأنبياء، وذلك هو الشرك الخفى لتضمنه ما يرجع إلى تعظيم مخلوق فيما لم يؤذن له، فهى النبى ﷺ أمته عن ذلك إما لمشابهة ذلك الفعل سنة اليهود، أو لتضمنه الشرك الخفى. كذا قاله بعض الشراح من أئمتنا، ويؤيده ما جاء فى رواية: «يحذر ما صنعوا».

قال الألبانى: والسبب الأول الذى ذكره، وهو السجود لقبور الأنبياء تعظيماً لهم وإن كان غير مستبعد حصوله من اليهود والنصارى، فإنه غير متبادر من قوله ﷺ: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فإن ظاهره انهم اتخذوها مساجد لعبادة الله فيها على المعانى السابقة تبركاً بمن دفن فيها من الأنبياء، وإن كان هذا أدى بهم - كما يؤدى بغيرهم - إلى وقوعهم فى الشرك الجلى الذى ذكره الشيخ القارى<sup>(١)</sup>.

حكم اتخاذ القبور مساجد وبيان أن ذلك من الكبائر.

اتخاذ المساجد على القبور من الكبائر.

قال الألبانى<sup>(٢)</sup>: بعد أن تبين لنا معنى الاتخاذ الوارد فى الأحاديث المتقدمة، يحسن بنا أن نقف قليلاً عند هذه الأحاديث لتتعرف منها حكم الاتخاذ المذكور، مسترشدين فى ذلك بما ذكره العلماء حوله فأقول:

إن كل من يتأمل فى تلك الأحاديث الكريمة يظهر له بصورة لا شك فيها أن الاتخاذ المذكور حرام، بل كبيرة من الكبائر، لأن اللعن الوارد فيها، ووصف المخالفين بأنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى، لا يمكن أن يكون فى حق من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى.

مذهب العلماء فى ذلك

وقد اتفقت المذاهب الأربعة على تحريم ذلك، ومنهم من صرح بأنه كبيرة، وإليك تفاصيل المذاهب فى ذلك.

(٢) تحذير الساجد بتصرف.

(١) مرقاة المفاتيح (٤٥٦/١).

## ١- مذهب الشافعية : أنه كبيرة

قال الفقيه ابن حجر الهيتمي في «الزواجر عن اقتراف الكبائر»<sup>(١)</sup>: «الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واتخاذها أوثاناً، والطواف بها، واستلامها، والصلاة إليها». ثم ساق بعض الأحاديث المتقدمة وغيرها ثم قال (٢).

«تنبيه»: عد هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية، وكأنه أخذ ذلك مما ذكرته من الأحاديث، ووجه اتخاذ القبر مسجداً منها واضح، لأنه لعن من فعل ذلك بقبور أنبيائه، وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شر الخلق عند الله تعالى يوم القيامة، ففيه تحذير لنا كما في رواية: «يحذر ما صنعوا» أى يحذر أمته بقوله لهم ذلك من أن يصنعوا كصنع أولئك، فيلعنوا كما لعنوا، ومن ثم قال أصحابنا: تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركاً وإعظماً، ومثلها الصلاة عليه للتبرك والإعظام، وكون هذا الفعل كبيرة ظاهر من الأحاديث المذكورة لما علمت، قال بعض الحنابلة:

قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركاً به عين المحادة لله ورسوله، وابتداع دين لم يؤذن به الله، لئلهي عنها تم إجماعاً، فإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، أو بناؤها عليها والقول بالكراهة محمول على غير ذلك، إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي ﷺ لعن فاعله، ويجب المبادرة لهدمها، وهدم القباب التي على القبور إذ هي أضر من مسجد الضرار، لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ، لأنه نهى عن ذلك، وأمر رسول الله ﷺ بهدم القبور المشرفة، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر، ولا يصح وقفه ونذره. انتهى».

هذا كله كلام الفقيه ابن حجر الهيتمي، وأقره عليه المحقق الألوسى في «روح المعاني»<sup>(٣)</sup>، وهو كلام يدل على فهم وفقه فى الدين، وقوله فيما نقله عن بعض الحنابلة:

«والقول بالكراهة محمول على غير ذلك».

كأنه يشير إلى قول الشافعى «وأكره أن يبني على القبر مسجد... الخ كلامه الذى نقلته بتمامه فيما سبق.

(١) (١٢٠/١)

(٢) (ص: ١١١).

(٣) (٣١/٥).

## ٢ - مذهب الحنفية الكراهة التحريمية.

والكراهة بهذا المعنى الشرعى قد قال به هنا الحنفية فقال الإمام محمد تلميذ أبى حنيفة فى كتابه «الأثار»<sup>(١)</sup>.

«لانرى أن يزداد على ما خرج من القبر، ونكره أن يجصص أو يطين أو يجعل عنده مسجداً».

والكراهة عند الحنفية إذا أطلقت فهى للتحريم، كما هو معروف لديهم، وقد صرح بالتحريم فى هذه المسألة ابن الملك منهم كما يأتى.

## ٣ - مذهب المالكية التحريم

وقال القرطبى فى تفسيره<sup>(٢)</sup> بعد أن ذكر الحديث الخامس: «قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد».

## ٤ - مذهب الحنابلة التحريم.

ومذهب الحنابلة التحريم أيضاً كما فى «شرح المنتهى»<sup>(٣)</sup> وغيره، بل نص بعضهم على بطلان الصلاة فى المساجد المبنية على القبور، ووجوب هدمها.

فقال ابن القيم فى «زاد المعاد»<sup>(٤)</sup> فى صدد بيان ما تضمنته غزوة تبوك من الفقه والفوائد، وبعد أن ذكر قصة مسجد الضرار الذى نهى الله تبارك وتعالى نبيه أن يصلى فيه، وكيف أنه ﷺ هدمه وحرقه قال: «ومنها تحريق أمكنة المعصية التى يعصى الله ورسوله فيها، وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، وأمر بهدمه وهو مسجد يصلى فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام<sup>(٥)</sup>. تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار؛ فمشاهد الشرك التى تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بذلك، كما لم يصح وقف هذا المسجد، وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بنى على قبر كما ينبش الميت إذا دفن فى المسجد نص على ذلك الإمام أحمد وغيره.

(١) (ص: ٤٥).

(٢) (٣٥٣/١).

(٣) (٣٨/١٠).

(٤) (٢٢/٣).

(٥) قلت - الألبانى -: مفهوم هذا أن ذلك لا يجب على غير الإمام. ومثله من ينوب عنه، وهذا هو الذى يقتضيه النظر الصحيح، لأنه لو قام به غيره لترتب على ذلك مفسد وقتن بين المسلمين قد تكون أكبر من المصلحة التى يراد جلبها.

فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طراً على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعاً معاً لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهى رسول الله ﷺ عن ذلك ولعنه من اتخذ القبر مسجداً، أو أوقد عليه سراجاً<sup>(١)</sup> فهذا دين الإسلام الذى بعث الله به رسوله ونبيه، وغرخته بين الناس كما ترى!».

فتبين مما نقلناه عن العلماء أن المذاهب الأربعة متفقة على ما أفادته الأحاديث المتقدمة، من تحريم بناء المساجد على القبور. وقد نقل اتفاق العلماء على ذلك أعلم الناس بأقوالهم ومواضع اتفاقهم واختلافهم، ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد سئل رحمه الله بما نصه:

«هل تصح الصلاة في المسجد إذا كان فيه قبر؛ والناس تجتمع فيه لصلاتي الجماعة والجمعة أم لا؟ وهل يمهد القبر، أو يعمل عليه حاجز أو حائط؟ فأجاب:

الحمد لله، اتفق الأئمة انه لا يبنى مسجد على قبر، لأن النبي ﷺ قال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فاني أنهاكم عن ذلك»، وأنه لا يجوز دفن ميت في مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غير، إما بتسوية القبر، وإما بنشه إن كان جديداً، وإن كان المسجد بنى بعد القبر، فإما أن يزال المسجد وإما تزال صورة القبر، فالمسجد الذى على القبر لا يصلى فيه فرض ولا نفل، فإنه منهى عنه» كذا فى الفتاوى له<sup>(٢)</sup>.

وقد تبنت دار الإفتاء فى الديار المصرية فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية هذه، فنقلتها عنه فى فتوى لها أصدرتها تنص على عدم جواز الدفن فى المسجد، فليراجعها من شاء فى «مجلة الأزهر»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن تيمية فى «الاختيارات العلمية»<sup>(٤)</sup>.

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٢٩/١)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والترمذى (٣٢٠)، والنسائى (٩٤/٤ - السيوطى)، وابن ماجه (١٥٧٥) عن ابن عباس به.

وانظر «السلسيل» (٩٤٣ - بتخريننا).

(٢) (١٠٧/١) (١٩٢/٢).

(٣) (١١/ص: ٥٠١ - ٥٠٣) وفى المجلة نفسها مقال آخر فى تحريم البناء على القبور مطلقاً فانظر

(مجلة سنة ١٩٣٠ ص ٣٥٩ - ٣٦٤).

(٤) (ص: ٥٢).

«ويحرم الإسراج على القبور، واتخاذ المساجد عليها، وبينها، ويتعين إزالتها، ولا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين».

ونقله ابن عروة الحنبلي في «الكواكب الدراري»<sup>(١)</sup>. وأقره.

وهكذا نرى أن العلماء كلهم اتفقوا على ما دلت الأحاديث من تحريم اتخاذ المساجد على القبور، فنحذر المؤمنين من مخالفتهم، والخروج عن طريقتهم، خشية أن يشملهم وعيد قوله عز وجل ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾<sup>(٢)</sup>.

و﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾<sup>(٣)</sup>.

قوله: «يحذر ما صنعوا»: وفي لفظ «يحذر مثل الذي صنعوا».

قال القرطبي: في معنى هذا الحديث وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. اهـ.

قال عبد الرحمن آل شيخ<sup>(٤)</sup>: الظاهر: أن هذا من كلام عائشة -رضى الله عنها - لأنها فهمت من قول النبي - ﷺ - ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم فإنه من الغلو في الأنبياء، ومن أعظم الوسائل - إلى الشرك.

قال ابن عثيمين<sup>(٥)</sup>: أى إنه - ﷺ - قال ذلك فى سياق الموت تحذيراً لأمته مما صنع هؤلاء لأنه علم أنه سيموت وأنه ربما يحصل هذا ولو فى المستقبل البعيد.

قال أيضاً<sup>(٦)</sup>: فى هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وهم أفضل الصالحين، لأن مرتبة النبيين هى المرتبة الأولى من المراتب الأربع

(١) (١/١٤٤/٢).

(٢) سورة النساء: الآية ١١٥.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٤) فتح المجيد ٢٩٤، ٢٩٥.

(٥) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٦) القول المفيد ١/ ٥١٢.

التي قال الله تعالى عنها: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

### شبهة: دخول قبر الرسول ﷺ داخل المسجد

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول - ﷺ - الآن، فإنه في وسط المسجد؛ فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه.

الوجه الأول: أن المسجد لم يبن على القبر، بل بُنى المسجد في حياة النبي ﷺ .

الوجه الثاني: أن النبي - ﷺ - لم يدفن في المسجد، حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أن إدخال بيوت الرسول - ﷺ - ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس بإتفاق من الصحابة بل بعد أن انقضى أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل. وذلك عام ٩٤ هـ تقريباً، فليس مما أجازته الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أن بعضهم خالف في ذلك، ومَن خالف أيضاً سعيد بن المسيب من التابعين؛ فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع: أن القبر ليس في المسجد، حتى بعد إدخاله؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد؛ فليس المسجد مبنياً عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظاً ومحوطاً بثلاثة جدران، وجعل الجدران في زاوية منحرفة عن القبلة، أي مثلث، والركن في الزاوية الشمالية. بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف.

قلت: وذكر نحو ذلك النووي في مسلم<sup>(١)</sup>.

فهذا كلة يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه، فنقول: إن الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين، وليس محل إجماع وعلى فرض أنه إجماع فقد تبين الفرق من الوجوه الأربعة التي ذكرناها. اهـ.

(١) (١٧/٣).

قال الألباني (١): قد يقول قائل: إذا كان من المقرر شرعاً تحريم بناء المساجد على القبور، فهناك أمور كثيرة تدل على خلاف ذلك وإليك بيانها:

أولاً: قوله تبارك وتعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ (٢)، ووجه دلالة الآية على ذلك: أن الذين قالوا هذا القول كانوا نصارى، على ما هو مذكور في كتب التفسير، فيكون اتخاذ المسجد على القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله تعالى، ولم يعقبها بما يدل على ردها كما في هذه الآية الكريمة.

ثانياً: كون قبر النبي ﷺ في مسجده الشريف، ولو كان ذلك لا يجوز لما دفنوه ﷺ في مسجده!

ثالثاً (\*): زعم بعضهم أن المنع من اتخاذ القبور مساجد إنما كان لعلة خشية الافتتان بالمقبور، ثم زالت برسوخ التوحيد في قلوب المؤمنين، فزال المنع!

فكيف التوفيق بين هذه الأمور وبين التحريم المذكور؟

وجواباً على ذلك أقول وبالله تعالى أستعين:

الجواب عن الشبهة الأولى:

سيأتى الجواب عليها مفصلاً في الباب الثاني والعشرون (ما جاء أن بعض هذه الآية تعبد الأوثان) فيه ذكر المصنف فيه آية سورة الكهف المذكورة هنا. والله الموفق للصواب.

وأما الشبهة الثانية وهي أن قبر النبي ﷺ في مسجده كما هو مشاهد اليوم، ولو كان ذلك حراماً لم يدفن فيه!

والجواب: أن هذا وإن كان هو المشاهد اليوم، فإنه لم يكن كذلك في عهد الصحابة رضی الله عنهم، فإنهم لما مات ﷺ دفنوه في حجرته التي كانت بجانب مسجده، وكان يفصل بينهما جدار فيه باب، كان ﷺ يخرج منه إلى المسجد، وهذا أمر معروف مقطوع به عند العلماء، ولا خلاف في ذلك بينهم، والصحابة رضی الله عنهم حينما دفنوه ﷺ في الحجرة، إنما فعلوا ذلك كي لا يتمكن أحد بعدهم من اتخاذ قبره مسجداً، كما سبق

(١) من تحذير الساجد وحاشيته بتصرف.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢١.

(\* وبترتيب الألباني (السادسة)



بيانه فى حديث عائشة وغيره. ولكن وقع بعدهم مالم يكن فى حسابانهم! ذلك أن الوليد بن عبد الملك أمر سنة ثمان وثمانين بهدم المسجد النبوى وإضافة حجر أزواج رسول الله ﷺ إليه، فأدخل فيه الحجرة النبوية حجرة عائشة، فصار القبر بذلك فى المسجد<sup>(١)</sup> ولم يكن فى المدينة المنورة أحد من الصحابة حينذاك خلافاً لما توهم بعضهم. قال العلامة الحافظ محمد بن عبد الهادى فى «الصارم المنكى»<sup>(٢)</sup>.

«وإنما أدخلت الحجرة فى المسجد فى خلافة الوليد بن عبد الملك، بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وكان من آخرهم موتاً جابر بن عبد الله، وتوفى فى خلافة عبد الملك، فإنه توفى سنة ثمان وسبعين، والوليد تولى سنة ست وثمانين، وتوفى سنة ست وتسعين، فكان بناء المسجد وإدخال الحجرة فيه فيما بين ذلك<sup>(٣)</sup>، وقد ذكر أبو يزيد عمر بن شبة النيمى فى «كتاب أخبار المدينة» مدينة الرسول ﷺ عن أشياخه عن حدثوا عنه أن عمر بن عبد العزيز لما كان نائباً للوليد على المدينة فى سنة إحدى وتسعين هدم المسجد وبناه بالحجارة المنقوشة، وعمل سقفه بالساج، وماء الذهب، وهدم حجرات أزواج النبى ﷺ فأدخلها فى المسجد وأدخل القبر فيه».

(١) تاريخ ابن جرير (٢٢٢/٥ - ٢٢٣) وتاريخ ابن كثير (٧٤/٩ - ٧٥).

(٢) (ص: ١٣٦).

(٣) قال الألبانى: وإنما لم يسم الحافظ ابن عبد الهادى السنة التى وقع فيها ذلك لأنها لم ترد فى رواية ثابتة على طريقة المحدثين، وما نقلناه عن ابن جرير هو من رواية الواقدى وهو متهم، ورواية ابن شبة الآتية فى كلام الحافظ ابن عبد الهادى مدارها على مجاهيل، وهم عن مجهول! كما هو ظاهر، فلا حجة فى شىء من ذلك، وإنما العمدة على اتفاق المؤرخين على أن إدخال الحجرة إلى المسجد كان فى ولاية الوليد، وهذا القدر كاف فى إثبات أن ذلك كان بعد موت الصحابة الذين كانوا فى المدينة حسبما بينه الحافظ، لكن يعكر عليه ما رواه أبو عبد الله الرازى فى مشيخته (١/٢١٨) عن محمد بن الربيع الجيزى: «توفى سهل بن سعد بالمدينة وهو ابن مائة سنة وكانت وفاته سنة إحدى وتسعين وهو آخر من مات بالمدينة من أصحاب النبى ﷺ. لكن الجيزى هذا لم أعرفه ثم هو معضل، وقد ذكر مثله الحافظ ابن حجر فى «الإصابة» (٨٧/٢) عن الزهرى من قوله فهو معضل أيضاً أو مرسل، ثم عقبه بقوله: «وقيل قبل ذلك، وزعم ابن أبى داود أنه مات بالاسكندرية»، وجزم فى «التقريب» أنه مات سنة ٨٨. فالله أعلم.

وخلاصة القول: أنه ليس لدينا نص تقوم به الحجة على أن أحداً من الصحابة كان فى عهد عملية التغيير هذه، فمن ادعى خلاف ذلك فعليه الدليل، فما جاء فى شرح مسلم<sup>(١٣/٥ - ١٤)</sup> أن ذلك كان فى عهد الصحابة، لعل مستنده تلك الرواية المعضلة أو المرسل، وبمثلها لا تقوم حجة، على أنها أخص من الدعوى، فإنها لو صحت إنما تثبت وجود واحد من الصحابة حينذاك، لا (الصحابة).

وأما قول بعض من كتب فى هذه المسألة بغير علم:

= «فمسجد النبي ﷺ منذ وسعه عثمان رضى الله عنه وأدخل فى المسجد ما لم يكن منه، فصارت القبور الثلاثة محاطة بالمسجد لم ينكر أحد من السلف ذلك».

فمن جهالاتهم التى لا حدود لها - ولا أريد أن أقول إنه من افتراءاتهم - فإن أحداً من العلماء لم يقل إن إدخال القبور الثلاثة كان فى عهد عثمان رضى الله عنه، بل اتفقوا على أن ذلك كان فى عهد الوليد بن عبد الملك كما سبق، أى بعد عثمان بنحو نصف قرن ولكنهم يهرفون بما لا يعرفون ذلك لأن عثمان رضى الله عنه فعل خلاف ما نسبوا إليه، فإنه لما وسع المسجد النبوى الشريف احترز من الوقوع فى مخالفة الأحاديث المشار إليها، فلم يوسع المسجد من جهة الحجرات، ولم يدخلها فيه، وهذا عين ما صنعه سلفه عمر بن الخطاب رضى الله عنهم جميعاً، بل أشار هذا إلى أن التوسيع من الجهة المشار إليها فيه المحذور المذكور فى الأحاديث المتقدمة كما سيأتى ذلك عنه قريباً.

وأما قولهم: «ولم ينكر أحد من السلف ذلك».

فتقول: وما أدراكم بذلك؟! فإن من أصعب الأشياء على العقلاء إثبات نفى شيء يمكن أن يقع ولم يعلم، كما هو معروف عند العلماء، لأن ذلك يستلزم الاستقراء التام والإحاطة بكل ما جرى، وما قيل حول الحادثة التى يتعلق بها الأمر المراد نفيه عنها، وأنى لمثل هذا البعض المشار إليه أن يفعلوا ذلك لو استطاعوا، ولو أنهم راجعوا بعض الكتب لهذه المسألة لما وقعوا فى تلك الجهالة الفاضحة، لوجود ما يحملهم على أن لا ينكروا ما لم يحيطوا بعلمه، فقد قال الحافظ ابن كثير فى تاريخه (ص ٧٥ ج ٩) بعد أن ساق قصة إدخال القبر النبوى فى المسجد: «ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة فى المسجد كأنه خشى أن يتخذ القبر مسجداً».

وأنا لا يهمنى كثيراً صحة هذه الرواية، أو عدم صحتها، لأننا لا نبني عليها حكماً شرعياً، لكن الظن بسعيد بن المسيب وغيره من العلماء الذين أدركوا ذلك التغيير، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، لمنافاته تلك الأحاديث المتقدمة مناقاة بيته، وخاصة منها رواية عائشة التى تقول: «فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً» فما خشى الصحابة رضى الله عنهم قد وقع - مع الأسف الشديد - بإدخال القبر فى المسجد، إذ لا فارق بين أن يكونوا دفنوه ﷺ حين مات فى المسجد، وحاشاهم عن ذلك - وبين ما فعله الذين بعدهم من إدخال قبره فى المسجد بتوسيعه، فالمحذور حاصل على كل حال كما تقدم عن الحافظ العراقى، وشيخ الإسلام ابن تيمية، ويؤيد هذا الظن أن سعيد بن المسيب أحد رواة الحديث الثانى كما سبق، فهل اللاتق بمن يعترف بعلمه وفضله وجرأته فى الحق أن يُظن به أنه أنكر على من خالف الحديث الذى هو أحد رواته، أم أن ينسب إليه عدم إنكاره ذلك، كما زعم هؤلاء المشار إليهم حين قالوا: «لم ينكر أحد من السلف ذلك»!

والحقيق أن قولهم هذا يتضمن طعناً ظاهراً - لو كانوا يعلمون - فى جميع السلف، لأن إدخال القبر إلى المسجد منكر ظاهر عند كل من علم بتلك الأحاديث المتقدمة وبمعانيها، ومن المحال أن ننسب إلى جميع السلف جهلهم بذلك، فهم، أو على الأقل بعضهم يعلم ذلك يقيناً، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من القول بأنهم أنكروا ذلك، ولو لم نقف فيه على نص، لأن التاريخ لم يحفظ لنا كل ما وقع، فكيف يقال: إنهم لم ينكروا ذلك؟! اللهم غفرا.

ومن جهالتهم قولهم عطفاً على قولهم السابق:

قال الألباني<sup>(١)</sup>: يتبين لنا مما أوردناه أن القبر الشريف إنما أدخل إلى المسجد النبوي حين لم يكن في المدينة أحد من الصحابة وأن ذلك كان على خلاف غرضهم الذي رموا إليه حين دفنوه في حجرته ﷺ، فلا يجوز لمسلم بعد أن عرف هذه الحقيقة أن يحتج بما

«وكذا مسجد بنى أمية منذ دخل المسلمون دمشق من الصحابة وغيرهم والقبر ضمن المسجد لم ينكر أحد ذلك!»

إن منطق هؤلاء عجيب غريب! إنهم ليتوهمون أن كل ما يشهدونه الآن في مسجد بنى أمية كان موجوداً في عهد منشته الأول الوليد بن عبد الملك، فهل يقول بهذا عاقل؟! كلا لا يقول ذلك غير هؤلاء! ونحن نقطع ببطلان قولهم، وأن أحداً من الصحابة والتابعين لم ير قبراً ظاهراً في مسجد بنى أمية أو غيره، بل غاية ما جاء في بعض الروايات عن زيد بن واقد أنهم في أثناء العمليات ووجدوا مغارة فيها صندوق فيه سفت. (وعاء كالقفة) وفي السفت رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه: هذا رأس يحيى عليه السلام، فأمر به الوليد فرد إلى المكان وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من الأعمدة، فجعل عليه = عمود مسبك مسفت الرأس. رواه أبو الحسن الربيعي في «فضائل الشام» (٣٣) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه (ج ٢ ق ١ ص ٩-١٠). وإسناده ضعيف جداً، فيه إبراهيم بن هشام الغساني كذب أبو حاتم وأبو زرعة، وقال الذهبي «متروك». ومع هذا فإنا نقطع أنه لم يكن في المسجد صورة قبر حتى أواخر القرن الثاني لما أخرجه الربيعي وابن عساكر عن الوليد بن مسلم أنه سئل أين بلغك رأس يحيى بن زكريا؟ قال: بلغني أنه ثم، وأشار بيده إلى العمود المسفت الرابع من الركن الشرقي، فهذا يدل على أنه لم يكن هناك قبر في عهد الوليد بن مسلم وقد توفي سنة أربع وتسعين ومائة.

وأما كون ذلك الرأس هو رأس يحيى عليه السلام فلا يمكن إثباته، ولذلك اختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً، وجمهورهم على أن رأس يحيى عليه السلام مدفون في مسجد حلب ليس في مسجد دمشق، كما حققه شيخنا في الاجازة العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ في بحث له نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ج ١ ص ٤١ - ١٤٨٢) تحت عنوان «رأس يحيى ورأس زكريا» فليراجعه من شاء.

ونحن لا يهمنا من الوجهة الشرعية ثبوت هذا أو ذاك، وسواء عندنا أكان الرأس الكريم في هذا المسجد أو ذاك، بل لو تيقنا عدم وجوده في كل من المسجدين، فوجود صورة القبر فيهما كاف في المخالفة، لأن أحكام الشريعة المطهرة إنما تبنى على الظاهر، لا الباطن كما هو معروف، وسيأتى ما يشهد لهذا من كلام بعض العلماء، وأشد ما تكون المخالفة إذا كان القبر في قبلة المسجد، كما هو الحال في مسجد حلب، ولا منكر لذلك من علمائها!

واعلم أنه لايجدى في رفع المخالفة أن القبر في المسجد ضمن مقصورة كما زعم مؤلفوا الرسالة، لأنه على كل حال ظاهر، ومقصود من العامة وأشباههم من الخاصة بما لايقصد به إلا الله تعالى؛ من التوجه إليه، والاستغاثة به من دون الله تبارك وتعالى، فظهور القبر هو سبب المحذور كما سيأتى عن النووي رحمه الله.

وخلاصة الكلام أن قول من أشرنا إليهم أن قبر يحيى عليه السلام كان ضمن المسجد الأموي منذ دخل دمشق الصحابة وغيرهم لم ينكر ذلك أحد منهم إن هو إلا محض اختلاق!

(١) تحذير الساجد (٦٤).

وقع بعد الصحابة، لأنه مخالف للأحاديث الصحيحة وما فهم الصحابة والأئمة منها كما سبق بيانه، وهو مخالف أيضاً لصنيع عمر وعثمان حين وسعا المسجد ولم يدخلوا القبر فيه، ولهذا نقطع بخطأ ما فعله الوليد بن عبد الملك عفا الله عنه، ولئن كان مضطراً إلى توسيع المسجد، فإنه كان باستطاعته أن يوسعه من الجهات الأخرى دون أن يتعرض للحجرة الشريفة، وقد أشار عمر بن الخطاب إلى هذا النوع من الخطأ حين قام هو رضى الله عنه بتوسيع المسجد من الجهات الأخرى ولم يتعرض للحجرة، بل قال: «إنه لا سبيل إليها»<sup>(١)</sup>، فأشار رضى الله عنه إلى المحذور الذى يتربص من جراء هدمها وضمها إلى المسجد.

ومع هذه المخالفة الصريحة للأحاديث المتقدمة وسنة الخلفاء الراشدين، فإن المخالفين لما أدخلوا القبر النبوى فى المسجد الشريف احتاطوا للأمر شيئاً ما، فحاولوا تقليل المخالفة ما أمكنهم. قال النووى<sup>(٢)</sup> فى «شرح مسلم».

«ولما احتاجت الصحابة<sup>(٣)</sup> والتابعون إلى الزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها مدفون رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر فى المسجد<sup>(٤)</sup>، فيصلى إليه العوام،

(١) انظر «طبقات ابن سعد» (٢١/٤) و«تاريخ دمشق» لابن عساکر (٢/٤٧٨/٨) وقال السيوطى فى «الجامع الكبير» (٢/٢٧٢/٣): «وسنده صحيح إلا أن سالماً أبى النضر لم يدرك عمر، و«وفاء الوفا» للسهودى (٣/٤٣١) و«المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية» للعلامة محمد سلطان المعصومى رحمه الله تعالى (ص٤٣) وهو مؤلف رسالة «هدية السلطان إلى بلاد اليابان» التى ادعى أحد الدكاترة أنها ليست له، وإنما لبعض إخواننا! مع أننى تناولتها منه هدية مطبوعة حين زرتة فى داره فى مكة فى حجتى الأولى سنة ١٣٦٨هـ.

(٢) (١٤/٥).

(٣) عزو هذا إلى الصحابة لا يثبت.

(٤) فى هذا دليل واضح على أن ظهور القبر فى المسجد ولو من وراء النوافذ والحديد والأبواب لا يزيل المحذور، كما هو الواقع فى قبر يحيى عليه السلام فى مسجد بنى أمية فى دمشق وحلب، ولهذا نص أحمد على أن الصلاة لا تجوز فى المسجد الذى قبلته إلى القبر، حتى يكون بين حائط المسجد وبين المقبرة حائل آخر، كما سيأتى، فكيف إذا كان القبر فى قبلة المسجد من الداخل ودون جدار حائل؟ ومن ذلك تعلم أن قول بعضهم: «إن الصلاة فى المسجد الذى به قبر كمسجد النبى ﷺ ومسجد بنى أمية لا يقال إنها صلاة فى الجبانة، فالقبر ضمن مقصورة مستقل بنفسه عن المسجد، فما المانع من الصلاة فيه».

فهذا قول لم يصدر عن علم وفقه! لأنه المانع بالنسبة للمسجد الأموى لا يزال قائماً وهو ظهور القبر=

ويؤدى الى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر».

ونقل الحافظ ابن رجب فى «الفتح» نحوه عن القرطبى كما فى «الكواكب»<sup>(١)</sup>، وذكر ابن تيمية فى «الجواب الباهر»<sup>(٢)</sup>.

«أن الحجرة لما أدخلت إلى المسجد سدُ بابها، وبنى عليها حائط آخر، صيانة له ﷺ أن يتخذ بيته عيداً، وقبره وثناً».

قلت: ومما يؤسف له أن هذا البناء قد بنى عليه منذ قرون - إن لم يكن قد أزيل - تلك القبة الخضراء العالية، وأحيط القبر الشريف بالنوافذ النحاسية والزخارف والتنجف، وغير ذلك مما لا يرضاه صاحب القبر نفسه ﷺ.

= من وراء المقصورة، والدليل على ذلك قصد الناس للقبر والدعاء عنده وبه والاستغاثة به من دون الله، وغير ذلك مما لا يرضاه الله، والشارح الحكيم إنما نهى عن بناء المساجد على القبور سداً للذريعة ومنعاً لمثل هذه الأمور التى تقع عند هذا القبر كما سيأتى بيانه، فما قيمة هذه المقصورة حينئذ مع وقوع هذه المنكرات وغيرها عند القبر؟! بل إن إحاطة القبر بهذه المقصورة على هذا الشكل المزخرف، إنما هى نوع آخر من المنكر الذى يحمل الناس على معصية الله ورسوله، وتعظيم صاحب القبر بما لا يجوز شرعاً، مما هو مشاهد معروف، وسبقت الإشارة إلى بعضه.

ثم ألا يكفى فى إثبات المانع أن الناس يستقبلون القبر عند الصلاة قصداً وبدون قصد، ولعل أولئك المشار إليهم وأمثالهم يقولون: لآمانع أيضاً من هذا الاستقبال لوجود فاصل بين المصلين والقبر ألا وهو نوافذ القبر وشبكته النحاسية! فنقول لو كان هذا المانع كافياً فى المنع لما أحاطوا القبر النبوى الشريف بجدار مرتفع مستدير، ولم يكتفوا بذلك، بل بنوا جدارين يمنعون بهما من استقبال القبر. ولو كان وراء الجدار المستدير! وقد صح عن ابن جريج أنه قال: قلت لعطاء: أكره أن تصلى فى وسط القبور؟ أو فى مسجد إلى قبر؟ قال: نعم، كان ينهى عن ذلك. أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١/٤٠٤/١٥٧٩). فإذا كان هذا التابعى الجليل (عطاء بن أبى رباح) لم يعتبر جدار المسجد فاصلاً بين المصلى وبين القبر وهو خارج المسجد، فهل يعتبر فاصلاً النوافذ والشبكة والقبر فى المسجد!؟

فهل فى هذا ما يقنع أولئك الكاتيبين بجهلهم وخطئهم، وهجومهم على القول بما لا علم لهم به؟ لعل وعسى!

وأما المسجد النبوى الكريم، فلا كراهة فى الصلاة فيه خلافاً لما افتروه علينا، وسيأتى تفصيل القول فيه إن شاء الله تعالى.

على أن لا أريد أن يفوتنى أن أنبه القراء الكرام على أن أولئك الكاتيبين يعترفون بكلمتهم السابقة أن الصلاة فى المسجد الذى فيه قبر غير محاط بمقصورة أنها صلاة مكروهة لانتفاء العلة التى من أجلها نفوا الكراهة عن الصلاة فى مسجد بنى أمية بزعمهم، فهل لهم أن يجهروا للناس باعترافهم هذا؟ أم هو شىء اضطربهم إلى القول به التهرب من معارضة الأحاديث السابقة علناً وإن كانوا لا يدعون الناس إلى العمل بها لغاية لاتخفى على العقلاء!؟

(١) (١/٩١/٦٥).

(٢) (ق ٢/٩).

ثم قال الشيخ الألباني بعد أن قرر حرمة الصلاة في المساجد التي على القبور: ثم اعلم أن الحكم السابق يشمل كل المساجد، كبيرها وصغيرها، قديمها وحديثها، لعموم الأدلة<sup>(١)</sup>، فلا يستثنى من ذلك مسجد فيه قبر إلا المسجد النبوي الشريف؛ لأن له فضيلة خاصة لا توجد في شيء من المساجد المبنية على القبور وذلك لقوله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام؛ [فإنه أفضل]»<sup>(٢)</sup>.

ولقوله ﷺ أيضاً: «ما بين بيتي<sup>(٣)</sup> ومنبري روضة من رياض الجنة»<sup>(٤)</sup>.

(١) قال الشوكاني في «شرح الصدور في تحريم رفع القبور» بعد أن ذكر حديث جابر المتقدم بلفظ: نهى رسول الله ﷺ أن يخصص القبر وأن يبنى عليه» (ص ٧٠) من «المجموعة المنيرة»: «وفي هذا التصريح بالنهي عن البناء على القبور، وهو يصدق على من بنى على جوانب حفرة القبر كما يفعله كثير من الناس من رفع قبور الموتى ذراعاً فما فوقه، لأنه لا يمكن أن يجعل نفس القبر مسجداً، فذلك مما دل على أن المراد بعض ما يقربه مما يتصل به. ويصدق على من بنى قريباً من جوانب القبر كذلك، كما في القباب والمساجد والمشاهد الكبيرة على وجه يكون القبر في وسطها أو في جانب منها، فإن هذا بناء على القبر كما لا يخفى ذلك على من له أدنى فهم كما يقال: بنى السلطان على مدينة كذا أو قرية كذا سوراً، وكما يقال بنى فلان في المكان الفلاني مسجداً، مع أن سمك البناء لم يباشر إلا جوانب المدينة أو القرية أو المكان، ولا فرق بين أن تكون تلك الجوانب التي وقع وضع البناء عليها قريبة من الوسط كما في المدينة الصغيرة والقرية الصغيرة والمكان الضيق، أو بعيدة من الوسط كما في المدينة الكبيرة والقرية الكبيرة والمكان الواسع، ومن زعم أن في لغة العرب ما يمنع من هذا الإطلاق فهو لا يعرف لغة العرب، ولا يفهم لسانها، ولا يدري بما استعمل في كلامها».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هذا هو اللفظ الصحيح «بيتي» وأما اللفظ المشهور عى الألسنة «قبرى» فهو خطأ من بعض الرواة كما جزم به القرطبي وابن تيمية والعسقلاني وغيرهم ولذلك لم يخرج في شيء من الصحاح، ووردته في بعض الروايات لا يصيره صحيحاً لأنه رواية بالمعنى قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «القاعدة الجليلة» (ص ٧٤) بعد أن ذكر الحديث: «هذا هو الثابت الصحيح، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال (قبرى) وهو ﷺ حين قال هذا القول لم يكن قد قبر، ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة، حينما تنازعوا في موضع دفنه، ولو كان هذا عندهم لكان نصاً في محل النزاع، ولكن دفن في حجرة عائشة، في الموضع الذي مات فيه، بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه».

(تنبيه) ومن أوهام العلماء أن النووي في «المجموع» عزا الحديث للشيخين بلفظ «قبرى»، ولا أصل له عندهما فاقتضى التنبيه.

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (١١٩٥)، ومسلم في الحج (٤/١٧٣/٥٠) عن عبدالله بن زيد به.

ولغير ذلك من الفضائل، فلوقيل بکراهة الصلاة فيه كان معنى ذلك تسويته مع غيره من المساجد، ورفع هذه الفضائل عنه، وهذا لا يجوز كما هو ظاهر، وهذا المعنى استفدناه من كلام ابن تيمية سيأتى فى بيان سبب إباحة صلاة ذوات الأسباب فى الأوقات المنهى عنها، فكما أن الصلاة أبيحت فى هذه الأوقات لأن فى المنع منها تضييعاً لها بحيث لا يمكن استدراك فضلها لفوات وقتها، فكذلك يقال فى الصلاة فى مسجده ﷺ. ثم وجدت ابن تيمية صرح بهذا، فقال فى كتابه «الجواب الباهر فى زور المقابر»<sup>(١)</sup>.

«والصلاة فى المساجد المبنية على القبور منهى عنها مطلقاً، بخلاف مسجده، فإن الصلاة فيه بألف صلاة، فإنه أسس على التقوى، وكانت حرمة فى حياته وحياة خلفائه الراشدين قبل دخول الحجره فيه، وإنما أدخلت بعد انقراض عصر الصحابة».

ثم قال<sup>(٢)</sup>: «وكان المسجد قبل دخول الحجره فيه فاضلاً، وكانت فضيلة المسجد بأن النبى ﷺ بناه لنفسه وللمؤمنين، يصلى الله هو والمؤمنون إلى يوم القيامة، ففضل بنيانه له، فكيف وقد قال: «صلاة فى مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»<sup>(٣)</sup>. وقال: «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»<sup>(٤)</sup>، وهذه الفضيلة ثابتة له قبل أن يدخل فيه الحجره، فلا يجوز أن يظن أنه صار بدخول الحجره فيه أفضل مما كان، وهم لم يقصدوا دخول الحجره فيه، وإنما قصدوا توسيعه بإدخال حجر أزواج النبى ﷺ، فدخلت الحجره فيه ضرورة، مع كراهة من كره ذلك من السلف»<sup>(٥)</sup>.

ثم قال<sup>(٦)</sup>:

«ومن اعتقد أنه قبل القبر لم تكن له فضيلة إذ كان النبى ﷺ يصلى فيه والمهاجرون والأنصار، وإنما حدثت له الفضيلة فى خلافة الوليد بن عبد الملك لما أدخل الحجره فى مسجده -».

(١) (ص ٢٢ / ١ - ٢).

(٢) (٢ / ٦٧ - ١ / ٦٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١١٨٩)، ومسلم فى الحج (١٦٧/٩ - النووى) عن أبى هريرة به.

وانظر «منار السبيل» (٨٤٢ - بتخريجنا).

(٦) (٢ / ٥٥ - ١ / ٢).

(٥) تقدم.

فهذا لا يقوله إلا جاهل مفرط في الجهل، أو كافر، فهو مكذب لما جاء عنه، مستحق للقتل، وكان الصحابة يدعون في مسجده، كما كانوا يدعون في حياته، لم تحدث له شريعة غير الشريعة التي علمهم إياها في حياته... بل نهاهم أن يتخذوا قبره عيداً، أو قبر غيره مسجداً؛ يصلون فيه لله عز وجل، ليسد ذريعة الشرك، فضلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً وجزاه أفضل ما جزى نبياً عن أمته، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه».

الجواب عن الشبهة الثالثة: وهى الزعم بأن المنع إنما كان لعله، وهى خشية الافتتان بالمقبور، وقد زالت، فزال المنع!!

الجواب: لا أعلم أحداً من العلماء ذهب إلى القول بهذه الشبهة، إلا مؤلف «إحياء القبور»، فإنه تمسك بها وجعلها عمدته فى رد تلك الأحاديث المتقدمة واتفاق الأئمة عليها، فقال ما نصه .

«وأما النهى عن بناء المساجد على القبور، فاتفقوا على تعليقه بعلمتين:

إحدهما: أنه يؤدى إلى تنجيس المسجد<sup>(١)</sup> ..

وثانيهما: وهو قول الأكثرين بل الجميع حتى من نص على العلة السابقة أن ذلك قد يؤدى إلى الضلال والفتنة بالقبور، لأنه إذا وقع بالمسجد، وكان قبر ولى مشهور بالخير والصلاح، لا يؤمن مع طول المدة أن يزيد اعتقاد الجهلة فيه، ويؤدى بهم فرط التعظيم إلى قصد الصلاة إليه، إذا كان فى قبلة المسجد، فيؤدى بهم ذلك إلى الكفر والإشراك». ثم ساق شيئاً من النقول فى العلة المذكورة عن بعض العلماء منهم الإمام الشافعى، وقد تقدم نصه فى ذلك ثم قال المؤلف المشار إليه<sup>(٢)</sup>.

«فالعلة المذكورة قد انتفت برسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين، ونشأهم على التوحيد الخالص، واعتقاد نفى الشريك مع الله تعالى، وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والإيجاد والتصريف (!) وبانتفاء العلة ينتفى الحكم المترتب عليها، وهو كراهة اتخاذ المساجد والقباب على قبور الأولياء والصالحين»!

(١) قال فى حاشية «تحذير الساجد»: وهذه العلة باطلة من وجه لامجال لبيانها الآن، ومن أدلة ذلك

بخصوص قبور الأنبياء أن أجسادهم لا تبلى كما صح عن رسول الله ﷺ، فكيف تنجس الأرض بهم؟!

(٢) (ص: ٢ - ٢١).



قلت - الألباني -: والجواب: أن يقال: ثبت العرش ثم انقش!

أثبت أولاً أن الخشية المذكورة هي وحدها علة النهي، ثم أثبت أنها قد انتفت، ودون ذلك خرط القتاد.

أما الأول، فإنه لا دليل مطلقاً على أن العلة هي الخشية المذكورة فقط، نعم من الممكن أن يقال: أنها بعض العلة، وأما حصرها بها فباطل، لأن من الممكن أيضاً أن يضاف إليها أمور أخرى معقولة كالشبهه بالنصارى، كما تقدم في كلام الفقيه الهيمى، والمحقق الصنعاني، وكالإسراف في صرف المال فيما لافائدة فيه شرعاً، وغير ذلك مما قد يبدو للباحث الناقد.

وأما زعمه أن العلة انتفت برسوخ الإيمان في نفوس المؤمنين.. الخ. فهو زعم باطل أيضاً وبيانه من وجه:

الأول: أن الزعم بنى على أصل باطل، وهو أن الإيمان بأن الله هو المنفرد بالخلق، والإيجاد كاف في تحقيق الإيمان المنجى عند الله تبارك وتعالى، وليس كذلك، فإن هذا التوحيد وهو المعروف عند العلماء بتوحيد الربوبية، كان يؤمن به المشركون الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (١)، ومع ذلك فلم ينفعهم هذا التوحيد شيئاً، لأنه كفروا بتوحيد الألوهية والعبادة، وأنكروه على النبي ﷺ أشد الإنكار، بقولهم فيما حكاه الله عنهم! ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ (٢). ومن مقتضيات هذا التوحيد الذي أنكروه ترك الاستغاثة والاستعانة بغير الله، وترك الدعاء والذبح لغير الله، وغير ذلك مما هو خاص بالله تعالى من العبادات، فمن جعل شيئاً من ذلك لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك به، وجعل له نداً وإن شهد له بتوحيد الربوبية، فالإيمان المنجى إنما هو الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وإفراد الله بذلك، وهذا مفصل في غير هذا الموضوع.

فإذا تبين هذا تعلم أن الإيمان الصحيح غير راسخ في نفوس كثير من المؤمنين بتوحيد الربوبية، ولا أريد أن أبعث بالقارئ الكريم في ضرب الأمثلة، فحسبى هنا أن أنقل ما ذكره المؤلف الذي نحن في صدد الرد عليه، فإنه قال بعد أسطر من كلامه السابق.

(٢) سورة ص الآية ٥.

(١) سورة لقمان الآية ٢٥.

«ونراهم (يعنى العامة) يحلفون بالأولياء، وينطقون فى حقهم بما ظاهره الكفر الصراح بل هو الكفر حقيقة بلا ريب ولا شك.. فكثير من جهلة العوام بالمغرب ينطق بما هو كفر صراح فى حق مولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه.. فإن عندنا بالمغرب من يقول عن القطب الأكبر؛ مولانا عبد السلام ابن مشيش رضى الله عنه: أنه الذى خلق الدين والدنيا! ومنه من قال - والمطر نازل بشدة: يامولانا عبد السلام الطف بعبادك! فهذا كفر!...».

قلت: فهذا الكفر أشد من كفر المشركين، لأن هذا فيه التصريح بالشرك فى توحيد الربوبية أيضاً، وهو مما لانعلم أنه وقع من المشركين أنفسهم! وأما الشرك فى الألوهية فهو أكثر فى جهال هذه الأمة - ولا أقول عوامهم! - فإذا كان هذا حال المسلمين اليوم، وقبل اليوم، فكيف يقول هذا الرجل:

«وقد انتفت العلة برسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين...؟!».

وإذا كان يريد بـ «المؤمنين» الصحابة رضى الله عنهم، فلا شك أنهم كانوا مؤمنين حقاً، عالمين بحقيقة التوحيد الذى جاءهم به رسول الله ﷺ، ولكن الشريعة الإسلامية شريعة عامة أبدية، فلا يلزم من انتفاء العلة - لو ثبت - بالنسبة إليهم أن ينتفى الحكم بالنسبة لمن بعدهم، لأن العلة لاتزال قائمة، والواقع أصدق شاهد على ذلك.

الوجه الثانى: علمت مما سبق من الأحاديث أن النبى ﷺ حذر أمته من اتخاذ المساجد على القبور فى آخر حياته، بل فى مرض موته، فمتى زالت العلة التى ذكرها؟ إن قيل: زالت عقب وفاته ﷺ فهذا نقض لما عليه جميع المسلمين أن خير الناس قرنه ﷺ، لأن القول بذلك يستلزم - بناء على ما سبق من كلامه - أن الإيمان لم يكن قد رسخ بعد فى نفوس الصحابة رضى الله عنهم، وإنما رسخ بعد وفاته ﷺ! ولذلك لم تزل العلة وبقي الحكم، وهذا مما لا أتصور أحداً يقول به لوضوح بطلانه. وإن قيل: زالت قبل وفاته ﷺ، قلنا: وكيف ذلك وهو ﷺ إنما نهى عن ذلك فى آخر نفسٍ من حياته ﷺ؟! ويؤيده:

الوجه الثالث: أن فى بعض الأحاديث المتقدمة باستمرار الحكم إلى قيام الساعة.

الوجه الرابع: أن الصحابة رضى الله عنهم إنما دفنوه فى حجرته ﷺ خشية أن يتخذ قبره مسجداً، كما تقدم عن عائشة رضى الله عنها فى الحديث فهذه الخشية إما أن يقال: إنها كانت منصبية على الصحابة أنفسهم، أو على من بعدهم، فإن قيل بالأول، قلنا:

فالحشية على من بعدهم أولى، وإن قيل بالثاني، وهو الصواب عندنا، فهو دليل قاطع على أن الصحابة رضی الله عنهم كانوا لا يرون زوال العلة المستلزم زوال الحكم، لا في عصرهم، ولا فيما بعدهم، فالزعم بخلاف رأيهم ضلال بين ويؤيده.

الوجه الخامس: أن العمل استمر من السلف على هذا الحكم ونحوه، مما يستلزم بقاء العلة السابقة، وهي خشية الوقوع في الفتنة والضلال، فلو أن العلة المشار إليها كانت منتفية لما استمر العمل على معلولها، وهذا بين لا يخفى والحمد لله، وإليك بعض الأمثلة على ما ذكرنا.

١ - عن عبد الله بن شرحبيل بن حسنة قال: رأيت عثمان بن عفان يأمر بتسوية القبور، فقيل له: هذا قبر أم عمرو بنت عثمان! فأمر به فسوى<sup>(١)</sup>.

٢ - عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لى بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لاتدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته<sup>(٢)</sup>.

ولما كان هذا الحديث حجة واضحة على إبطال ما ذهب إليه الشيخ الغماري في كتابه المشار إليه سابقاً حاول التقصى منه من طريقتين:

الأول: تأويله، حتى يتفق مع مذهبه!  
والآخر: التشكيك في ثبوته! فقال<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/٢٢٢/١).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز (٧/٣٦ - النوى).

عن علي به وانظر «السلسيل» (٩٢٩ - بتخريجتنا).

قال الألباني: ولا مخالفة بين هذا الحديث وبين ما ثبت في السنة من مشروعية رفع القبر شبراً أو شبرين، حتى يتميز فيصان عن أن يهان، لأن المراد به تسوية ما رفع عليه من البناء، وإن قيل بخلافه قال الشيخ على القارئ في «المرقاة» (٢/٣٧٢) في شرح الحديث: «(قبراً مشرفاً) هو الذى بنى عليه حتى ارتفع دون الذى أعلم عليه بالرمل والحصاء أى محسومة (!) بالحجار ليعرف ولا يوطأ، (إلا سويته) فى الأزهار: قال العلماء: يستحب أن يرفع القبر قدر شبر ويكره فوق ذلك ويستحب الهدم، وفى قدره خلاف، قيل إلى الأرض تغليظاً، وهذا أقرب إلى اللفظ أى لفظ الحديث من التسوية».

وكذا فى «تحفة الأحوذى» (٢/١٥٤) نقلاً عن «المرقاة».

(٣) (ص: ٥٧)

ثم إن موضع الشاهد من الحديث إنما هو بعث على أبا الهياج إلى تسوية القبور، وكان رئيس شرطته، ففيه دليل واضح على أن علياً - وكذا عثمان رضى الله عنهما في الأثر المتقدم - كانا يعلمان بقاء هذا الحكم بعد وفاته ﷺ خلافاً لما زعمه الغمارى.

٣ - عن أبي بردة قال: أوصى أبو موسى حين حضره الموت فقال: إذا انطلقتم بجنازتى فأسرعوا المشى ولا يتبعنى مجمر، ولا تجعلوا فى لحدى شيئاً يحول بينى وبين التراب، ولا تجعلوا على قبرى بناء وأشهدكم أنى برىء من كل حالقة<sup>(١)</sup>، أو سالقة، أو خارقة، قالوا: أو سمعت فيه شيئاً؟ قال: نعم، من رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>.

٤ - عن أنس: كان يكره أن يبنى مسجد بين القبور<sup>(٣)</sup>.

٥ - عن إبراهيم أنه كان يكره أن يجعل على القبر مسجداً<sup>(٤)</sup>.

وإبراهيم هذا هو ابن يزيد النخعى الثقة الإمام، وهو تابعى صغير مات سنة (٩٦)، فقد تلقى هذا الحكم بلا شك من بعض كبار التابعين أو ممن أدركهم من الصحابة، ففيه دليل قاطع على أنهم كانوا يرون بقاء هذا الحكم واستمراره بعده ﷺ، فمتى نسخ؟!

٦ - عن المعرور بن سويد قال: «خرجنا مع عمر فى حجة حجها، فقرأ بنا فى الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾<sup>(٥)</sup> و﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ﴾<sup>(٦)</sup>، فلما قضى حجه ورجع والناس، يتتدرون، فقال: ما هذا؟ فقال: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً! من عرضت له منكم فيها الصلاة، فليصل، ومن لم يعرض له منكم فى الصلاة فلا يصل»<sup>(٧)</sup>.

٧ - عن نافع قال:

«بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التى بويح تحتها، فأمر بها فقطعت»<sup>(٨)</sup>.

(١) (الحالقة): هى التى تملق شعرها عند المصيبة، و(السالقة): التى ترفع صوتها، و(الخارقة): التى تحرق ثيابها عند المصيبة.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٩٧/٤).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة (١٨٥/٢) ورجاله ثقات رجال الشيخين.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة (١٢/٢٧٠).

(٥) سورة الفيل: الآية ١.

(٦) سورة قريش، الآية: ١.

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة (٩/٢٧٠).

(٨) قال الألبانى: يبعد ذلك كله ما أخرجه البخارى فى «صحيحه» - (الجهاد) من طريق أخرى =

٨ - عن قرعة قال: سألت ابن عمر: أتى الطور؟ فقال: دع الطور ولا تأتها، وقال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد<sup>(١)</sup>.

٩- عن علي بن حسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فدعاه فقال: ألا أحدثك بحديث سمعته من أبي عن جدي رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي، فإن صلاتكم وتسليمكم تبلغني حيثما كنتم»<sup>(٢)</sup>.

= عن نافع قال: قال ابن عمر رضى الله عنهما: «رجعنا من العام المقبل، فما اجتمع اثنان على الشجرة التي بابيننا تحتها، كانت رحمة من الله».

قلت: يعنى الألباني - خفاءها عليهم. فهو نص على أن الشجرة لم تبق معروفة المكان حتى يمكن قطعها من عمر، فدل ذلك على ضعف رواية القطع الدال عليه الانتقاع الظاهر فيها نفسها. وما يزيدنا ضعفاً ما روى البخاري في «المنزى» من «صحيحه» عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: «لقد رأيت الشجرة، ثم أتيتها بعده، فلم أعرفها».

ومن طريق طارق بن عبد الرحمن قال: «انطلقت حاجاً، فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فأتيت سعيد بن المسيب، فضحك فقال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها. وفي رواية: فعميت علينا فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها! وعلمتموها أنتم! فأنتم أعلم!».

أقول: ولئن كنا خسرننا هذه الرواية المنقطعة كشاهد فيما نحن فيه من البحث بعد التأكد من ضعفها، فقد كسبنا ما هو أقوى منها، مما يصلح دليلاً لما نحن فيه، وهو حديث المسيب هذا، وحديث ابن عمر: فقد قال الحافظ في شرحه إياه: «والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها حتى ربما أفضى بهم الأمر إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضرر، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها، وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله: «كانت رحمة من الله»، أى كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة من الله تعالى».

قلت- يعنى الألباني -: ومن تلك الأشجار التي أشار إليها الحافظ شجرة كنت رأيتها منذ أكثر من عشر سنين شرقي مقبرة شهداء أحد، خارج سورها، وعليها خرق كثيرة، ثم رأيتها في موسم السنة الماضية (١٣٧١) قد استأصلت من أصلها. والحمد لله، وحمى المسلمين من شر غيرها من الشجر وغيره من الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/٢٦٨/٦) وتقدم بنحوه عن أبي بصرة الغفاري.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة أيضاً (٢/٢٦٩/٢).

ويقويه ما أخرجه ابن أبي شيبة أيضاً وابن خزيمة في «حديث على بن حجر» وابن عساكر من طريقين عن سهيل بن أبي سهيل أنه رأى قبر النبي ﷺ، فالتزمه ومسح، قال: فحصبني حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب فقال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا بيتي عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا على حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبغلي»<sup>(١)</sup>.

١٠- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا على، فإن صلاتكم تبغلي»<sup>(٢)</sup>. حيثما كنتم»<sup>(٣)</sup>.

١١- ورأى ابن عمر فسظاطاً<sup>(٤)</sup> على قبر عبد الرحمن فقال: «انزعه يا غلام فإنما يظله عمله»<sup>(٥)</sup>.

١٢- عن أبي هريرة أنه أوصى أن لا يضربوا على قبره فسظاطاً<sup>(٦)</sup>.

١٣- وروى ابن أبي شيبة وابن عساكر مثله عن أبي سعيد الخدري<sup>(٧)</sup>.

١٤- عن محمد بن كعب قال: هذه الفساطيط التي على القبور محدثة<sup>(٨)</sup>.

١٥- عن سعيد بن المسيب أنه قال في مرضه الذي مات فيه: إذا ما مت، فلا تضربوا على قبري فسظاطاً<sup>(٩)</sup>.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/٢٦٨/٢).

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٢) قوله «تبغلي» هذا الحديث وغيره مما تقدم صريح في أنه عليه الصلاة والسلام لا يسمع صلاة المصلين عليه، فمن زعم أن النبي ﷺ يسمعها فقد كذب عليه، فكيف حال من يزعم أنه ﷺ يسمع غيرها؟!.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الفسظاط بيت من شعر كما في «اللسان» وفي «الكواكب الدراري»: «وكره أحمد أن يضرب على

القبر فسظاط».

(٥) علقه البخاري (٣/٢٦٤ - الفتح) وانظر كتابنا «بغية الفاتر الجامع الأحكام الجنائز»..

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/٢١٦/٣).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/٢١٦/٣).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/٢١٧/٣).

(٩) رواه ابن سعد (٥/١٤٢).

١٦ - عن سالم مولى عبد الله بن علي بن حسين قال: أوصى محمد بن علي أبو جعفر قال:

«لاترفعوا قبري على الأرض»<sup>(١)</sup>.

١٧ - عن عمرو بن شرحبيل قال: «لاترفعوا جدتي - يعنى القبر - فإننى رأيت المهاجرين يكرهون ذلك»<sup>(٢)</sup>.

واعلم أن هذه الآثار وإن اختلفت دلالاتها، فهي متفقة على النهى فى الجملة عن كل ما ينبىء عن تعظيم القبور تعظيماً يخشى منه الوقوع فى الفتنة والضلال، مثل بناء المساجد والسقبات على القبور، وضرب الخيام عليها، ورفعها أكثر من الحد المشروع، والسفر والاختلاف إليها<sup>(٣)</sup>، والتمسح بها، ومثل التبرك بآثار الأنبياء ونحو ذلك، فهذه الأمور كلها غير مشروعة عند السلف الذين سميهاهم من الصحابة وغيرهم، وذلك يدل على أنهم كانوا جميعاً يرون بقاء علة النهى عن بناء المساجد على القبور وتعظيمها بما لم يشرع، ألا وهى خشية الضلال والافتتان بالموتى كما نص عليها الإمام الشافعى رحمه الله فيما سبق، بدليل استمرارهم على القول بالحكم المعلوم بهذه العلة، فإن بقاء أحدهما يستلزم بقاء الآخر، كما لا يخفى، وهذا بالنسبة لمن نص منهم على كراهة بناء المساجد على القبور ظاهر، أما الذين صرحوا بالنهى عن غير ذلك، مثل رفع القبر وضرب الخيمة عليه ونحوه مما أجملنا الكلام عليه آنفاً، فهم يقولون ببقاء الحكم المذكور من باب أولى، وذلك لوجهين:

الأول: أن بناء المساجد على القبور أشد جرمًا من رفع القبور وضرب الخيام عليها، لما ورد من اللعن على البناء، دون الرفع والضرب المذكور.

الثانى: أن المفروض فى أولئك السلف الفهم والعلم، فإذا ثبت عن أحد منهم النهى عن شىء هو دون ما نهى عنه الشارع، ولم ينقل هذا النهى عن أحدهم، فنحن نقطع بأنه ينهى عنه أيضاً، حتى ولو فرض عدم بلوغ النهى إليه لأن نهيه عما هو دون هذا يستلزم النهى عنه من باب أولى، كما لا يخفى.

(١) رواه الدولابى (١/١٣٤ - ١٣٥) ورجاله ثقات غير سالم هذا، فهو مجهول كما قال الذهبى فى «الميزان» والحلى الشيعى فى «خلاصة الأقوال» (ص ١٠٨) - الألبانى.

(٢) رواه ابن سعد (١/١٠٨) بسند صحيح - الألبانى.

(٣) الاختلاف إليها أى: إكثار التردد لزيارتها، وهذا مستفاد من قوله ﷺ «اللهم لا تجعل قبرى عيداً».

فثبت أن القول بانتفاء العلة المذكورة وما بنى عليه كله باطل، لمخالفته نهج السلف الصالح رضى الله عنهم، مع مصادمته للأحاديث الصحيحة. والله المستعان.

قوله: ﴿ولولا ذلك أبرز قبره﴾.

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: قوله فى رواية أخرى: «لأبرز قبره» أى: لكشف قبر النبىء - ﷺ - ولم يتخذ عليه الحائل والمراد الدفن خارج بيته، وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوى ولهذا لما وُسِّع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يتأتى لأحد أن يصلى إلى جهة القبر مع استقبال القبلة. اهـ

وتقدم ذلك من كلام الألبانى وغيره نقلاً عن الذين تكلموا فى تاريخ المدينة من أهل العلم.

قال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: قوله «لولا ذلك».

أى ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبىء - ﷺ - مسجداً لأبرز قبره وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم فى البقيع.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: وهذا أحد الأسباب التى أوجبت أن لا يبرز مكان قبره - ﷺ - ومن أسباب ذلك إخباره - ﷺ - أنه ما قبض نبىٌ إلا دفن حيث قبض<sup>(٤)</sup>. ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثره كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

قال الألبانى<sup>(٥)</sup>: «قال الكرمانى: مفاد الحديث منع اتخاذ القبر مسجداً، ومدلول الترجمة اتخاذ المسجد على القبر، ومفهومهما متغاير، ويجب بأنهما متلازمان، وإن تغاير المفهوم».

وهذا المعنى هو الذى أشارت إليه السيدة عائشة رضى الله عنها بقولها فى آخر الحديث الأول:

«فلولا ذاك أبرز قبره، غير أنه خُشى أن يتخذ مسجداً».

إذ المعنى فلولا ذاك اللعن الذى استحقه اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم القبور

(٢) فتح المجيد ٢٩٥.

(١) الفتح مع البخارى ٢٣٨/١.

(٣) القول المفيد ٥١١/١.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٨/١)، وابن ماجه (١٦٢٨) عن ابن عباس به.

(٥) من تحذير الساجد بتصرف مع الحاشية.



مساجد المستلزم البناء عليها، لجعل قبره ﷺ في أرض بارزة مكشوفة، ولكن الصحابة رضی الله عنهم لم يفعلوا ذلك خشية أن يبنى عليه مسجد من بعض من يأتي بعدهم فتشملهم اللعنة.

قال الألباني: ويؤيد هذا ما روى ابن سعد<sup>(١)</sup> بسند صحيح عن الحسن وهو (البصرى) قال: ائتمروا<sup>(٢)</sup> أن يدفنه ﷺ في المسجد، فقالت عائشة: إن رسول الله ﷺ كان واضعاً رأسه في حجرى إذ قال: قاتل الله أقواماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، واجتمع رأيهم أن يدفنه حيث قبض في بيت عائشة.

قلت - يعنى الألباني -: فهذه الرواية - على إرسالها - تدل على أمرين اثنين: أحدهما: أن السيدة عائشة فهمت من الاتخاذ المذكور في الحديث أنه يشمل المسجد الذى قد يدخل فيه القبر، فبالأحرى أن يشمل المسجد الذى بنى على القبر. الثانى: أن الصحابة أقروها على هذا الفهم، ولذلك رجعوا إلى رأيها فدفنوه ﷺ فى بيتها اهـ.

قوله: «غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً».

وفى لفظ البخارى «غير أنى أخشى أن يتخذ مسجداً».

قال ابن حجر<sup>(٣)</sup>: قوله: «غير أنى أخشى» كذا هنا وفى رواية أبى عوانة عن هلال .. «غير أنه خشى أو خشى على الشك هو بفتح الحاء المعجمة أو ضمها، وفى رواية مسلم «غير أنه خشى» بالضم لاغير، فرواية الباب تقتضى أنها هى التى امتنعت من إبرازه وروايه الضم مبهمة يمكن أن تفسر بهذه والهاء ضمير الشأن وكأنها أرادت نفسها ومن وافقها على ذلك، وذلك يقتضى أنهم فعلوه بإجتهد بخلاف رواية الفتح فإنها تقتضى أن النبى ﷺ - هو الذى أمرهم بذلك... أهـ.

وهذا مؤدى ما قاله صاحب «تيسير العزيز الحميد» «وقتح المجيد» «والقول المفيد» وزاد الأخير فقال: والحقيقة أن الأمر كله حاصل: فالرسول ﷺ - أخبر بأنه ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفاً من اتخاذ - قبره مسجداً، والصحابة. رضی الله عنهم - اتفقوا على أن يدفن - ﷺ - فى بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك. اهـ.

(١) (٢٤١/٢) - الألباني.

(٢) أى تشاوروا.

(٣) ٢٣٩/٣

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنْ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ» (١).

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَمُنْ بِمَسْجِدٍ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «خَشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا» فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيُنْوَ حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ «جَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» (٢).

قوله: [عن جندب بن عبد الله]

قال ابن الأثير: هو جندب بن عبد الله بن سفيان اليحلي العلقمي، له صحبة ليست بالقديمة، يكنى أبا عبد الله، سكن الكوفة، ثم انتقل إلى البصرة. وقال ابن منده وأبو نعيم: ويقال له: جندب الخير. والذي ذكره ابن الكلبي أن جندب الخير هو جندب بن عبد الله الأزدي. أهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «المساجد» مواضع الصلاة/ باب: فضل بناء المساجد والحث عليها (/ ١٦/٣ ح ٥٣٢).

من حديث جندب به.

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري في التيمم/ باب قوله ﷺ «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» (٤٣٨/٢٢٤/١).

ومسلم في «المساجد» في فاتحته (٣/٥ - النووي) وأحمد (٣/٤ - ٣) والنسائي في «المجتبى» في «الطهارة»/ باب: التيمم بالصعيد (٢٠٩/١) والدارمي في / باب: الأرض كلها طهور ما خلا المقبرة والحمام (٣٣٢/١، ٣٣٣). وابن حبان في «صحيحه» (١٠٤/٨) ح ٦٣٦٤ الإحسان) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٢٦/١) ح ١٠١٧) والبقولي في «شرح السنة» في «الفضائل» (٣١٦/١٩٦/١٣) وابن أبي شبة في «المصنف» (٤١٠/٧) وانظر «عمدة الأحكام» (ح ٤٢) بتخریجنا وانظر «تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد» (ح ٣٠) بتخریجنا أيضاً.

وانظر «فتح المجيد» (٣٥٩). بتخریجنا.

وقال ابن حجر: وقال البغوي: يقال له: جندب الخير، وجندب الفاروق، وجندب بن أم جندب. اهـ.

وذكر المزي في ترجمته: عن جندب بن عبدالله كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حذاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازدنا به إيماناً. اهـ رواه ابن ماجه بسند صحيح قال أبو أحمد العسكري وخليفة في «الطبقات»: مات في فتنه ابن الزبير، بعد أربع وستين. اهـ<sup>(١)</sup>.

قوله: [سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول]

تقدم ذكر فائدة التنصيص على زمن سماعه - أي قبل أن يموت بخمس - عند قوله في الحديث السابق (لما نزل برسول الله ﷺ)، وفي أول حديث عائشة الذي في أول الباب.

قوله: [إني أبرأ إلى الله]

قال النووي<sup>(٢)</sup>: معنى (أبرأ) أي امتنع من هذا وأنكره. اهـ.

وبهذا القول قال شراح كتاب التوحيد، وقال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: البراءة هي التخلي، أي أتخلي أن يكون لي منكم خليل. اهـ.

قوله: [أن يكون لي منكم خليل]

قال النووي<sup>(٤)</sup>: الخليل: هو المنقطع إليه، وقيل: المختص بشيء دون غيره. قيل: هو مشتق من (الخلة) بفتح الخاء، وهي الحاجة. وقيل: من (الخلة) بضم الخاء، وهي تخلل المودة في القلب. فنفي ﷺ أن تكون حاجته وانقطاعه إلى غير الله تعالى، وقيل: الخليل من لا يتسع القلب لغيره.

قال ابن حجر<sup>(٥)</sup>: واختلف في المودة والخلة والمحبة والصدقة، هل هي مترادفة أو

مختلفة؟

قال أهل اللغة: الخلة أرفع رتبة، وهو الذي يشعر به حديث الباب.

وكذا قوله عليه السلام: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي» فإنه يشعر بأنه لم يكن له

(١) انظر ترجمة في «أسد الغابة» (١/ ٣٦٠) والإصابة (١/ ٢٥٠) وتهذيب الكمال بحاشية بشار (١٣٧/

٥).

(٢) (٤) شرح مسلم (١٧/٣).

(٣) القول المفيد (١/ ٥١٤).

(٥) فتح الباري (٧/ ٢٧، ٢٨).

خليل من بنى آدم وقد ثبتت محبته ﷺ لجماعة من أصحابه كأبي بكر وفاطمة وعائشة والحسنين وغيرهم.

وقال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: والخليل هو المحبوب غاية المحبة، مشتق من الخلة بفتح الخاء، وهي تخلل المودة في القلب كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

هذا هو الصحيح في معناه كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم. قال القرطبي: وإنما كان في ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله، وتعظيمه، ومعرفته، فلا يسع لمخالته غيره. اهـ.

جمع ابن حجر بين المحبة والخلة للنبي ﷺ: قال: ولا يعكر على هذا اتصاف إبراهيم عليه السلام بالخلة ومحمد ﷺ بالمحبة، فتكون المحبة أرفع رتبة من الخلة، لأنه يجاب عن ذلك بأن محمداً ﷺ قد ثبت له الأمران معاً فيكون رجحانه من الجهتين، والله أعلم.

وقال: وقال الزمخشري: الخليل هو الذي يوافقك في خلالك ويسايرك في طريقك أو الذي يسد خللك، وتسد خلله، أو يداخلك خلال منزلك، انتهى. وكأنه جوز أن يكون اشتقاقه مما ذكر.

وقيل أصل الخلة: انقطاع الخليل إلى خليله، وقيل: الخليل من يتخلله شرك وقيل: من لا يسع قلبه غيرك، وقيل: أصله الخلة: الاستصفاء، وقيل: المختص بالمودة، وقيل: اشتقاق الخليل من الخلة بفتح الخاء وهي الحاجة، فعلى هذا فهو المحتاج إلى من يخاله، وهذا كله بالنسبة إلى الإنسان، وأما خلة الله للعبد فبمعنى نصره له ومعاونته. اهـ.

[قلت]: وهذا الأخير واضح فساد تأويله لأمرين:-

- (١) صرف قول النبي ﷺ عن ظاهره بدون ذكر قرينة شرعية لهذا التأويل.
- (٢) قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ و﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأشبه هذه الآيات تعارض هذا التأويل معارضة صريحة وتبين خطأ هذا المذهب؛ لأنه على هذا التأويل يكون المؤمنون ممن اتخذهم الله أصدقاء، وعند ذلك لا يكون ثمة تفضيل لإبراهيم عليه السلام فما قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. والحق أن نذكر صفة الخلة كما هي دون تأويله ولا تعطيل كما هو مذهب أهل السنة في

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٣٩).

الأسماء والصفات والله أعلم.

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: قوله (خليل) هو الذي يبلغ في الحب غايته، لأن حبه يكون قد تخلل الجسم كله.

قال الشاعر يخاطب محبوبته فذكر البيت السابق ثم قال:

والخلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يشتها الله - عز وجل - فيما نعلم إلا لاثنتين من خلقه وهما إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ومحمد ﷺ: «إن الله اتخذ إبراهيم خليلًا» وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله، وهذا تنقص في حق الرسول ﷺ؛ لأنهم بهذه المقالة جعلوا مرتبة النبي ﷺ دون مرتبة إبراهيم، ولأنهم إذا جعلوه حبيب الله لم يفرقوا بينه وبين غيره من الناس فإن الله يحب المحسنين والصابرين وغيرهم ممن علق الله بفعلهم المحبة، فعلى رأيهم لافرق بين الرسول ﷺ وغيره، لكن الخلة ما ذكرها إلا لإبراهيم، والنبي ﷺ أخبر أن الله اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا فالهم: أن العامة مشكل أمرهم دائماً يصفون الرسول ﷺ بأنه حبيب الله فنقول: أخطأتم وتنقصتم نبيكم، فالرسول ﷺ خليل الله، لأنكم إذا وصفتموه بالمحبة أنزلتموه عن بلوغ غايتها. اهـ.

وسأني كلام ابن القيم بنحو هذا قريباً.

قوله: [فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا]

تقدم كلام ابن عثيمين، وكأنه تابع سليمان آل الشيخ وأيضاً:

عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: حيث قال فيه: بيان أن الخلة فوق المحبة.

قال ابن القيم: - رحمه الله - «وأما ما يظنه بعض المغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله - فمن جهلهم، فإن المحبة عامة والخلة خاصة، وهى نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذ خليلًا، ونفى أن يكون له خليلاً غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب. (ومعاذ بن جبل) وغيرهم - رضى الله عنهم - وأيضاً فإن الله «يحب التوابين ويحب المتطهرين» و«يحب الصابرين» و«خلته خاصة بالخليلين».

مسئلة:

(١) القول المفيد (١/٥١٤، ٥١٥).

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد (٢٣٩) وفتح المجيد ٢٩٧.

قال الرسول ﷺ «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»<sup>(١)</sup> هل معنى ذلك أننا لايجوز أيضا أن يتخذ الأخ أخا وخليلاً؟

الجواب: أن كون النبي ﷺ بدأ إلى الله من إن يكون له منهم خليلاً هذا من خصائصه ﷺ وليس الخلة ممنوعة بإطلاق والسبب هو أن قوله ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً». فلا يجوز عليه بعد أن أتخذه الله خليلاً أن يتخذ هو غير الله خليلاً. بل لا بد وأن تكون العلاقة أيضا من جنس محبة الله له. فكما أن الله عزوجل اتخذته خليلاً فهو برأ إلى الله من أن يكون له منهم خليلاً لكن هو لم يمنع من الخلة بإطلاق ولو كانت الخلة ممنوعة ما قال في الحديث «ولو كنت متخذاً خليلاً لإتخذت أبا بكر خليلاً» فهو لو كانت ممنوعة ما جزله أن يقول هذه المقولة. لأنه لما قال «لو كنت متخذاً خليلاً» يفهم منه جواز الخلة ولكنه لم يتخذة خليلاً ولأن الله عزوجل أقر هذه الخلة فيما بين المؤمنين فقال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فأجاز أن يكون بين التقى والمتقى خلة وإن هذه الخلة لا يترتب عليها عداوة في الآخرة بخلاف خلة أصحاب الجحيم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ولأن النبي ﷺ ثبت عنه في سنن أبي داود وعند النسائي والترمذي أنه قال ﷺ «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»<sup>(٢)</sup> إلا أنه لا ينبغي أن تكون الخلة مهما بلغت إلا أن تكون في الله «أن تحب المرء لاتبه إلا في الله» كما تقدم معنا مراراً في حديث «ثلاث منكم فيه وجد بهن حلاوة الإيمان.....» الحديث فإن كان هذه أساس الخلة والمحبة فيما بينك وبين أخيك فلا بأس من أن تخالل وتصادق» والله أعلم.

قوله: [ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر]

[قلت]: كذا اقتصر مسلم على هذه اللفظة، وعند البخارى بزيادة، فى مناقب الصحابة من حديث أبى سعيد قال: «ولكن أخوة الإسلام ومودوته» وعن ابن عباس «ولكن أخى وصاحبى» وعنه «ولكن أخوة الإسلام أفضل»، وعند أحمد من حديث ابن الزبير «لاتخذت أبا بكر، ولكنه أخى فى الدين، وصاحبى فى الغار» ووقع فى رواية أحمد من طريق ابن جريج عن ابن أبى مليكة فى طرق الحديث السابق «لو كنت متخذاً خليلاً سوى الله حتى ألقاه»<sup>(٣)</sup>.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٠٠-٣٠١)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذى (٢٣٧٨) عن أبى

هريرة.

(٣) وانظر فتح البارى (٧/ ٢٨) بتصرف.

● إشكال بين هذه اللفظة وبين بعض الطرق السابق ذكرها بلفظ «ولكن أخوة الإسلام أفضل»

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: وأخرجه أبو يعلى بلفظ «ولكن خلة الإسلام أفضل» وفيه إشكال، فإن الخلة أفضل من أخوة الإسلام، لأنها تستلزم ذلك وزيادة. فقيل: المراد أن مودة الإسلام مع النبي ﷺ أفضل من مودته مع غيره. وقيل: أفضل بمعنى فاضل، ولا يعكر على ذلك اشتراك جميع الصحابة في هذه الفضيلة، لأن رجحان أبي بكر عرف من غير ذلك، وأخوة الإسلام ومودته متفاوتة بين المسلمين في نصر الدين وإعلاء كلمة الحق وتحصيل كثرة الثواب، ولأبي بكر من ذلك أعظمه وأكثره، والله أعلم.

قال ابن حجر<sup>(٢)</sup>: وفي قوله: [ولو كنت متخذاً خليلاً...] متعبة عظيمة لأبي بكر لم يشاركه فيها أحد ونقل ابن التين عن بعضهم أن معنى قوله: «ولو كنت متخذاً خليلاً» لو كنت أحص أحداً بشيء من أمر الدين لخصت أبا بكر، قال: وفيه دلالة على كذب الشيعة في دعواهم أن النبي ﷺ كان خصص علياً بأشياء من القرآن وأمر الدين لم يخص بها غيره.

قلت - أي الحافظ<sup>(٣)</sup> -: والاستدلال بذلك متوقف على صحة التأويل المذكور، وما أبعدها. اهـ.

● إشكال ثاني وجوابه:

قال ابن حجر<sup>(٤)</sup>: أما ما روى عن أبي بن كعب قال: «إن أحدث عهدى بنبيكم قبل موته بخمس، دخلت عليه وهو يقول: «إنه لم يكن نبى إلا وقد اتخذ من أمته خليلاً، وإن خليلي أبو بكر، ألا وإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» أخرجه أبو الحسن الحرابي في «فوائده».

وهذا يعارضه ما في رواية جندب عند مسلم - أي حديث هذا الباب - وفيه «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل».

فإن ثبت حديث أبي أمكن أن يجمع بينهما بأنه لما برىء من ذلك تواضعاً لربه وإعظماً له أذن الله تعالى فيه من ذلك اليوم لما رأى من تشوفه إليه وإكراماً لأبي بكر بذلك، فلا يتنافى الخبران، أشار إلى ذلك المحب الطبري، وقد روى من حديث أبي أمامة نحو حديث أبي بن كعب دون التقييد بالخمس، أخرجه الواحدى فى «تفسيره» والخبران واهيان والله أعلم.

(١) فتح البارى (١٧/٧). (٢) وانظر فتح البارى (٢٨/٧) بتصرف.

(٣) فتح البارى (١٧/٧). (٤) فتح البارى (١٧/٧).

## ● إشكال ثالث وجوابه:

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: قال الداودي: لا ينافي هذا - أي قوله «لو كنت متخذاً خليلاً» - قول أبي هريرة وأبي ذر وغيرهما «أخبرني خليلي ﷺ»؛ لأن ذلك جائز لهم.

ولا يجوز للواحد منهم أن يقول أنا خليل النبي ﷺ، ولهذا يقال إبراهيم خليل الله ولا يقال: الله خليل إبراهيم. قلت: ولا يخفى ما فيه. اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: قوله «ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتى لاتخذت أبا بكر خليلاً» فيه دليل على أن الصديق أفضل الصحابة، حيث صرح ﷺ أنه لو اتخذ خليلاً غير ربه، لاتخذ أبا بكر، ففيه رد على الرافضة وعلى الجهمية الذين هم شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد، قاتلهم الله. قاله المصنف اهـ. وسيأتي إن شاء الله.

وقال حامد بن محمد<sup>(٣)</sup>: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر» لما رأيت منه من التصديق والنصح لله ولرسوله اهـ.

وقال عبد الله بن جبار الله<sup>(٤)</sup>: أي لو قدر أني أحبيت أحداً مع الله لكان أبا بكر صاحبه في الغار. اهـ.

وقال ابن باز<sup>(٥)</sup>: فلم يتخذه خليلاً لثلاث تراحم محبته محبة الله عزوجل اهـ.

وقال ابن عثيمين<sup>(٦)</sup>: «لو» حرف امتناع لامتناع، فيمتنع الجواب لامتناع الشرط، وعلى هذا امتنع ﷺ من اتخاذ أبي بكر خليلاً، لأنه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلاً. اهـ.

وقال القرعاوي<sup>(٧)</sup>: لو كان في نيته أن يتخذ من الخلق خليلاً... اهـ.

قوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد».

قال ابن عثيمين: «قوله: «ألا».

للتنبية، وهذه الجملة من الحديث الأول لكنه ابتدأها بالتنبيه لأهمية المقام<sup>(٨)</sup>.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٣٩، ٢٤٠).

(٤) الجامع الفريد (٨٥).

(٦) القول المفيد (٥١٦/١، ٥١٦).

(٨) القول المفيد ١/٥١٦.

(١) فتح الباري (٢٧/٧).

(٣) فتح الله الحميد (٢٩٣).

(٥) التعليق المفيد (١٢١).

(٧) الجديد (١٨٩).



قال سليمان آل الشيخ وتبعه عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(١)</sup>: قال الخليلي: «وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مخرج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً.

قلت: والدليل أنه كان للتعظيم حديث معاذ.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأول: هو الشرك الجلي، والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قلت - أي سليمان - الحديث أعم من ذلك، فيشملة ويشمل بناء المساجد والقباب عليها. اهـ.

قال حامد بن محمد<sup>(٢)</sup>: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» فيقعون في الشرك، والكفر؛ بالغلو فيهم. اهـ.

وقال عبدالله بن جار الله<sup>(٣)</sup>: - وهذا هو - الشاهد من الحديث. اهـ.

قال ابن باز<sup>(٤)</sup>: «كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» وفي مسلم «أنبيائهم وصالحهم مساجد»، وسقطت لأنه نقلها من اقتضاء الصراط المسقيم وقد سقطت من هناك. ومنع من هذا بثلاثة طرق:

الأول: ذم ما فعلوه.

قلت: لقوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد».

الثاني: قوله «لاتتخذوا».

الثالث: قوله «فإني أنهاكم عن ذلك».

وهذه مبالغة منه في النهي عن ذلك لأنه وسيلة إلى الشرك كما حصل الآن. اهـ.

قوله: «ألا فلاتتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٠) وانظر فتح المجيد ٢٩٩.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٣).

(٣) الجامع الفريد (٨٥).

(٤) التعليق المفيد ١٢١.

قال النووي<sup>(١)</sup>: قال العلماء: إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجد خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، وربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية، ولما احتاجت الصحابة - رضوان الله عليهم جميعاً - والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة - رضى الله عنها - ومدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد، فيصلى إليه العوام ويؤدى إلى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحررفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قال في الحديث «لولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً. والله أعلم بالصواب. اهـ.

قال حامد بن محمد<sup>(٢)</sup>: «أفلا تتخذوا القبور مساجد» فتقعون فيما وقعوا فيه. «فإني أنهاكم عن ذلك».

قال ابن عثيمين: قوله: «أفلا تتخذوا».

هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

قوله: «فإني أنهاكم عن ذلك».

هذا نهى باللفظ دون الأداة تأكيداً لهذا النهى لأهمية المقام<sup>(٣)</sup>.

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته».

قال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(٤)</sup>: أى: كما في حديث جندب وهذا من كلام شيخ

الإسلام، وكذا من بعده.

وقال ابن عثيمين<sup>(٥)</sup>: الضمير يعود إلى النبي ﷺ والمنهى عنه هو اتخاذ القبور

مساجد.

قوله: «ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله».

(١) القول المفيد ١/٥١٦.

(٢) شرح مسلم (١٧/٣).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٣٩).

(٤) فتح المجيد ٢٩٩.

(٥) القول المفيد ١/٥١٧.

قال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(١)</sup>: كما فى حديث عائشة.

قلت - والكلام لازال له - فكيف يسوغ بعد هذا التخليط من سيد المرسلين أن تُعظَّم القبور ويُبنى عليها، ويصلى عندها وإليها؛ هذا أعظم مُشاقة ومحاداة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعلمون.

قوله: «والصلاة عندها من ذلك وإن لم بين المسجد».

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>:

قوله: «والصلاة عندها من ذلك، وإن لم بين مسجداً، يعنى: أن الصلاة عند القبور وإليها من اتخاذها مساجد الملعون من فعله، وإن لم بين مسجداً، فتحرم الصلاة فى المقبرة وإلى القبور، بل لاتعقد أصلاً»<sup>(\*)</sup> لما فى هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها، من لعن من اتخذها مساجد.

وروى مسلم عن أبى مرثد الغنوى رضى الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تَصَلُّوا إِلَيْهَا»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»<sup>(٤)</sup> رواه أحمد وأهل السنن، وصححه ابن حبان والحاكم من طرق على شرط الشيخين.

وفى «صحيح البخارى» أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أنس بن مالك يُصلى عند قبرٍ فقال: «القبر القبر»<sup>(٥)</sup> وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ، من الصلاة عند القبور.

وفعل أنس لا يدل على اعتقاد جوازه، فإنه لعله لم يره، ولم يعلم أنه قبر أو ذهل عنه، فلما نبهه عمر تنبه.

(١) فتح المجيد ٢٩٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٠٢٤٠).

(\*) وهذا قول من جملة الأقوال المتقدمة التى ستأتى بتفصيل قريباً فى حكم الصلاة على القبور أو إليها وانظر باقى الأقوال من كلام العلامة الألبانى التى ذكرناها من كتابه وكلام غيره من الفقهاء.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) [يحسن] أخرجه أحمد فى «مستده» (٨٣/٣، ٩٦)، وأبو داود (٤٩٢)، والترمذى (٣١٧)، وابن

ماجه (٧٤٥) عن أبى سعيد به.

وانظر «السلسيل» (٣٥١ - بتخریجنا).

(٥) تقدم.

وفى هذا كله إبطال قول من زعم أن النهى عن الصلاة فيها لأجل النجاسة، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول ﷺ، بل العلة فى ذلك الخوف على الأمة أن يقعوا فيما وقعت فيه اليهود والنصارى، وعباد اللات والعزى من الشرك.

ويدل على ذلك أن النبى ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة، لأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم فى قبورهم طريون.

وقد لعن النبى ﷺ متخذى المساجد عليها وموقدى السرج عليها، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما هو لعن فاعله، لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصباً يوفض إليها المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها.

قال ابن القيم: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه، وذرائعه، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده جزم جزم لا يحتمل النقيض، أن هذه المبالغة واللعن والنهى بصيغتيه، صيغة (لا تفعلوا) وصيغة (إنى أنهاكم) ليس لأجل النجاسة. بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه، أو عدم من تحقيق لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبى ﷺ صيانة لحمى التوحيد، أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا التعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد. ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة. فجمع المشركون بين الغلو فيهم والظعن فى طريقتهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم وإنزالهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية.

قلت: - سليمان آل الشيخ -: ومن علل بخوف الفتنة والشرك الشافعى وأبو بكر الأثرم وأبو محمد المقدسى وشيخ الإسلام وغيرهم وهو الحق (\*) .

قال ابن عثيمين<sup>(١)</sup>: «عندها» أى: القبور.

(\*) وهذا فيه رد على المسألة المتقدمة، بأن العلة انتفت وانتشر الدين وظهر الإيمان، ولم يبق من آثار الشرك شيء، كما نقل - عن الغمارى وغيره ممن نهج هذا النهج - ذلك الشيخ الألبانى ورد عليهم، وهنا تأكيد لرده السابق.

(١) القول المفيد / ١

وقوله «من ذلك»؛ أى: من اتخاذها مساجد، وعلى هذا؛ فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولهذا نهى النبي ﷺ كما فى «صحيح مسلم» من حديث أبى مرثد الغنوى - المتقدم - أن يُصلى إلى القبور؛ فقال: «لاتصلوا إلى القبور»<sup>(١)</sup>.

قال النووى: قوله ﷺ «لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا عليها» فيه تصريح بالنهى عن الصلاة إلى القبر. قال الشافعى رحمه الله وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعد من الناس.

حكم الصلاة فى هذه المساجد وعلاقته بالباب.

قال الألبانى:<sup>(٢)</sup> قصد الصلاة فى المساجد المبنية على القبور يبطل الصلاة.

إن للمصلى فى المساجد المذكورة حالتين:

الأولى: أن يقصد الصلاة فيها من أجل القبور والتبرك بها كما يفعله كثير من العامة، وغير قليل من الخاصة!

الثانية: أن يصلى فيها اتفاقاً لا قصداً للقبر.

ففى الحالة الأولى لاشك فى تحريم الصلاة فيها بل فى بطلانها، لأنه إذا نهى ﷺ عن بناء المساجد على القبور، ولعن من فعل ذلك، فالنهى عن قصد الصلاة فيها أولى، والنهى هنا يقتضى البطلان كما سبق قريباً.

قال الفقير: هذا الكلام فيه فوائد:-

الأولى: أن الألبانى وهو من أئمة السلفية لنا أجاز تقسيم الناس لعوام وخواص. لأننا نسمع من بعض المشايخ وطلبة العلم أنهم لا يرون تقسيم الناس إلى أخوة ملتزمين وغير أخوة. ويرون أن هذا أشبه بفعل المبتدعة والشيعية والخوارج وغيرهم. فها هو أحد أئمة السلفية يُجوز بل ينص على تقسيم الناس إلى عوام وإلى خواص.

الثانية: أنه يلوح وينوه ببعض من نعدهم من الخواص، أو يعدهم كذلك العوام أنهم من خواص الناس أى من الأئمة والدعاة والمشايخ يصلون فى هذه المساجد ويعقدون فيها دروساً وخطباً كما نوهت ببعضهم بعد وفاته بفترة قليلة وبينت أنه أيضاً برغم أن له محاسن إلا أن له مساوئ من أعظمها خطراً أنه يعقد هذه الدروس فى هذه المساجد وإنما يسوغ بذلك للعوام الصلاة فيها، وكذلك يكون حجة أو شبهة للعامى إذا ما عرضت

(١) تقدم.

(٢) من تحذير الساجد بحاشيته بتصرف.

عليه أن النبي ﷺ منع من ذلك وقال «لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم  
وصالحهم مساجد».

كراهة الصلاة في المساجد المذكورة ولو لم تقصد من أجل القبر.

قال الألباني: وأما في الحالة الثانية، فلا يتبين لي الحكم ببطلان الصلاة فيها، وإنما  
الكراهة فقط، لأن القول بالبطلان في هذه الحالة لا بد له من دليل خاص، والدليل الذي  
أثبتنا به البطلان في الحالة الأولى لا يمكن سحبه على هذه الحالة، ذلك لأن البطلان في  
الحالة السابقة إنما صح بناء على النهي عن بناء المسجد على القبر، وهذا النهي لا يتصور  
إلا مع تحقق قصد البناء فيصح القول بأن قصد الصلاة في هذا المسجد يبطلها، وأما القول  
ببطلان الصلاة فيه دون قصد، فليس عليه نهى خاص يمكن الاعتماد عليه فيه ولا يمكن  
أن يقاس قياساً صحيحاً به أولياً.

ولعل هذا هو السبب في ذهاب الجمهور إلى الكراهة دون البطلان، أقول هذا معترفاً  
بأن الموضوع يحتاج إلى مزيد من التحقيق، وأن القول بالبطلان محتمل، فمن كان عنده  
علم في شيء من ذلك، فليفضل بيانه مع الدليل مشكوراً مأجوراً.  
وأما القول بكراهة الصلاة في المساجد المبنية على القبور، فهذا أقل ما يمكن أن يقوله  
الباحث، وذلك لأمرين:

الأول: أن في الصلاة فيها تشبهاً باليهود والنصارى الذين كانوا ولا يزالون يقصدون  
التعبد في تلك المساجد المبنية على القبور! (١).

الثاني: أن الصلاة فيها ذريعة لتعظيم المقبور فيها تعظيماً خارجاً عن حد الشرع،  
فينهى عنها احتياطاً وسداً للذريعة، لا سيما ومفاسد المساجد المبنية على القبور ماثلة  
للعيان كما سبق مراراً، وقد نص العلماء على كل من العلتين، فقال العلامة ابن الملك  
من علماء الحنفية:

«إنما حرم اتخاذ المساجد عليها، لأن في الصلاة فيها استئناؤاً بسنة اليهود».

(١) قرأت مقالاً في مجلة «المختار» عدد مايو ١٩٨٥ تحت عنوان «الفاتيكان المدينة القديمة المقدسة»  
يصف فيه كاتبه «رونالد كارلوس بيتن كنيسة بطرس في هذه المدينة فيقول (ص ٤٠):  
«إن كنيسة القديس بطرس وهي أكبر كنيسة من نوعها في العالم المسيحي، تقوم على ساحة مكرّسة  
للعباداة المسيحية منذ أكثر من سبعة عشر قرناً، إنها قائمة على قبر القديس نفسه: صياد السمك، حوارى  
المسيح، وتحت أرضيتها يقع تيه من المقابر الأثرية، والخرائب الرومانية القديمة».  
ثم ذكر أنه يقصدها نحو مائة ألف شخص في أيام الأعياد الكبيرة للعبادة!.

نقله الشيخ القارى فى «المرقاة»<sup>(١)</sup> وأقره، وكذلك قال بعض العلماء المتأخرين من الختفية وغيرهم كما سيأتى .

قلت: ولأن النبى ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» فهذه هى العمومات التى استدلت بها الختابلة وغيرهم على بطلان هذه الأمور . والنذى يصلى فى مساجد فيها قبور فهو عمل عملاً ليس عليه أمر النبى ولا الصحابة «فعمله مردود باطل» . فقول الألبانى أن القول بالبطلان محتمل فهذا الإحتمال قد يترجح أيضاً ويقوى بهذه العمومات . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «القاعدة الجلية»: واتخاذ المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها، كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين، فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد تقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده، لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده، فهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لثلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله . والفعل إذا كان يفضى إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة، ينهى عنه كما نهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة، لما فى ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبه بالمشركين الذى يفضى إلى الشرك، وليس فى قصد الصلاة فى تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع فى غير ذلك من الأوقات، ولهذا تنازع العلماء فى ذوات الأسباب<sup>(٢)</sup> فسوغها كثير منهم فى هذه الأوقات، وهو أظهر قولى العلماء، لأن النهى إذا كان لسد الذريعة أبيض للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه فى هذه الأوقات .

وفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها، فأبيحت لما فيها من المصلحة، بخلاف ما لاسبب له، فإنه يمكن فعله فى غير هذا الوقت، فلا تفوت بالنهى عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسدة توجب النهى عنه . فإذا كان نهيه عن الصلاة فى هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك، لثلا يفضى ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها، كان معلوماً أن دعوة الشمس

(١) (١/٤٧٠) .

(٢) قلت - يعنى الألبانى -: يعنى الصلوات ذوات الأسباب كركعتى تحية المسجد وسنة الوضوء

ونحوها .

والسجود لها هو محرم لنفسه، وأعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لثلاثي يفضى إلى دعاء الكواكب، كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، فهى عن قصد لها للصلاة عندها، لثلاثي يفضى ذلك إلى دعائهم - كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد».

واعلم أن كراهية الصلاة فى هذه المساجد هو أمر متفق عليه بين العلماء، كما سبق بيانه ويأتى، وإنما اختلفوا فى بطلانها، وظاهر مذهب الحنابلة أنها لاتصح، وبه جزم المحقق ابن القيم كما تقدم، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»<sup>(١)</sup>.

«فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم يتعين إزالتها بهدم أو غيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين، وتكره الصلاة فيها من غير خلاف أعلمه، ولا تصح عندنا فى ظاهر المذهب لأجل النهى واللعن الوارد فى ذلك، ولأجل أحاديث آخر، وليس فى هذه المسألة خلاف لكون المدفون فيها واحداً، وإنما اختلف أصحابنا فى المقبرة المجردة عن مسجد، هل حدها ثلاثة أقبور أو ينهى عن الصلاة عند القبر الفذ، وإن لم يكن عنده قبر آخر؟

الجواب: على وجهين:-

قلت: والوجه الثانى هو الذى رجحه فى «الإختيارات العلمية» فقال<sup>(٢)</sup>: «وليس فى كلام أحمد وعامة أصحاب هذا الفرق، بل عموم كلامهم وتعليلهم واستدلالهم يوجب منع الصلاة عند قبر واحد من القبور، وهو الصواب، والمقبرة كل ما قبر فيه، لا أنه جمع قبر.

وقال أصحابنا: وكل ما دخل فى اسم المقبرة مما حول القبور لا يصلى فيه، فهذا يعين أن المنع يكون متناولاً لحرمة القبر المنفرد وفنائه المضاف إليه.

وذكر الأمدى وغيره، أنه لاتجوز الصلاة فيه (أى المسجد الذى قبلته إلى القبر) حتى يكون بين الحائط وبين المقبرة حائل آخر، وذكر بعضهم أنه منصوص أحمد.

قال أبو بكر الأثرم: سمعت أبا عبدالله يعنى أحمد يسأل عن الصلاة فى المقبرة؟ فكره الصلاة فى المقبرة.

قيل له: المسجد يكون بين القبور يصلى فيه؟ فكره ذلك.

(١) (ص: ١٥٩).

(٢) (ص: ٢٥).



قيل له: إنه مسجد وبينه وبين القبور حاجز؟ فكره أن يصلى فيه الفرض، ورحص أن يصلى فيه على الجنائز.

قلت: وحتى لايقول قائل أنه كره أن يصلى فيه الفرض فيصلى فيه النقل فنقول وصلاة النقل أيضاً لاتجوز وإنما تجوز الجنائز، لأنها تجوز أن تُصلي بين القبور بل غالب فعل النى ﷺ أنه كان يصلى على الجنائز عند القبور، وصلاة الجنائز هذه صلاة غير سائر الصلوات فى حكمها وكيفتها فإنها إن جازت عند القبور؛ فلاتجوز صلاة الفريضة عند القبور؛ لأن هذه الصلاة تعرف عن سائر الصلوات فليس فيها ركوع ولا سجود وإنما هى قيام فقط فإن جازت عند القبور فلا يجوز قياس الفرائض والنوافل عليها. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد أيضاً: «لايصلى فى مسجد بين المقابر إلا الجنائز، لأن الجنائز هذه ستها».

قال الحافظ ابن رجب فى «الفتح»: «يشير إلى فعل الصحابة، قال ابن المنذر: قال نافع مولى ابن عمر: صلينا على عائشة وأم سلمة وسط البقيع، والإمام يومئذ أبو هريرة وحضر ذلك ابن عمر»<sup>(١)</sup>. انظر «الكواكب الدرارى»<sup>(٢)</sup>.

ولعل اقتصار الإمام أحمد فى الرواية الأولى على ذكر الفرض فقط لايدل على أن غيره من السنن جائز، فإن من المعلوم أن النوافل صلاتها فى البيوت هو الأفضل ولذلك لم يذكرها مع الفرض، ويؤيده عموم قوله فى الرواية الثانية «لايصلى فى مسجد بين المقابر إلا الجنائز». فهذا نص فيما قلناه.

ويؤيد المنصوص عن أحمد ما تقدم عن أنس:

«كان يكره أن يبنى مسجد بين القبور».

فإنه صريح على أن جدار المسجد لايكفى حائلاً بينه وبين القبر، بل لعل هذا القول ينفى جواز بناء المسجد بين القبور مطلقاً، وهذا هو الأقرب لأنه أحسم لمادة الشرك.

قلت: وقوله «يكره» فى لسان الشرع أى يحرم لأن الله قال فى سورة الإسراء ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ يعنى محرم وفى الحديث. «إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال.....» يعنى أنه محرم.

(١) قلت - يعنى الألبانى -: هذا الأثر أخرجه عبدالرزاق فى «المصنف» (١٥٩٤/٤٠٧/١) بسند صحيح عن نافع به.

(٢) (٢) (٦٥/٨١/١، ٢).

ثم قال ابن تيمية في «الافتضاء»: «وقد كانت البنية التي على قبر إبراهيم عليه السلام مسدودة لا يُدخِل إليها إلى حدود المائة الرابعة، فقيل إن بعض النسوة المتصلات بالخلفاء رأَت في ذلك مناماً فُنقِبَت لذلك! وقيل: إن النصراني لما استولوا على هذه النواحي نقبوا ذلك، ثم تُرِكَ ذلك مسجداً بعد الفتح المتأخرة، وكان أهل الفضل من شيوختنا لا يصلون في مجموع تلك البنية، وينهون أصحابهم عن الصلاة فيها اتباعاً لأمر رسول الله ﷺ، واتقاء لمعصيته كما تقدم».

هكذا كان شيوختهم فيما مضى، وأما شيوختنا اليوم فهم في غفلة من هذا الحكم الشرعي، فكثير منهم يقصدون الصلاة في مثل هذه المساجد، ولقد كنت اذهب مع بعضهم، - وأنا صغير لم اتفقه بالسنة بعد - إلى قبر الشيخ ابن عربي لأصلي معه عنده! فلما أن علمت حرمة ذلك باحث الشيخ المشار إليه كثيراً في ذلك حتى هداه الله تعالى، وامتنع من الصلاة هناك، وكان يعترف بذلك لي، ويشكرني على أن كنت سبباً لهدايته، رحمه الله تعالى وغفر له. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

### كراهة الصلاة في المسجد المبني على القبر ولو دون استقباله

قال الألباني: واعلم أن كراهة الصلاة في المساجد المبنية على القبور مضطردة في كل حال، سواء كان القبر أمامه أو خلفه، يمينه أو يساره، فالصلاة فيها مكروهة على كل حال، ولكن الكراهة تشتد إذا كانت الصلاة إلى القبر، لأنه في هذه الحالة ارتكب المصلي مخالفتين، الأولى في الصلاة في هذه المساجد، والأخرى الصلاة إلى القبر، وهي منهي عنها مطلقاً سواء كان في المسجد أو غير المسجد بالنص الصحيح عن رسول الله ﷺ.

### أقوال العلماء في ذلك

وقد أشار إلى هذا المعنى البخاري بقوله في «الصحيح»: «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، ولما مات الحسن بن الحسين بن علي رضي الله عنه ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت، فسمعوا صائحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يسوا فانقلبوا»<sup>(١)</sup> ثم ساق بعض الأحاديث المتقدمة، فقال الحافظ ابن حجر الشافعي في شرحه:

(١) علقته البخاري (٣/٢٣٨ - الفتح).

«ومناسبة هذا الأثر للباب أن المقيم في الفسطاط لا يدخل من الصلاة هناك، فيلزم اتخاذ المسجد عند القبر، وقد يكون القبر في جهة القبلة فتزداد الكراهة»<sup>(١)</sup>.  
وذكر نحوه العيني الحنفى في «عمدة القارىء»<sup>(٢)</sup>.

وفى «الكوكب الدرى على جامع الترمذى» للشيخ المحقق محمد يحيى الكاندهلوى الحنفى ما نصه<sup>(٣)</sup>:

«وأما اتخاذ المساجد عليها، فلما فيه من التشبه باليهود واتخاذهم مساجد على قبور أنبيائهم وكبرائهم، ولما فيه من تعظيم الميت وشبهه بعسدة الأصنام؛ لو كان القبر في جانب القبلة، وكراهة كونه في جانب القبلة أكثر من كراهة كونه يميناً أو يساراً وإن كان خلف المصلى فهو أخف من كل ذلك، لكن لا يخلو عن كراهة».  
وفى «شرعة الإسلام» من كتب الحنفية ما نصه<sup>(٤)</sup>:

«ويكره أن يبنى على القبر مسجد يصلى فيه».

فهذا باطلاقة يؤيد ما ذكرنا من أقوال العلماء، وتقدم نحوه عن الإمام محمد رحمة الله تعالى<sup>(٥)</sup>.

ففى هذه النقول ما يؤيد ما ذهبنا إليه فى كراهة الصلاة فى المساجد المبنية على القبور مطلقاً، سواء صلى إليها أو لا، فىجب التفريق بين هذه المسألة وبين الصلاة إلى القبر الذى ليس عليه مسجد، ففى هذه الصورة إنما تحقق الكراهة عند استقبال القبر، على أن بعض العلماء لم يشترطوا أيضاً الاستقبال فى هذه الصورة فقال بالمنع من الصلاة حول القبر مطلقاً، كما تقدم قريباً عن الحنابلة، ونحوه فى «حاشية الطحاوى» على «مراقى الفلاح» من كتب الحنفية<sup>(٦)</sup>، وهذا هو اللائق بباب سد الذرائع لقوله ﷺ: «... فمن

(١) ونقل الشيخ محمد بن مخيمر من علماء الأزهر فى «القول المبين» (ص ٨١) عن الحافظ ابن حجر أنه قال فى «شرح الفتح» لحديث ذى الخليفة من «صحيح البخارى» فى الكلام على الغزوات ما نصه:

«وفى الحديث النهى عن الصلاة فى المساجد التى فيها قبور يفتن الناس بها، وأنه يجب إزالتها».

قلت: ولم أره فى المكان المذكور من «الفتح» فيحتمل أن يكون فى موضع آخر منه، والله أعلم.

(٢) (١٤٩/٤).

(٣) (ص: ١٥٣).

(٤) (ص: ٥٦٩).

(٥) (ص: ٥٨).

(٦) (ص: ٢٠٨).

اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع ...» الحديث (١).

قوله: «بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً».

قال سليمان آل الشيخ (٢): أى: فمن الأرض مسجداً، وليست مسجداً مبنياً، لكن لما كان يسجد فيها سميت مسجداً، فدلّ هذا الحديث على أن من صلى عند القبور أو إليها فقد اتخذها مساجد. وهذا الحديث طرف من حديث صحيح متفق عليه عن جابر.

قال البغوى فى «شرح السنة» أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا فى بيعهم وكنائسهم، وأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفاً عليهم، وتيسيراً، ثم خصّ من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): فقوله «مسجداً» أى: مكاناً للسجود. اهـ.

وهذا معنى ثالث زائد على المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شىء تصلى فيه؛ فإنه مسجد ما دمت تصل فيه، كما يقال للسجادة التى تصلى عليها مسجد أو مُصلّى وإن كان الغالب عليها اسم مُصلّى.

قلت: وكل مكان أو موضع يصلى فيه يسمى مسجداً كما قال ﷺ «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً».

قال سليمان آل الشيخ (٤):

قوله: (طهوراً): أراد به التيمم.

وفى حديث جندب من الفوائد أيضاً:

العبرة فى مبالغته ﷺ فى النهى عن بناء المساجد على القبور، كيف بين لهم ذلك أولاً، ثم قيل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان فى النزاع لم يكتف بما تقدّم، بل لعن من فعل ذلك فدلّت هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة على تحريم البناء على القبور مطلقاً، فلذلك اكتفى المصنف بإيرادها عن غيرها كحديث جابر.

مسألة:

قال الفقير: لو أن رجلاً بنى بناءً على قبر (مسجد) ومنع الناس أن يصلوا فيه، فهل

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٤٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٤٢.

(١) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ١/٥١٩.

هذا محرّم أم لا؟ وما الدليل؟ وهل ينهى عن فعله هذا أم لا؟ وهل هو بفعله هذا يدخل في زمرة الذين اتخذوا القبور مساجد؟.

الجواب: هذه الفعلة منهي عنها لوجوه:

الأول: أن هذا نص من نصوص الحديث «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ومن صور الاتخاذ البناء عليها، وهو قد بنى عليها وإن لم يصل فيها.

الثاني: أنه وإن منع الصلاة فيها فإنه لم يمنع البناء عليها وإن كان بغير قصد الصلاة فيه، لأن ذلك ذريعة للصلاة فيه فيما بعد.

الثالث: أن هذا من باب إضاعة المال.

الرابع: أنه مسجد وإن لم يصل فيه لأن الأرض كلها مسجد وإن لم يصل فيها، كذلك صورة هذا المسجد يطلق عليها كما تطلق على الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ فسامها مسجد برغم خرابها ومنه ذكر اسم الله عليها. والله أعلم.

قوله: «وهي معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً».

الضمير في «قولها» يرجع إلى عائشة<sup>(١)</sup>.

قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا لينوا حول قبره مسجداً».

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٢)</sup>.

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٣)</sup>: أى: لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه، ولعن من فعله، فكيف يتخذون على قبره مسجداً؟ وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهال للصلاة عنده، من غير شعور من الصحابة بذلك، فلذلك دفنوه في بيته.

قال ابن عثيمين<sup>(٤)</sup>: قد يُقال: «خشي أن يتخذ مسجداً» معناه: خشي أن يبنى عليه مسجد، لكن يبعد أن الصحابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجداً؛ لأن مسجده مجاور لبيته؛ فكيف يبنون مسجداً آخر؟! هذا شيء مستحيل بحسب العادة؛ فيكون معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»؛ أى: مكاناً يصلّى فيه، وإن لم يبن المسجد.

ولاريب أن أصل تحريم بناء المساجد على القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلى الناس في مسجد بنى على قبر؛ فكأنهم صلّوا عند

(١) القول المفيد ١/٥١٨.

(٢) القول المفيد ١/٥١٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٢).

(٤) القول المفيد ١/٥١٨ و٥١٩.

القبر، والمحذور الذى يوجد فى بناء المساجد على القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة؛ وإن لم بين مسجد.

فتبين بهذا أن اتخاذ القبور مساجد له معينان:

الأول: أن تبنى عليها مساجد.

الثانى: أن تتخذ مكاناً للصلاة عندها وإن لم بين المسجد، فإذا كان هؤلاء القوم مثلاً يذهبون إلى هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلى؛ فإن هذا بمعنى بناء المساجد عليها، وهو أيضاً من اتخاذها مساجد.

قلت: وتقدم معنى ثالث للإتخاذ وهو الصلاة إليها.

قوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد أخذ مسجداً» إلى آخره.

قال سليمان آل الشيخ: أى وإن لم بين مسجداً.

قال عبدالرحمن آل الشيخ<sup>(١)</sup>: أى وإن لم يبين مسجد بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجداً، يعنى وإن لم يقصد بذلك، كما إذا عُرِض لمن أراد أن يُصلى فأوقع الصلاة فى ذلك الموضع الذى حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار يفعل الصلاة فيه مسجداً.

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: قوله: بل كل موضع يصلى فيه فقد اتخذ مسجداً، الظاهر أن الأول فى الأمكنة المعدة للصلاة، وإن لم بين فيها مسجداً وهذا فى أى موضع صلى فيه، وإن يعد لذلك كالمواضع التى يصلى فيها المسافر ونحو ذلك، فعلى هذا إذا صلى عند القبور ولو مرة واحدة وإن لم يكن هناك مسجد فقد اتخذها مساجد.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: وهذا يشهد له العرف؛ فإن الناس الذين لهم مساجد فى مكان أعمالهم، كالوزارات والإدارات لو سألت واحداً منهم أين المسجد؟ لأشار إلى المكان الذى اتخذوه مصلى يصلون فيه، مع أنه لم يبين، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه، صار يُسمى مسجداً.

ما علاقة أول الحديث بآخره؟

قال الفقير: أن من أمارات شر هؤلاء أنهم اتخذوا القبور مساجد، وزن ذلك سيكثر قبل قيام الساعة وأن اتخاذ القبور مساجد من علامات الساعة أيضاً. يدل على ذلك ما ثبت فى الصحيح فى باب «لاتقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور» عن أبى هريرة رضى

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٤٢).

(١) فتح المجيد ٣٠١.

(٣) القول المفيد ٥١٩/١.

الله عنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه»<sup>(١)</sup> والذي بعده فى باب «تغير الزمان حتى تعبد الأوثان» وفيه أيضاً عن أبى هريرة قال رضي الله عنه: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب إلياتُ نساء دوس بذى الخلصة»<sup>(٢)</sup> صنم لدوس. أى ستعبد الأوثان مرة ثانية. والقبور من الأوثان لأن الوثن هذا أعم من الصنم. لأن الوثن يشمل كل ما عبد على شكل صورة أو على غير شكل صورة. أم الصنم فيختص بمن له صورة من إنسان أو حيوان والوثن أعم فيشمل ماله صورة أو مالمس له صورة فيدخل فيه القبر. لاسيما وأن الباب القادم يسمى «باب ما جاء فى أن عبادة الله عند قبر الصالحين يصيرها أوثاناً». فعبادة الأوثان ستكثر قبل قيام الساعة بل الناس سترتد ثانية إلى الوثنية.

وذكر ابن حجر فى هذا الحديث ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: «لا تقوم الساعة حتى تتدافع مناكب نساء بنى عامر على ذى الخلصة» وأخرج بن عدى من رواية أبى معشر عن سعيد عن أبى هريرة رفعه: «لا تقوم الساعة حتى تعبد اللات والعزى»<sup>(٣)</sup> فإذا كانت اللات والعزى ستعبد فمن باب أولى القبور ستعبد أيضاً.

إذن يوجد علاقة بين قرب الساعة ووجود شرار الخلق ووجود الأوثان.

وفى رواية عند مسلم «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» وفيه «فبيعت الله ربحاً طيبة فتوفى كل من فى قلبه مثقال حبه من خردل. من إيمان فيبقى من لا خير فيهم فيرجعون إلى دين أبائهم»<sup>(٤)</sup> وأيضاً فى رواية عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «يخرج الدجال فى أمتى» وفيه «فبيعت الله عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين فى زمن عيسى عليه السلام بعد موت الدجال فيرسل الله ربحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من حبه من خير أو إيمان إلا قبضتها فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع» «لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ثم ينفخ فى الصور».



(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/٢٦١/٥٣) عن أبى هريرة به.

(٢) سبأى تخريجه.

(٣) أخرجه ابن عدى فى «الكامل» (٧/٥٣).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الفتن» (١/٢٦٠/٥٢) عن عائشة به.

وَأَحْمَدَ بَسْنَدَ جَيْدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شَرَّارِ النَّاسِ مَنْ تَذَرُكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ» (١).

قوله: [ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه..... الحديث].

قلت: الحديث كما بينا فى الحاشية أخرجه أحمد وابن خزيمة وابن حبان والطبرانى فى «الكبير» والبخارى، وحسنه الهيثمى، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وعزوه لأبى حاتم فى «صحيحه». أى ابن حبان فى صحيحه. قوله: [مرفوعاً].

قال ابن عثيمين: المرفوع ما أسند إلى النبي ﷺ.

قوله: «إن من شرار الخلق».

قال سليمان آل الشيخ (٢): «شرار» هو بكسر الشين، جمع شر. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): من للتبعض، وشرار: جمع شر، مثل صحاب جمع صحب، والمعنى: أصحاب الشر، وفى هذا دليل على أن الناس يتفاوتون فى الشر، وأن بعضهم أشد من بعض.

كما أنهم يتفاوتون فى الخير أيضاً لقوله تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. وذلك من حيث الكمية، فمن صلى ركعتين، فليس كمن صلى أربعاً. ومن حيث الكيفية فمن صلى وهو قانت خاشع حاضر القلب، ليس كمن صلى وهو غافل.

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٠٥/١، ٤٣٥)، (٤١٤/٣)، وابن خزيمة فى «صحيحه» (٧٨٩)، وابن حبان فى «صحيحه» (٢٩٩/٨).

من طريق زائدة، عن عاصم بن أبى النجود، عن شقيق، عن عبدالله بن مسعود به.

وذكره الهيثمى فى «المجمع»: (٢٧/٢) وقال: رواه الطبرانى فى «الكبير» وإسناده حسن وفى (١٣/٨) قال: رواه البخارى بإسنادين فى أحدهما عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح.

قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وانظر «فتح المجيد» (٣٦٦) - بتخریجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٤٣).

(٣) القول المفيد ٥٢٢/١.



ومن حيث النوعية، فالفرض أفضل من النفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة، لأن الصلاة أفضل الأعمال البدنية، وهذا الذى تدل عليه الأدلة هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل فى الأعمال، حتى فى الإيمان الذى هو فى القلب يتفاضل الناس فيه، بل إن الإنسان يحس فى نفسه أنه فى بعض الأحيان يجد فى قلبه من الإيمان ما لا يجده فى بعض الأحيان فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر اهـ.

قوله: «من تدرکہم الساعة وهم أحياء».

قال سليمان آل الشيخ<sup>(١)</sup>: أى من تقوم عليهم الساعة بحيث ينفخ فى الصور وهم أحياء، وهذا كالحديث الآخر الذى فى مسلم: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

قال عبد الله بن جار الله<sup>(٢)</sup>: معنى تدرکہم الساعة: علاماتها ومقدماتها كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها. اهـ.

قال ابن عثيمين<sup>(٣)</sup>: من اسم موصول اسم إن، والساعة، أى: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية وكل شىء داهية عظيمة يسمى ساعة، كما يقال: هذه ساعتك فى الأمور الداهية التى تصيب الإنسان اهـ.

قال القرعاوى<sup>(٤)</sup>: «إن من شرار الناس من تدرکہم الساعة» أى أن الساعة لا تقوم إلى على شرار الناس. اهـ.

إشكال وجوابه

فإن قلت: ما الجمع بين هذا وبين حديث ثوبان:

«لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق»<sup>(٥)</sup> وما فى معناه.

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٦)</sup>: قيل: حديث ثوبان مستغرق للأزمة، عام فيها، وهذا مخصص.

قلت: وهو مؤدى قول ابن بطال كما نقله الحافظ فى «الفتح».

قال ابن عثيمين<sup>(٧)</sup>: والجمع بينهما أن يُقال:

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٤٣).

(٢) الجامع الفريد (٨٥).

(٣) القول المفيد ١/٥٢٢.

(٤) الجديد (١٩١).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٧/٧٤/١٧٠) عن ثوبان.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٢٤٣. (٧) القول المفيد ١/٥٢٣.

إنَّ المراد بقوله: «حتى تقوم الساعة»؛ أى: إلى قرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق؛ فالله يُرسل ريحاً تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقى إلا شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة.

قال ابن حجر<sup>(١)</sup>: المراد بقوله: «حتى تأتيهم الساعة» ساعتهم هم، وهى وقت موتهم بهبوب الريح والله أعلم.

قلت: وهو أفضل من الأوّل.

قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد».

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٢)</sup>: قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد» الذين فى محل نصب عطفاً على من الموصولة، أى: إن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد، بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها.

وهذا المعنى متواتر عن النبى ﷺ، معلوم بالاضطرار من دينه وكل ذلك شفقة على الأمة وخوفاً عليهم أن يقودهم ذلك إلى الشرك بها وبأصحابها، كما قاد إلى ذلك اليهود والنصارى. فأبى عباد القبور إلا الضرب بهذه الأحاديث الجدار ونبذها وراء الظهر، أو الدفع فى صدورهم وأعجازها بحمل ذلك على غير قبور الأنبياء والصالحين. أما قبورهم فتجوز الصلاة إليها وعندها، وبناء المساجد والقباب عليها ورجاء أن تصل إليهم العواطف الروحانية. ولا ريب أن هذا مراغمة ومحادة لله ورسوله، وهذا من قول اليهود: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾<sup>(٣)</sup> فإن النبى ﷺ إنما لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، كما هو نص حديث عائشة رضى الله عنها وغيره، وقبور غيرهم إنما أخذ النهى عن البناء عليها من هذه الأحاديث ونحوها بقياس الأولى، أو من عموم أحاديث آخر، فمن أعظم المراغمة والمناسبة والمحادة لله ورسوله، أن تحمل على غير ما وردت فيه، ويباح ما وردت بالنهى عنه، ولعن من فعله، ولكن شأن عباد القبور ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> وقد أجمع العلماء على النهى عن البناء على القبور وتحريمه ووجوب هدمه لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة، التى لامطن فيها بوجه من الوجوه ولا فرق فى ذلك بين البناء فى مقبرة مسبلة، أو إلا أنه فى المملوكة أشد ولا عبرة بمن شذ من المتأخرين فأباح ذلك إما مطلقاً، وإما فى المملوكة.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٤٣: ٢٤٨.

(١) الفتح ١٣/٨٣.

(٣) البقرة: ٩٣.

(٤) سورة القصص: الآية ٥٠.

قال الإمام أبو محمد بن قدامة: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور.  
لأن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (١).  
إلى أن قال: فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو المملوم وغيرهم  
تتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين.  
وقال ابن القيم: يجب هدم القباب التي على القبور لأنها أسست على معصية الرسول  
ﷺ.

وقال أبو حفص: تحرق الحجرة بل تهدم. فإذا كان هذا كلامه في الحجرة فكيف  
بالقبة.

وقال الشافعي: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه،  
وعلى من بعده من الناس.

وقال أيضاً: تسطح القبور ولا تبنى ولا ترفع، وتكون على وجه الأرض.  
وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية، منهم ابن الجمیزی  
والظهير الترميني وغيرهما.

وقال القاضي ابن كج: ولا يجوز أن تخصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب ولا  
غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذرعى: وأما بطلان الوصية ببناء.

القباب وغيرها من الأبنية العظيمة، وإنفاق الأموال الكثيرة، فلاريب في تحريمه.  
قلت أي سليمان آل الشيخ: وجزم النووي في «شرح المذهب» بتحريم البناء مطلقاً،  
وذكر في «شرح مسلم» نحوه أيضاً.

وقال القرطبي في حديث جابر: نَهَى أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ أَوْ يُسْنَى عَلَيْهِ وَيُظَاهَرُ هَذَا  
الحديث (٢).

قال مالك: وكره البناء والجص على القبور.

ووجه النهي عن البناء والتجصيص في القبور أن ذلك مباهاة واستعمال زينة الدنيا في  
أول منازل الآخرة وتشبه بمن كان يعبد القبور ويعظمها، وباعتبار هذه المعاني وبظاهر  
هذا النص ينبغى أن يقال: هو حرام، كما قال به بعض أهل العلم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنايز (٧/٣٧ - النووي) عن جابر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٧٠ - بتخريجنا).

وقال ابن مرشد: كره مالك البناء على القبر، وجعل البلاطة المكتوبة وهو من بدع أهل الطول. أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه. اهـ.

قال عبدالله بن جبار الله<sup>(١)</sup>: ومعنى اتخاذ القبور مساجد: الصلاة عندها، وإليها، وبناء المساجد عليها كما تقدم. اهـ.

قال ابن عثيمين<sup>(٢)</sup>: قوله: (الذين يتخذون القبور مساجد) فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة وإن كانت وسيلة لمحرّم، فهي محرمة.

فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:-

الأول: الذين تدرّكهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد. اهـ.

#### ● المفاسد المترتبة على بناء المساجد على القبور:

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٣)</sup>: واعلم أنه قد وقع بسبب البناء على القبور من المفاسد التي لا يحيط بها على التفصيل إلا الله، ما يغضب لله من أجله كل من في قلبه رائحة إيمان، كما نبه عليه ابن القيم وغيره.

منها: اعتيادها للصلاة عندها، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

ومنها: تحرى الدعاء عندها. ويقولون: من دعا الله عند قبر فلان استجاب له، وقبر فلان الترياق المجرّب، وهذا بدعة منكّرة.

ومنها: ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النعماء. ويقولون: إن البلاء يدفع عن أهل البلدان بقبور من فيها من الصالحين، ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسنة والإجماع. فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله، فلما عصوا الرسول وخالفوا ما أمرهم الله به، سلط الله عليهم من انتقم منهم. وكذلك أهل المدينة لما تغيروا بعض التغيير، جرى عليهم عام الحرة النهب والقتل وغير ذلك من المصائب مالم يجر عليهم قبل ذلك. وهذا أكثر من أن يحصر.

(١) الجامع الفريد (٨٥).

(٢) القول المفيد (١/٥٢٣).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨).

ومنها: الدخول في لعنة رسول الله ﷺ، باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.  
ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد، وخراب المساجد. كما هو الواقع ودين الله  
بضد ذلك.

ومنها: اجتماعهم لزيارتها واختلاط النساء بالرجال، وما يقع في ضمن ذلك من  
الفواحش وترك الصلوات. ويزعمون أن صاحب<sup>(١)</sup> التربة تحملها عنهم، بل اشتهر أن  
البغايا يسقطن أجزتهن على البغاء في أيام زيارة المشايخ، كالبدوى وغيره تقرباً إلى الله  
بذلك، فهل بعد هذا في الكفر غاية.

ومنها: كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك.

ومنها: جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف لما يحتاج إليه من ترميمها ونحو ذلك،  
ومنها: إهداء الأموال ونذر النذور لسدنتها العاكفين عليها الذين هم أصل كل بلية وكفر،  
فإنهم الذين يكذبون على الجهال والطغام بأن فلاناً دعا صاحب التربة فأجابته، واستغاثة  
فأغاثته، ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم.

ومنها: جعل السدنة لها كسدنة عباد الأصنام.

ومنها: الأقسام على الله في الدعاء بالمدفون فيها.

ومنها: أن كثيراً من الزوار إذا رأى البناء الذي على قبر صاحب التربة سجد له.  
ولاريب أن هذا كفر بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هذا هو عبادة الأوثان، لأن  
السجود للقبّة عبادة لها، وهو من جنس عبادة النصارى للصور التي في كنائسهم على  
صور من يعبدونه بزعمهم الباطل، فإنهم عبدوها ومن هي صورته، وكذلك عباد القبور  
لما بنوا القباب على القبور آل بهم إلى أن عبدت القباب ومن بنيت عليه من دون الله عزّ  
وجلّ.

ومنها: النذر للمدفون فيها، وفرض نصيب من المال والولد؛ وهذا هو الذي قال الله -  
عز وجل - فيه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ  
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾<sup>(٢)</sup> الآية. بل هذا أبلغ فإن المشركين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم.  
ومنها: أن المدفون فيها أعظم في قلوب عباد القبور من الله وأخوف، ولهذا لو طلبت  
من أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً، وإذا طلبت

(١) أي الولي المزعوم.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.

بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذباً. ولا ريب أن عباد الأوثان ما بلغ شركهم إلى هذا الحد، بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين غلظوها بالله كما في قصة القسامة وغيرها.

ومنها: سؤال الميت قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والإخلاص له من دون الله في أكثر الحالات.

ومنها: التضرع عند مصارع الأموات والبكاء بالهية والخشوع لمن فيها أعظم مما يفعلونه مع الله في المساجد والصلوات.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله وهي المساجد؛ فيعتقدون أن العبادة والعكوف فيها أفضل من العبادة والعكوف في المساجد؛ وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين فإنهم يعظمون المسجد الحرام أعظم من بيوت الأصنام يرون فضله عليها، وهؤلاء يرون العكوف في المشاهد أفضل من العكوف في المساجد.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ في زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة.

كما قال: «زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ»<sup>(١)</sup> والإحسان إلى المزارع بالترحم عليه والدعاء له والاستغفار، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت فقلب عباد القبور الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاء والدعاء به، وسؤاله حوائجهم ونصرهم على الأعداء ونحو ذلك.

فصاروا مسيئين نفوسهم وإلى الميت ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله من الدعاء والترحم والاستغفار له.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القبور بها، فإنه يؤذيهم ما يفعلونه عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة. كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرأون منه كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَئِيَسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ».

ومنها: محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكبير، والإثم العظيم، وكل هذه المفاصد العظيمة وغيرها مما لم يذكر، إنما حدثت بسبب البناء على القبور، ولهذا تجدد القبور التي ليس

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة الأحقاف: ٦.

## فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

عليها قباب لا يأتيها أحد ولا يعتادها لشيء مما ذكر إلا ما شاء الله، وصاحب الشرع أعلم بما يؤول إليه هذا الأمر؛ فلذلك غلظ فيه وأبدأ وأعاد، ولعن من فعله، فالخير والهدى في طاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته.

والعجب ممن يشاهد هذه المفاصد العظيمة عند القبور، ثم يظن أن النبي ﷺ إنما نهى عن اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة كما يظنه بعض متأخري الفقهاء، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر المجازر والحشوش بل ذكر التحرز من البول والغائط أولى. وإنما لأجل نجاسة الشرك التي وقعت من عباد القبور لما خالفوا ذلك: ﴿فَنَبِّدُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١).

وخلاصة الباب:

قال ابن عثيمين: أنه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلظ على من عبد الله عند قبر رجل صالح.

وكلام المؤلف رحمه الله في قوله: «عبدالله» يشمل الصلاة وغيرها والأحاديث التي ساقها في الصلاة، - لكنه رحمه - الله كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره؛ فهو شبيه بمن اتخذ مسجداً لأنه يرى أن لهذه البقعة أو لمن فيها شأنًا يفضل به على غيره؛ فالشيخ عمم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدل بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: إن الشيخ أراد بذلك أن العلة هي تعظيم هذا المكان؛ لكونه قبراً، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات؛ فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النص لها لفظاً.



فيه مسائل:

● الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحَّت نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

(١) آل عمران: ١٨٧.

الثانية: النهى عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

قال ابن عثيمين: تؤخذ من لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قوله: «ولو صحَّت نية الفاعل»؛ لأن الحكم علق على مجرد صورته؛ فهذا العمل لا يحتاج إلى نية لأنه معلق بمجرد الفعل.

فالنية تؤثر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطى أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما علق على فعل مجرد؛ فلا حاجة فيه إلى النية.

أى: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتباراً بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتب على ذلك، وهذه النقطة تدرج منها إلى نقطة أخرى، وهى التحذير من مشابهة المشركين اهـ.

قلت: بغض النظر عن نيتهم لحديث النهى عن الصلاة عند غروب الشمس.

ثم قال: وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس، حيث يظن أن التشبه إنما يحرم إذا قصدت المشابهة، والشرع إنما علق الحكم بالتشبه؛ أى: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء فى مسألة التشبه: وإن لم ينو ذلك؛ فإن التشبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة «إنما الأعمال بالنيات»<sup>(١)</sup> هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب: لاتعارضه؛ لأن ما علق بالعمل ثبت له حكمه وإن لم ينو الفعل؛ كالأشياء المحرمة؛ كالظهار، والزنا، وما أشبهها.

● الثانية: النهى عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك.

تؤخذ من قوله: «وصوروا فيه تلك الصور»<sup>(٢)</sup>، ولاسيما إذا كانت هذه الصورة معظمة عادة؛ كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم.

أو شرعاً، مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك.

● الثالثة: العبرة فى مبالغته ﷺ فى ذلك، كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟! ثم لما كان فى السياق لم يكتف بما تقدم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.



## الرابعة: نَهْيُهُ عَنِ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ.

وهذا ممّا يدلّ على حرص النبي ﷺ على حماية جانب التوحيد؛ لأنّه خلاصة دعوة الرسل، ولأنّ التوحيد أعظم الطاعات؛ فالمعاصي ولو كبرت أهون من الشرك، حتى قال ابن مسعود: «لأنّ أحلف بالله كاذباً أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً»<sup>(١)</sup>؛ لأنّ الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذباً معصية، وهى أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جداً، ونحن نحذّر إخواننا المسلمين ممّا هم عليه الآن من الإنكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خلّقوا له، واشتغلوا بما خلّق لهم؛ فعامّة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا، ليس فى أفكارهم إلاّ الدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا فى الحقيقة نوع من الشرك؛ لأنّه يوجب الغفلة عن الله - عزوجل -، ولهذا سمّى النبي ﷺ من فعل ذلك عبداً لما تعبّد له، فقال: «تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميسة، تعس عبدالخميلة»<sup>(٢)</sup>، ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قدّر له من الدنيا؛ فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غاية وأنت لاتدرى مقامك فيها؟! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا      ويوم نساء ويوم نسرّ

فالحاصل: أنّ النبي ﷺ بلعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصاً على سدّ كلّ الأبواب التى تؤدى إلى الشرك؛ فالرسول ﷺ حذّر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: فى سائر حياته.

والثانية: قبل موته بخمس.

والثالثة: وهى فى السياق.

● الرابعة: نهيهِ عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

تؤخذ من قوله ﷺ: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد»؛ فإنّ قبره داخل فى ذلك بلاشك، بل أول ما يدخل فيه.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيأتى تخريجه.

الخامسة: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

السادسة: لَعْنَةُ إِيَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

السابعة: أَنَّ مَرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُهُ إِيَانَا عَنْ قَبْرِهِ.

الثامنة: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

التاسعة: فِي مَعْنَى اتَّخَاذِهَا مَسْجِدًا.

العاشرة: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنْ اتَّخَاذَهَا مَسْجِدًا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ

الذَّرِيعَةَ إِلَى الشُّرْكِ قَبْلَ وَقُوعِهِ مَعَ خَاتَمَتِهِ.

● الخامسة: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

تُؤَخَذُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدًا»، وَبِئْسَ رِجَالًا جَعَلَ إِمَامَهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَتَشَبَهَ بِهِمْ فِي قَبِيحِ أَعْمَالِهِمْ.

● السادسة: لَعْنَةُ إِيَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

تُؤَخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى».

● السابعة: أَنَّ مَرَادَهُ تَحْذِيرُهُ إِيَانَا عَنْ قَبْرِهِ.

تُؤَخَذُ مِنْ قَوْلِ عَائِشَةَ: «يُحْذَرُ مَا صَنَعُوا»؛ أَيْ: مَا صَنَعَهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

● الثامنة: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

تُؤَخَذُ مِنْ قَوْلِ عَائِشَةَ: «وَلَوْلَا ذَلِكَ أَبْرَزَ قَبْرَهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا».

هَنَّاكَ عِلَّةٌ أُخْرَى، وَهِيَ: إِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمُوتُ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يَمُوتُ، وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَكَمِ عِلَّتَانِ، كَمَا لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِلْعِلَّةِ حَكْمَانِ. قُلْتُ: لَكِنْ تَقْدِمُ أَنَّ الْحَدِيثَ ضَعِيفٌ.

● التاسعة: فِي مَعْنَى اتَّخَاذِهَا مَسْجِدًا.

سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا أَنَّ لَهَا مَعْنَيْنِ:

١- بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا.

٢- اتَّخَاذِهَا مَكَانًا لِلصَّلَاةِ تَقْصِدُ فِيصَلِّيَ عِنْدَهَا، بَلْ إِنَّ مَنْ صَلَّى عِنْدَهَا وَلَمْ يَتَّخِذْهَا لِلصَّلَاةِ؛ فَدِ اتَّخَاذِهَا مَسْجِدًا بِالْمَعْنَى الْعَامِ. اهـ.

قُلْتُ: أَنَّ لَهَا مَعْنَى ثَالِثَ وَهِيَ الصَّلَاةُ إِلَيْهَا.

● العاشرة: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنْ اتَّخَاذَهَا مَسْجِدًا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِ السَّاعَةُ؛ فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ

إِلَى الشُّرْكِ قَبْلَ وَقُوعِهِ مَعَ خَاتَمَتِهِ.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمسة الرّد على الطائفتين اللتين هما أشرُّ أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

قوله: «إنه قرن.. إلخ» وهي: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

وقوله: [مع خاتمته] ومعنى هذا أن الرسول ﷺ ذكر التحذير من الشرم قبل أن يموت.

● الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمسة الرّد على الطائفتين اللتين هما أشرُّ أهل البدع.

قوله: «قبل أن يموت بخمس».

أى: خمس ليال، والعرب يعبرون عن الأيام بالليالي وبالعكس.

قوله: «أشرُّ أهل البدع».

يقال: أشر، ويقال: شر؛ بحذف الهمزة، وهو الأكثر استعمالاً.

وإنما تكلم المؤلف رحمه الله عن حال الرافضة والجهمية وحكهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس على معرفتهما والاطلاع عليهما؛ لأن الإنسان إذا ذكر له الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه؛ صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلى هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد على الرافضة والجهمية؛ فلا يكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلم عن حالهما وحكهما أولاً.

وحالهما: أنما أشر أهل البدع.

وحكهما: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقال: هما وزيراً جدي. فرفضوه وتركوه، وكانوا في السابق معه، لكن لما قال الحق المخالف لأهوائهم؛ نفروا منه والعياذ بالله، فسموا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبدالله بن سبأ، وهو يهودى تلبس بالإسلام، فأظهر التشيع لآل البيت والعلو فيهم ليشغل الناس عن دين الإسلام ويفسده كما أفسد بولص دين النصراني عندما تلبس بالنصرانية.

وأول ما أظهر ابن سبأ بدعته في عهد علي بن أبي طالب، حتى إنه جاءه وقال: أنت الله حقاً - والعياذ بالله - فأمر علي بالأخذود فحُفرت، وأمر بالخطب فجمع، وبالنار فأوقدت، ثم أحرقتهم بها؛ إلا أنه يُقال: إنَّ عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته؛ فالله أعلم.

فالمهم أن علياً رضى الله عنه رأى أمراً لم يحتمله، حيث ادعوا فيه الألوهية فأحرقهم بالنار إحراقاً، ثم بدأت لهذه الفرقة الخبيثة تتكاثر؛ لأنَّ شعارها في الحقيقة النفاق الذي يسمونه التقيّة، ولهذا كانت هذه الفرقة أخطر ما يكون على الإسلام؛ لأنَّها تتظاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة؛ كتحرير الخمر وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه في الباطن؛ فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء - وأنهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوى الإسلام.

ولذلك يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كثير من كتبه قولاً إذا اطلع عليه الإنسان عرف حالهم: «إنهم أشد الناس ضرراً على الإسلام، وأنهم هجروا المساجد وعمروا المشاهد»؛ فهم يقولون: لا نُصلي جماعةً إلا خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أول من بنى المشاهد على القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول على الإطلاق - وهما أبو بكر وعمر - بالنفاق، وأنهما ماتا على ذلك؛ كعبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه والعياذ بالله؛ فإنظر بماذا تحكم على هؤلاء بعد معرفة معتقدهم ومنهجهم؟!

وأما الجهمية؛ فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنه أنكر صفات الله، وقال: إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً؛ فأنكر المحبة والكلام، ثم بدأ هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية؛ كالمعتزلة ومتأخري الرافضة؛ لأنَّ الرافضة كانوا بالأول مشبهة، ولهذا قال أهل العلم: أول من عُرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضي، ثم تحوَّلوا من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت الذي أخذها عن ليبد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ؛ فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إنَّ الجهم بن صفوان نشأ في بلاد خراسان، وفيها كثير من الصابئة وعباد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضاً ما أخذ، فصارت هذه البدعة مركبة من اليهودية والصابئة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة في الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهمية معطلة في الصفات ينكرون الصفات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التي يضيفها الله -

سبحانه- إلى نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته؛  
فالسَّميع عندهم بمعنى من خلق السَّمع في غيره والبصير كذلك، وهكذا.

ومنهم من أنكّر أن يكون الله متّصفاً بالإثبات أو العدم، فقالوا: لا يجوز أن نثبت  
الله صفة أو ننفي عنه صفة؛ حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنّه موجود ولا إنّه  
معدوم؛ لأنّنا إن قلنا بأنه موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا بأنه معدوم شبهناه  
بالمعدومات؛ فنقول: لا موجود ولا معدوم؛ فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا  
يمكن؛ لأنّ تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا  
اجتماعهما، بل لا بد أن يوجد أحدهما، فوصف الله بذلك تشبيه له بالمتنوعات على  
قاعدتهم.

ومذهبهم في القضاء والقدر: الجبر، فيقولون: إنّ الإنسان مجبر على عمله يعمل  
بدون اختياره إن صلّى؛ فهو مجبر، وإن قتل؛ فهو مجبر، وهكذا؛ فعطّلوا بذلك حكمة  
الله لأنّه إذا كان كل عامل مجبراً على عمله لم يكن هناك حكمة في الثواب والعقاب،  
بل بمجرد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطّلوا عن الفاعلين أوصاف المدح  
والذم، فلا يمكن أن تمدح إنساناً أو تذمّه؛ لأنّ العاصي مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنكم إذا قلتم ذلك أثبتتم أن الله أظلم الظالمين؛ لأنّه كيف يعاقب  
العاصي وهو مجبر على المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته؟ فيكون أعطى من  
لا يستحق، ومنع من يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم؛ لأنّ الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من  
المالك في ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنّه باطل؛ لأنّ المالك إذا كان متّصفاً بصفات الكمال لن يخلف وعده،  
وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا  
هَضْمًا ﴾ (١)، فلو أخلف هذا الوعد؛ لكان نقصاً في حقه وظلماً لخلقه، حيث وعدهم  
فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين الإرجاء، فيقولون: إنّ الإيمان مجرد اعتراف  
الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأنّ الأقوال  
والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إنّ أفسق وأعدل عباد الله في الإيمان سواء، بل قالوا:  
إنّ فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر؛ لأنّه  
ادعى الربوبية لنفسه فقط، فصار بذلك كافراً.

الثانية عشرة: مَا بَلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزَعِ.

الثالثة عشرة: مَا أَكْرَمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان

فمذهبه من أحبب المذاهب إن لم تقل أحببها، لكن أحبب منه مذهب الرافضة، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن جميع البدع أصلها من الرافضة»؛ فهم أصل البلية في الإسلام، ولهذا قال المؤلف: «أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة»، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين فرقة، أو أن الصواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين؛ أي: أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه؛ لأن المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي من كانت على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وصدق رحمه الله في قوله عن هاتين الطائفتين الرافضة والجهمية: «شر أهل البدع». وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيار لأنه أظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: «وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد»، ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أن البدع دركات بعضها أسفل من بعض؛ فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعاً لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

● الثانية عشرة: مَا بَلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزَعِ.

تؤخذ من قولها: «طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها»، وفي هذا دليل على شدة نزعه، وهكذا كان الرسول ﷺ يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان<sup>(١)</sup> من الناس، وهذا من حكمة الله - عز وجل -؛ فهو ﷺ شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأوذى إيذاءً عظيماً، وكذلك أيضاً فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك لأجل أن ينال أعلى درجات النبر؛ لأن الإنسان إذا ابتلى بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

والصبر درجة عالية لا تنال إلا بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء؛ فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

● الثالثة عشرة: مَا أَكْرَمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

(١) [صحيح] أخرجه: البخارى. (٥٦٤٧)، ومسلم فى البر والصلة (٨/ ٤٥/٣٧).

- الرابعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مِنَ الْمَحَبَّةِ.
- الخامسة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصَّدِيقَ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ.
- السادسة عشرة: الإِشَارَةُ إِلَى خِلافَتِهِ.

ويدل عليها قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»<sup>(١)</sup>، ولا شك أن هذه الكرامة عظيمة؛ لأننا لانعلم أحداً نال هذه المرتبة إلا رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

● الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

ودليل ذلك أنه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحب الناس إليه؛ فثبت له المحبة، ونفى عنه الخلة؛ فدل هذا على أنها أعلى من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره؛ فقد ورد من حديث آخر أنه صرح: «بأن أبا بكر أحب الرجال إليه»<sup>(٢)</sup>، ثم قال هنا: «لو كنت متخذاً أحداً خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً» فدل على أن الخلة أعلى من المحبة.

● الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

تؤخذ من قوله ﷺ: «ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً»، فلو كان غيره أفضل منه عند النبي ﷺ؛ لكان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضاً:

أن الأفضلية في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب؛ لأننا لو راعينا الأفضلية بالنسب؛ لكان حمزة بن عبدالمطلب والعباس رضى الله عنهما أحق من أبي بكر في ذلك، ومن ثم قدم أبو بكر رضى الله عنه على بنى طالب وغيره من آل النبي ﷺ.

[قلت]: وهنا ينجلي معنى قول النبي ﷺ «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

● السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

قال سليمان آل الشيخ<sup>(٣)</sup>: لأن من كانت محبته لشخص أشد فهو أحق الناس بالنيابة عنه لاسيما وقد قال ذلك في مرض موته، خصوصاً وقد استخلفه على الصلاة بالناس وغضب لما صلى عمر بهم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٠).

قال ابن عثيمين: لم يقل التصريح، وإنما قال: الإشارة؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يقل: إنَّ أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لما قال: «لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً» عَلِمَ أَنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَوْلَى النَّاسِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فيكون أحقَّ الناس بخلافته أهد.

قلت: وللنبي ﷺ إشارات أخرى في استخلاف أبي بكر مثل «مروا أبا بكر فليصلي بالناس» (١) وهو في الصحيح، ومنها المرأة التي جاءت فسألت النبي ﷺ إذا جئت فلم أجدك - وتعرض بموته - فقال «أبى بكر» (٢) وهو في الصحيح، ومنها «أنه لما رأى رؤيا وهو يجلس على بئر ويتزعم من البئر ثم أعطى أبا بكر فتزع ثم بعد ذلك عمر» (٣) وهو في الصحيح، ومنه قوله ﷺ «سدوا كلَّ خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر» (٤) وهو في الصحيح.

ولقد نوهت إلى هذه الآثار على كثرتها للإمعان في الرد على الروافض والباطنية الذين كفروا أبا بكر وعمر، أو جعلوا أبا بكر ليس أهلاً لهذه الخلافة، بل هو مؤهل لهذا لأنَّ النبي ﷺ أثنى عليه ثناء ما بعده ثناء حتى أنه كان يفضل على عمر ولذلك شاهد في الصحيح حينما أسرع أبو بكر في عمر بكلمة فقال له أبو بكر ردها حتى تكون قصاصاً فلم يرضى عمر، فلما ذهب إلى النبي ﷺ قال: بل اجلس غفر الله لك يا أبا بكر فلما جاء عمر عتفة الرسول ﷺ وقال جئتكم فقلتكم كذبت وقال أبو بكر صدق، ووساني وآمن بي إذ كفر بي الناس وواساني بنفسه وماله وزوجني ابنته. فهل أنتم تاركوا لي صاحبي فما أغضب بعدها أبداً (٥)، وهو يشير بذلك إلى قول الله تعالى ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فالله عز وجل لم يثبت هذه الصحبة لأحد إلا لأبي بكر مع أن كلهم أصحاب لكن اختصاصه بالصحبة تنويه على أن له مرتبة أعلى في الصحبة على غيره فلذلك استأهل أن يكون خليفة رسول الله ﷺ.



- (١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦، ٤)، ومسلم في الصلاة (٤/١٤٠ - النوى) عن عائشة به.  
وانظر «رياض الصالحين» (٤٥٤ - بتخریجتنا).  
(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٥٩)، ومسلم في الفضائل (٨/١٦٢/١٠) عن جبير بن مطعم به.  
(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٧٦)، ومسلم في الفضائل (٨/١٧٢/١٧) عن أبي هريرة به.  
(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٦٧) عن ابن عباس به.  
(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٦١) عن أبي الدرداء به.